مجلة ثقافة الهند فصلية

المجلد ٤٣ العدد ٢

١٩٩٢م

محتويات هذا العدد:

إن المجلس الهندي للعلاقات الثقافية منظمة حرة تحت وزارة الشئون الخارجية للحكومة الهندية، أنشئت عام ١٩٥٠م لإنشاء و تنمية العلاقات الثقافية و التفاهم المتبادل بين الهند و البلدان الأخرى و كجزء من برنامج مطبوعاته الموجه لتحقيق هذا الحوار الثقافي بين الهند و البلدان الأخرى، ينشر، بين ما ينشر، مجلة فصلية في الإنكليزية "Indian Horizons" و "Africa Quarterly" و في الفرنسية "Rencontre Avec l'Inde" و في الإسبانية "Papeles de la India" و في الهندية "Gagananchal" كلها تصدر أربع مرات في السنة. وبدل الاشتراك السنوي للمجلات في الإنكليزية و في الهندية مطبوع في العمود المقابل إلا أن مجلات المجلس في اللغات العربية و الفرنسية و الإسبانية توزع مجاناً و المراسلات المتعلقة ببدل الاشتراك و دفع الثمن و بشئون الطباعة و النشر توجه إلى:

The Programme Director (Pub)
Indian Council for Cultural Relations,
Azad Bhavan,
Indraprastha Estate,
New Delhi - 110002

و حقوق جميع المقالات المنشورة في ثقافة الهند محفوظة فلا يمكن نشرها بدون الإذن، و الآراء المطبوعة في المقالات هي للمصنفين و الكتاب، و لا تعكس سياسة المجلس بالضرورة.

بدل الاشتراك

للمجلات في الإنكليزية و في الهندية فقط

عدد واحد - ٥ روبيات، $2.50 - £1.00

سنويا - ٢٠ روبية $10.00 - £4.00

٣ سنوات - ٥٠ روبية $20.00 - £10.00

نشرها و طبعها السيد [illegible] سكرتير المدير العامة المجلس الهندي للعلاقات الثقافية - آزاد بهون - نيو دلهي - الهند. طبعت في مطبعة [illegible] جرين پارك - نيو دلهي.

توزع مجاناً

رئيس التحرير: البروفيسور نثار أحمد الفاروقي

عربي جرائد

الحلقة الأولى :

حياة العلامة شبلي النعماني

بقلم : العلامة السيد سليمان الندوي

شهد القرن التاسع عشر المسيحي في العالم الإسلامي بأسره صراعاً بين القديم و الحديث ، صراعاً آذن باحتضار عهد و استهلال عهد جديد ، و انقلاب الموازين الفكرية و المقاييس النظرية ، و تطور العلوم و الفكر و تبدل التوجهات و الآراء ، و تحول القيادة من المتزعمين القدامى إلى حملة لواء التحرر و الانفصال.

أما الغرب المسيحي فقد خضع لهذا التوجه الجديد و استسلم أمام الثورة الفكرية الحديثة المعارضة للدين و المناهضة له ، و لكن العالم الإسلامي - بناء على الاختلاف الجذري بين طبيعة المسيحية و طبيعة الإسلام - لم يستسلم للحضارة الإلحادية المتطرفة بل حاول التوفيق بينهما و بين مقومات الأصالة الإسلامية ، و اختلف موقف القادة المسلمين و الزعماء الدينيين نحو مواجهتهم لهذا السيل الجارف و التيار المدمر للحضارة الغربية.

انقسم العلماء و القادة المسلمون في هذا الوضع العصيب القاسي الذي واجهه العالم الإسلامي من صراع مرير عات إلى طائفتين: طائفة تمسكت بمنهجها القديم و اعتبرت الانحراف عنه ردة و مروقاً من الدين ، و طائفة أخذت بكل حديث مستورد من الغرب مهما عارض الحق و العقل و تناست المأثور الثابت و المبدأ المؤيد بالمنطق و البرهان إعجاباً بالغرب . فكان العالم الإسلامي في أمس حاجة إلى شخصية بارزة فذة تتصف بالفكر السليم و الدراسة الواسعة العميقة المتقنة للفكر قديم و حديث ، تمت إلى الطائفة المتمسكة بالدين و مبادئه الثابتة الخالدة و تميز بين الطيب و الخبيث مما تمخض عنه العهد الحديث في عالم الفكر و الثقافة و التعليم ، و تقضي على هذا الصراع الذي عم العالم الإسلامي و مزقه كل ممزق.

برز العلامة شبلي النعماني على مسرح الوجود في النصف الثاني من هذا القرن بفكره المعتدل العميق و اتزانه الأصيل ، و هو في الواقع تمثل بداية لعهد جديد لا في الهند وحدها بل في العالم الإسلامي بأسره ، فكان شخصية

في العلوم الدينية والفنون اللغوية و الأدبية و العقلية القديمة، و خبيرا بالآراء و الأفكار و الثقافات و المستجدات الحديثة . صحب العلمــاء و الأساتذة الكبار العالميين و المثقفين العظام و خبراء التعليم الحديث، كان مصلحا ، باحثا ، أديبا ، شاعرا ، مثقفا، خطيبا ، كاتبا قديرا ، مؤرخا ، متكلما ، مفكرا ، مصلحا ، سياسيا محنكا، [شخصيتــه] فريدة في التعليم و التربية تجاه كثيـر من متطلبـات و مقتضيات العصر الراهن . فكأنه باقة أزهار متنوعة ذات ألوان زاهية جميلة.

مولده:

ولد العلامة شبلي النعماني في إحدى القرى مديرية "أعظم كره" بولاية أترابراديش شمالي الهند. و تمتاز أرض "أعظم كره" من بين بقاع الهند بما أنجبت من رجالات العلم و الفن و الشخصيات البارزة في كل مرحلة من مراحل التاريخ و لاتزال أرضا خصبة منجبة.

القرية التي ولد فيها تسمى "بندول" كان سكانها "راجبوت" [و هي طبقة الفروسية و الحكم و السيادة] ينتمي إليها العلامة شبلي.

نسبه:

اعتنق جده الأعلى من طبقة "راجبوت" الإسلام قبل أربعة قرون تقريبا . و كان إسمه "شيو راج سينغ" ، ثم سمي "سراج الدين" يتصل إليه العلامة شبلي بثلاث عشرة واسطة ، و نسبه كما يلي:

العلامة شبلي النعماني بن الشيخ حبيب الله بن المنشي الشيخ حسن علي بن الشيخ عبد الله بن الشيخ كريم الدين بن الشيخ محمد رضا بن الشيخ محمد طاهر جوان بن الشيخ أمان الله بن الشيخ محمد إسماعيل بن الشيخ مهدي بن الشيخ آل محمد بن الشيخ أحمد بن الشيخ سهراب بن شهباز بن شيو راج سينغ [سراج الدين].

قصة إسلام سراج الدين :

يحكى عن إسلام سراج الدين أنه خرج يوما إلى بعض ممتلكاته في سراي ميكر، و استطول ذلك وقتا طويلا . فانتشر جوعه و وصل إلى بيته عند الظهيرة بعد ما قطع أميالا ماشيا على الأقدام و كان قد بلغ الجوع و الظمأ منه مبلغهما فلقد رمى ثوبه و نزل عن فرسه و دخل المطبخ من دون أن يخلع نعليه [يعتقد الهندوس أن دخول المطبخ في الحذاء ينجس الطعام، و أما الإسلام فقد رفع الله عنه هذا الإصر] و كانت زوجة أبيه تنتظره ، فغضبت عليه و قالت لسيدها تركية ! [كان الهندوس يسمون المسلمين آنذاك أتراكا] حتى دخلت المطبخ في نعليك ، قد نجست الطعام.

فعمل فيه كلام المرأة ما لا تعمله الخطب الكثيرة و المحاضرات و الهتافات الحماسية و الدلائل المنطقية و قال : " إذا قد رميتني بالتركية فأنا تركي

منذ ثلاث" و خرج من بيته ثائراً ، و [illegible] معهد الزيتونة حيث [illegible]
و يرجع و ... الدين الحق ، و سمي سراج الدين.

والده:

كان أبوه ... يسمى: حبيب الله ، و ... حبيب الله و ...
و ... الله ، و ... تعلم الفارسية ... ،
و برع في اللغة الفارسية ، و كان يتطرق جدا ، و كان يحتل مكانة مرموقة بين
الناس ، و له يد كبير في إنقاذ كثير من الحروب و الفتن ، و الإصلاح
بين الناس. و كان متصفا بالثقافة العلمية و الكرامة و الأخلاق و العزة
... و الإجلال بين الناس ، و كان ذا ثروة و مال يمتاز بالورع و التقوى
و الصلاح.

والدته:

كانت أمه إمرأة صالحة متدينة ، كثيرة النفل ، و كان العلامة شبلي يثني
عليها و يحمد بذكرها ، كان يقول : إنما تعودت على النهوض مبكرا بحسن
تربيتها ، و استأثرت بها رحمة الله قبل سنة ١٨٩٨م

مولده:

ولد العلامة شبلي النعماني في شهر ذي القعدة سنة ١٢٧٤هـ الموافق
لشهر مايو سنة ١٨٥٧م و صادف ميلاده الثورة الهندية الكبرى التي قام بها
المسلمون ضد استيلاء الإنجليز على الهند الإسلامية.

سماه أبواه محمد شبلي، و كان العلامة كذلك يسمي نفسه محمد شبلي ،
ثم اقتصر على "شبلي" و أضاف إلى إسمه نسبة "النعماني" و قد أخطأ من ظن
أن نسبه ينتهي إلى الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، بل الواقع أن العلامة
كان في بداية أمره متعصبا في المذهب الحنفي و ملتصقا به و معتزا، و كان
يحب الابتداع و الابتكار في كل شيء، فلقب نفسه النعماني بدل الحنفي.

طفولته:

قضى طفولته في نعمة و رفاهية و هناء ، و كان مطبوعا على الذكاء
و الذاكرة القوية ، و كان يتذكر كثيرا من قصص طفولته و ... ، ذكر مرة
أنه كان ... في فناء بيته و هو صغير، في ليلة مقمرة ، فحاولوا أن
يحملوه إلى المائدة و لكنه استيقظ ، فقال بعضهم ... و أسرع ... ،
فقال : كيف تمطر و القمر طالع ، فضحكوا على ذلك و تعجبوا منه .

دراسته:

كان العلامة يكره أوامر أبيه ، و لم يكن إلى ذلك الوقت اطلع على المناهج
الدراسية الجديدة و المدارس العربية الحديثة ، فوقفه على الكتاب العلوم

و المعارف الدينية ، تعلم قراءة القرآن الكريم و اللغة الفارسية البدائية في قريته على الطبيب عبدالله الشوكي سنة ١٢٠٧هـ الموافق لسنة ١٨٩٠م. و هو من سكان "جيراج فور" المجاورة لقريته ، ثم قرأ على المولوي شكرالله المتوفى سنة ١٣١٢هـ الموافق لسنة ١٨٩٤م.

نبوغه الطبيعي

كان مطبوعاً على الذكاء الوافر و التعمق في التحليل و حب العلم و الأدب و كان الذوق الأدبي متوافراً فيه منذ الطفولة ، إذا رأى مخطوطة رائعة الكتب على مرأسيها و لم يستطع نقلها نفسه ، و اهتز و طرب تشعر به من يستمع إليه.

و كان يقضي أوقاتاً طويلة في مكتبة تجارية في طفولته يطالع أوراق الكتب، و يتصفح دواوين الشعراء ، و كانت الأبيات الرائعة تعلق بذهنه.

بعض أساتذته

قرأ بعض الكتب العربية على المولوي فيض الله المئوي ثم صحب الشيخ سخاوت علي الجونفوري الذي كان قد عين مدرساً أعلى في مدرسة العلوم العربية بأعظم كره.

و تتلمذ على المولانا علي عباس الجرياكوتي ، و كان أحد المنطقيين الكبار و المناطقة المعروفين ، و عالماً أديباً باللغة العربية ، و توفي سنة ١٣٠٣هـ و على المولوي عناية الله خان الرامفوري في المدرسة الحنفية بجونفور لمدة قصيرة.

مولانا محمد فاروق الجرياكوتي

يدين العلامة شبلي النعماني في تكوينه العلمي للشيخ العربي الأستاذ المولانا محمد فاروق الجرياكوتي ، و كان يدرس في مدرسة "چشمه رحمت" في غازيفور فأرسله أبوه إليه ليستفيد منه.

كان العلامة شبلي النعماني طالباً مطبوعاً على الذكاء الوافر والفهم القوي كما كان الشيخ محمد فاروق الجرياكوتي معروفاً بتبحره في العلوم و اطلاعه من الفنون ، و منهجه التدريسي البديع. و لم تمض مدة يسيرة من الزمن حتى طلع العلامة شبلي النعماني نجماً متلألئاً ، و مفخرة عظيمة لأستاذه الجليل ، كان المولانا محمد فاروق الجرياكوتي يقول عنه : " إنه السيد و ابنه شبلي "

و ترك مولانا محمد فاروق الجرياكوتي انطباعه الكبير على تكوين الفلسفة و بذل العلامة شبلي جهده المستطاع في طلب هذا العلم بكتب في إحدى رسائله :

" درست الفلسفة بحماسة بالغة و اجتهاد كبير و رغبة عظيمة

و ظلت مكتبة علمية مشهورة بها مدة طويلة ".

دراسته :

تلقى دراسته على أستاذه الشهير مولانا فاروق الجرياكوتي ثم حمله الحنين إلى العلم و الشغف به على أن ينهل من منابع العلم المنتشرة في أرجاء الهند حتى يوسع دراسته و يعمق نظره و فكره ، و أراد أن يرحل إلى أساتذة الأدب و الفقه و الحديث الذين ذاع صيتهم و عرفوا كمراكز علمية تشد إليها الرحال.

و كان من بين هؤلاء العلماء الجلة و الأعلام الأفذاذ الشيخ مولانا عبدالحي الفرنكي محلي المفتي الكبير في لكناؤ ، و الشيخ أحمد علي المحدث في سهارنفور ، و الشيخ مولانا محمد قاسم النانوتوي في ديوبند.

اجتذبه أولا صيت الإمام اللكنوي مولانا عبدالحي الفرنكي محلي إلى لكناؤ ، و لكن لم يعجبه منهجه في التدريس. لما شاع عنه من التعصب الفكري و الاجتهاد النظري ، و كان الإمام اللكنوي إمام الحنفية محاربا عنهم.

فتوجه إلى رامفور و تلمذ على مولانا إرشاد حسين المجددي و درس عليه الفقه و أصوله و مكث لديه سنة.

ثم سافر إلى ديوبند و استفاد من مكتبتها العلمية ، و انتسخ كثيرا من الكتب بها مكتوبة علمية ينسخه بخطه.

كان الشيخ مولانا فيض الحسن السهارنفوري الأستاذ بالكلية الشرقية في لاهور قد بلغ في الأدب العربي ذروة عالية و فيها صاحب ، لم تنجب أرض الهند مثله منذ القرون ، فأراد العلامة شبلي النعماني أن يرحل إليه و يرتوي من نميره العذب الصافي ، و شمر عن ساق الجد لسفر إلى البنجاب ، و لم يواظب أبوه على هذه الرحلة أول الأمر ، و لكن عزيمته تحررت الانتصار ، و خرج ببضاعة مزجاة ، و قام بلاهور متحملا المشاق و المتاعب في سبيل العلم.

كان مولانا فيض الحسن أستاذا موظفا في الكلية الشرقية بلاهور ، و كان التدريس الوظيفي يستغرق معظم أوقاته ، و أما بقية أوقاته فقد كان يدرس فيها عليه الطلاب الوافدون من مختلف نواحي الهند، فكانت أوقاته كلها مشغولة ، و لكن الأستاذ ـ نظرا إلى شوق العلامة النعماني ـ لم يستطع أن يرفض طلبه و يصرفه ، فأمره أن يرافقه من بيته إلى الكلية و يدرس عليه كتب الأدب طول الطريق. و استمرت الدراسة على هذا المنوال حتى جاء وقت الإجازة ، فأراد مولانا السهارنفوري أن يقضي إجازة صيفية في وطنه بسهارنفور ، و رغب العلامة كذلك في مرافقته حتى يواصل الدراسة.

و اتفق أن مرافقته لمولانا فيض الحسن تركت فيه آثارا كبيرة و عميقة المدى ، و أنشأت فيه ذوقا أدبيا رفيعا و بثت فيه ملكة أدبية و شعرية و نقدية لم تتوافر في أحد من أقرانه.

كان أستاذه مولانا محمد فاروق الجرياكوتي مولعا بالابتكار و الإبداع

To: www.al-mostafa.com

و التصلب و التشديد ، فكان يقدم المتأخرين من الشعراء و على رأسهم أبو الطيب المتنبي على شعراء الجاهلية ، و كان العلامة شبلي كذلك يتعصب هذا المذهب.

و لكن رحلته إلى لاهور أحدثت انقلابا في فكره و تغييرا في اتجاهه و ذهابه فلهج مع الشعراء العرب الجاهلي الصادق الواقعي حتى حفظ ديوان الحماسة و كان يحتفي بشعره إلى آخر أيام حياته.

و اطلع على كتاب جمهرة أشعار العرب عند مولانا فيض الحسن السهارنفوري ، و استعار الكتاب منه ثم أعطاه مولانا محمد فاروق حتى يطالعه.

انجذب العلامة بالأسلوب العربي السلفي المترسل بعد ما يطالع كتب الجاحظ في كلية عليجره ، و لكن مراسلته لمولانا فيض الحسن السهارنفوري هي التي بذرت فيه البذرة الأولى.

من أكبر مآثر مولانا فيض الحسن السهارنفوري إدراكه للإعجاز القرآني العميق و تذوقه به ، و كان يلقي على تلامذته دروس ترجمة القرآن الكريم باللغة الأردية وفق منهجه الخاص المعتمد على الإشارة إلى المعاني البيانية ، و كان يفهمهم نكات الفصاحة و البلاغة و دقائق البيان و الإعجاز و ظل هذا الذوق و الاتجاه مسيطرا على العلامة شبلي طول حياته ، و له خطاب مطبوع فيه إشارات إلى هذا المنهج الفريد ، و الذي ألقاه أمام بعض طلاب دار العلوم ندوة العلماء حول دقائق الإعجاز و البيان في القرآن الكريم.

استأثرت رحمة الله تعالى بمولانا فيض الحسن سنة ١٣٠٤هـ الموافق لسنة ١٨٨٧م ، تلقى العلامة هذا النبأ الفاجع المفجع و هو يلقي المحاضرة في بعض الفصول في كلية عليجره الإسلامية فانقطع عنها و أشار على الطلاب أن ينصرفوا عنه ، ثم كتب رثاء فيه باللغة الفارسية يفيض حزنا و أسى.

رحلته إلى المحدث مولانا أحمد علي السهارنفوري :

كان من العادة في ذلك الوقت أن يعتني الطلاب بالحديث النبوي الشريف و علومه بعد أن يستكملوا من غيرها من العلوم و الفنون و الصناعات ، و طبقا لهذا المنهج عني العلامة شبلي لطلب الحديث بعد أن تضلع من العلوم و الصناعات السائدة في زمنه و كما أنه تتلمذ في كل علم و فن على أساتذته البارزين المتخصصين فيه ، كذلك قصد لطلب الحديث أشهر المحدثين في عصره.

كان مولانا أحمد علي يلقب بإمام المحدثين ، و لم يكن في الهند أعلم منه بالحديث ، و من مآثره الجليلة أنه نشر كتب الحديث و علومه الخطية ثم قام بطبعها بعد مقابلتها و تصحيحها ، فطبع جامع الإمام الترمذي سنة ١٢٦٥هـ ، و صحيح الإمام البخاري سنة ١٢٦٧هـ ، يقول العلامة شبلي النعماني :

> "كأنه الحبر مطرين ملهمة بكلماته في تصحيح جامع الترمذي و التعليق عليه . و لم أسجل عليه معظم تعديلاته العلمية و لكن لم أترك عليها جهدا و هناك ملاحظة و روابط رئيسية . و كانت مراجعتها كلها مكتملة تولى في سهارنفور سنة ١٣٢٢ هـ"

المناظرة و المجادلة :

الجهد الذي بذله مولانا محمد فاروق الجرياكوتي في سبيل تدريس العلامة شبلي المتفوق على المنهج التقليدي كان من تأثيره أنه أصبح بارزا بمراعاة النظام المنطقي و الاستدلال الفلسفي و مبادئ المناظرة و أصولها . يلمعها بيد يديه في كتاباته و خطبه و محادثاته . و كان معروفا بهذه الميزة بين الطلاب. إذا وصل إلى مجلس من مجالس الطلاب فاتحهم حول موضوع من المواضيع أو مسألة من المسائل . و كان هذا مجهودا سائدا في ذلك الزمان . يجتمع الطلاب و يعقدون بينهم المناظرات و المباحثات العلمية . و من فائدة ذلك أن الطلاب الأذكياء كانوا يتجولون به في دروسهم العقلي و المنطقي و حفظ المسائل من متون الكتب . و كانت هذه المناظرات و المباحثات تحمل الطلاب على مراجعة شروح الكتب و تعليقاتها و المقررات العلمية.

إكمال الدراسة :

كان المحدث الكبير الشيخ مولانا أحمد علي السهارنفوري للدراسة الأخيرة للعلامة شبلي النعماني ، كان يقرأ عليه سنن الإمام الترمذي إذ نوى تحويره و بحث التاريخ الذي إلى بعث ذلك الحرام. و لما في قلبه كذلك الشوق و الحنين إلى هذه الرحلة الميمونة المباركة فتزوج بين حنين إلى دراسة الحديث النبوي الشريف و حنين إلى زيارة الوطن النبوي الشريف مهوى قلوب المؤمنين ، فاستخار أستاذه و شيخه فقال :

> " تكملة الدراسة و الطلب حتى ترجع ، لكن هذه الرحلة الميمونة لن تضيع ثمارها."

فعزم على الرحيل و غادر سهارنفور إلى بلدة بومباي ، و كان أبوه محمد علي عاما شيئا ما جدا بدراسته نحو أربعة عشر عاما . وأنهى الدراسة مدة سنة ١٢٧٩هـ الموافق لسنة ١٨٦٢م حتى سنة ١٢٩٣هـ الموافق لسنة ١٨٧٦م.

رحلته للحج :

سافر إلى الحجاز مع الركب الكريم من حجيج بالكب على بالحب و الشوق و حنين إلى التشرف بزيارة الأمكنة الإسلامية المشهورة و المشاهد النبوية

و المراكز و المكتبات العلمية ، و زار جميع المكتبات في المدينة المنورة ، يقول :

"لم أر في مكان من كنوز الحديث الشريف و علومه ما رأيته في المدينة المنورة."

إعجابه بالأخلاق العربية :

و قد أعجب خلال رحلته إعجابا كبيرا بأخلاق العرب و صفاتهم و كرمهم و سماحتهم و أخلاقهم و عاداتهم ، و يحكي قصة لجماله يقول فيها:

"إذا قدمت طعاما أو شرابا إلى جمالي لم يتناوله وحده، بل قال: فأخذه و بدأ بمن حوله من الأهل ثم وزعه بينهم و أخذ نصيبه ..."

و يقول العلامة :

" أوصيت مرة أن أشتريه ، فقدمت إليه قطعة لحم صغيرة ، فدعا رفقاءه و زملاءه و قسمها بينهم ، فسألته ما الفائدة ذلك ؟ قطعة لحم صغيرة لا تكفيك وحدك فكيف قسمتها لم تستفد بها أنت و لا أصحابك ، فأجاب بالرد الكريم الذي هو منبع كرم العرب و شرفهم وقال: يا شيخي! هذا عار علينا أن نأكل وحدنا."

قال مرة و هو يشرح الفرق بين لغة الكتابة و لغة الحديث :

" كنت خلال إقامتي بالحجاز إذا تكلمت باللغة العربية التزمت بقواعد النحو و الإعراب فقال لي الجمال مرة: يا شيخي ! أنت نحوي ، فظننت أنه يمدحني و يشيد بعربيتي، و لكن انكشف لي فيما بعد أنه إنما عرض بلهجتي و تكلمي بالعربية لا تليق بها."

أول مشاركة في عمل قومي :

العهد الذي أكمل فيه العلامة دراسته كان العالم الإسلامي يشهد فيه حركة قوية كبيرة ، و هي حركة الوحدة الإسلامية (الجامعة الإسلامية) و كان السيد جمال الدين الأفغاني من أسبق الدعاة إليها، و كان أخيرا قد أقام بالقسطنطينية أو كان قد حضر إلى الإقامة بها، و أسبغ السلطان عبد الحميد على هذه الحركة و عرف خليفة للإسلام و أميرا للمؤمنين في كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي و ذكر في الخطب و على المنابر باسمه ، و خلال هذه الفترة نشبت حرب بين روسيا و تركيا محنة الإسلام و كشفت هذه الحرب الغطاء عن أحداث العالم الإسلامي ، و أقبل المسلمون على الدعاء لنصرة السلطان و خليفته و جمع التبرعات و المساعدات المالية للجرحى و المصابين ، و إلقاء الخطب الحماسية المثيرة و إخراج الكتابات في تأييد السلطان ، و كان ذلك و العلامة

شاب يافع . فاكتسبت هذه الحركة قواه ، و بذل جهده المستطاع في سبيل جمع التبرعات في أعظم كره ، و بعث بالمساعدات المالية بواسطة سفير تركيا في بومباي حسين حبيب أفندي إلى القسطنطينية.

أشغاله العلمية والأدبية قبل اتصالاته بالسيد أحمد خان :

أقام العلامة شبلي النعماني إلى سنة ١٨٨٣م في أعظم كره و ضواحيها ، و أخذ خلال هذه الفترة امتحان المحاماة و اشتغل ببعض الوظائف و التجارة و عني بالشئون الزراعية ، و لكن رغم هذه الأشغال المختلفة ، واصل أعماله العلمية و الأدبية و الدينية و القومية.

كتب المرحوم النقاد منير عالم الفاروقي فحرر مقالة عن حياة العلامة شبلي النعماني في مجلة " Islamic Review " في عدد أغسطس سنة ١٩١٤م يقول فيها

> كان شبلي متشوقاً بعد إتمام دراسته مدرساً و محاضراً و واعظاً و درّس خلال هذه الفترة ابن خاله إمام المفسرين العالم الصالح التقي مولانا حميد الدين الفراهي - رحمه الله تعالى - و الواقع محمد سميع المرحوم ، و هو من أخص تلامذته و أقربهم.

و كان يقول الشعر باللغتين الفارسية و الأردية ، و ينظم القصائد في المناسبات و كتب المقالات في الرد على خصومه و ألف كتاب " ظل الغمام في مسألة القراءة خلف الإمام " باللغة الأردية سنة ١٣٠٢هـ.

كان العلامة شبلي يرى - اتباعاً لعلماء الحنفية - قراءة الفاتحة خلف الإمام مكروهة ، فألف رسالة باللغة العربية في أربع و عشرين صفحة أسماها " إسكات المعتدي على إنصات المقتدي " و نالت هذه الرسالة قبولاً كبيراً ، و انتشرت من الهند إلى مصر و الشام و الروم . و لما زار بلدان العالم الإسلامي سنة ١٣١٠هـ أكرمه علماؤها و أجلوه من أجل تأليفه هذه الرسالة ، و كان قد كتبها بلغة فصيحة قوية متينة.

و كان حريصاً على البحث عن الكتب و المصادر النادرة القديمة النفيسة و دراستها ، و كان يقضي معظم أوقاته في مكتبة في أعظم كره ، يطالع الكتب العصرية و دواوين الشعراء.

و كان لدى العلامة نسخة خطية للكتاب "ديوان الصبابة" لابن أبي حجلة التلمساني الحنفي المتوفى سنة ٧٧٦هـ جمع فيه كثيراً مما قاله العرب و العجميون المعرب في التشبيب و الغزل ، و هذه النسخة موجودة الآن في مكتبة دار المصنفين ، و في حواشيها رسالة للعلامة شرحها فيها و في حتى يطلع القراء على أسلوبه في اللغة العربية في العهد الذي كانت الكتابة تقتضي حاجة الكاتب :

سـلام عليكم:

"[illegible]"

[illegible]

دراسة الحقوق :

ثم استعد للحقوق خلال سنتي ١٨٧٩م و ١٨٨٠م و اشتغل بوظيفة المحاماة لمدة يسيرة.

رحلته إلى عليكره :

كانت حركة عليكره التعليمية قد نالت شهرة كبيرة في ذلك الوقت في الأوساط العلمية و الثقافية ، و كان من هدفها تحلية المسلمين بالثقافة الحديثة و تسليحهم بالحضارة الغربية الراقية و رفع مستواهم العقلي و الفكري استفادة من المناهج العقلية و الفكرية الأوروبية و إطلاعهم على كتب العلماء الأوروبيين . لكن هذه الحركة كانت محاولة لعزل المسلمين من ماضيهم الزاهر و حضارتهم الإسلامية العريقة و جعلهم متطفلين على مائدة الغرب.

كان أخو العلامة شبلي مهدي حسن يدرس في كلية عليكره ، فسافر إليه مرة ليلتقي به ، و كتب العلامة بهذه المناسبة قصيدة في مدح السير سيد أحمد خان ، أعجب بها إعجابا بالغا ، و أشاد بها و طبعها في صحيفة "علي كره جازيت" في عدد ٢٥/أكتوبر سنة ١٨٨١م نعرض هذه القصيدة فيما يلي:

[illegible]

لسن سعى اليوم في إصلاح بالهم
إذ كشف لعالمنا عن هذه حقيقة
هو الذي طلع في الأفق منزلة
من طويل السنين و التعقيد عليه محنا
تلك التكسير [illegible] و مضى
[illegible] سعيد الأعراب و العجم
و هكذا صنع [illegible] المسلم
يا [illegible] حب العلوم من [illegible]
أحسن إليهم و لو [illegible]

فذلك جازيه جزيت بما صنع الأمل
فقد الإسلام العلم السيد المطلق
و ذلك ما لم تقله الحسن الأول
و الآن في [illegible]
في [illegible] على [illegible]
[illegible] الأوسكي.
يقول [illegible] جمعي، ما [illegible]
أحسن و [illegible] من [illegible]
و لا [illegible]

كلية عليكره :

و بعد سنة و نصف من زيارته لعليكره عرضت الكلية بحاجة إلى أستاذ للغات الشرقية، فقدم العلامة طلبه، و اختاره السيد أحمد خان لسابق معرفته و الاطلاع على مواهبه.

عين العلامة شبلي أستاذا مساعدا للغة العربية في فبراير سنة ١٨٨٣م. على راتب أربعين روبية شهريا، و أخذ يدرس اللغة الفارسية و اللغة العربية في الكلية.

اتصالاته بالسيد أحمد خان :

كان العلامة نازلا في البداية خارج محيط الكلية فقلما يتيسر له لقاء السيد أحمد خان، و لكن منذ أن تعارف كل واحد منهما على صاحبه عرف فضله، و أدرك مكانته و قيمته، و كان العلامة يحب مكتبة السيد أحمد خان، و كان السيد أحمد خان يحب من يعقد له هذه المجالس العلمية البحثية. فأنزله السيد أحمد خان بمكان قريب من داره، و أصبحت المجالس تعقد بينهما كل يوم، يتبادلان الأفكار و الآراء العلمية و الثقافية و الأدبية. يقول العلامة شبلي النعماني:

> "كان السيد أحمد خان ذات مرة ينظر في كتاب "الإشارات" لابن سينا، و اعترضت له مشكلة عجز عن حلها، إذ وصلت إليه، فقال السيد: انظر، هذه مشكلة أعياني حلها، يقول العلامة: فأمعنت النظر فيها و أنى أستطيع ذلك؟ [illegible] على نفسي، ثم شرحت له المسألة، فتهلل وجهه بشرا."

رأيه في الثقافة الحديثة :

كان العلامة حتى الآن يسمع عن الثقافة الحديثة و محاسنها و مساوئها و هو بعيد عنها و عن مراكزها. و لكن لما وصل إلى عليكره أتيحت له الفرصة

أن يقتبسوها من كتب و يطلعوه ما فيها من محاسن و مثالب. كتب بعد إقامته بعليكره شهور، رسالة إلى عزيز له يقول فيها:

"لقد تأكد لي و أنا مقتنع أن المعرفة التامة بالثقافة الإنجليزية و دراسة اللغة الإنجليزية دراسة فارغة، إن القصص و ملامحه و مناظره، لا يعد لنا كذلك بسعة الفكر و التنور و الحرية الصادقة و الطموح و الهمة العالية، و سماء الرقي - و التقدم ليس هذا إلا معرض الملابس و المظاهر الجوفاء. كان المثقفون في عادتنا يزعمون لنا أن الملتزمين بدرجة البكالوريوس يلمون بالمعلومات الدينية و يحفظون المعلومات الإسلامية - إن هؤلاء الجهلاء المساكين لا يعرفون حركة الأرض و دورانها، و قد قال لي السيد أحمد خان غير مرة إنه ليس بين المسلمين المثقفين بالثقافة الإنجليزية الحديثة شخص واحد يقدم رأيا له أو فكرة في مقال من المقالات خطابة أو كتابة."

يتبين من هذا الانتقاد المر الواضح الصريح أن بريق الثقافة الحديثة و الحضارة الغربية المادية لم يبهر عينيه، و لم يسلبه لحظة واحدة بصيرته للتمييز بين الحق و الباطل، الأمر الذي يدل على أن العلامة شبلي النعماني إنما أخذ من الثقافة الحديثة جانبها النافع للبشرية من علومها و معارفها التجريبية - ثم ضمه إلى التراث القديم الصالح، و فكره هذا المعتدل المتزن المتسم بالدقة و الشمول تجسد في صورة دار العلوم لندوة العلماء.

الشعور بالحاجة إلى الثقافة الإنجليزية :

و كان من فضل إقامته بعليكره أن اتضحت له ضرورة الثقافة الإنجليزية، فاستطاع أن يطالع كتبها و تسرب في أفكارهم تعمقها و تبين أهمية الإنجليزية في كتبه أعظم كره في ٣ يونيو سنة ١٨٨٨م

و إنما جعلت مادة اللغة الإنجليزية في مقررات المنهاج الدراسي لدار العلوم ندوة العلماء بإلحاح منه سنة ١٩٠٣م.

الذوق التاريخي :

يعتبر العلامة شبلي النعماني أول رائد للتاريخ المحقق في العصر الحديث في الهند، و لكنه يبيت في رياسته هذه لكلية عليكره. فلم يكن ذوقه التاريخي بارزا قبل اتصاله بعليكره، و لما وصل إلى الكلية نمي ذوقه التاريخي و غلب و لون عليه لون الفلسفة. و لعل مرد ذلك إلى استفادته من كتب الدكتور "G.W. Leitner" عن التاريخ الإسلامي. و كان مؤسسا و مستشارا للكلية الشرقية بلاهور و عالما بالثقافة العربية و الفارسية. و كان العلامة شبلي يطالع هذا الكتاب و يطرح منهجه بمنظار للتاريخ الإسلامي.

و اطلع خلال إقامته بعليجره على مكتبة السيد أحمد خان الحافلة بالكتب المترجمة المنشورة عن الجغرافية و التاريخ الإسلامي و العربي المطبوعة في أوربا و مصر و الهند و استانبول ، و من هنالك ابتدأ عهد جديد لدراسته للتاريخ الإسلامي.

ذوق التأليف :

كان مطبوعاً على ذوق التأليف ، و كان من قبل قد طبعت له رسالة "إسكات المعتدي" و الرسائل الأخرى ، و لكن لما وصل إلى عليجره نهض ذوقه للتأليف و ذلك بفضل مكتبة السيد أحمد خان.

و كان السيد أحمد خان أذن له بالاستفادة من مكتبته فكان يطالع بين يدي الرفوف ساعات ، و قد يجلس على الأرض ، فلما رأى السيد أحمد خان ذلك أمر له بمقعد يجلس عليه و يدرس الكتب.

الاطلاع على البحوث و الدراسات العلمية الغربية :

كانت الكلية مجمعاً لأساتذة الشرق و الغرب ، و كانوا يتبادلون بينهم أحدث ما يصلون إليه من المعارف و البحوث و الدراسات ، فكانت تتيح له الفرصة للاطلاع على أفكار الغرب و بحوثه و دراساته العلمية و ساعدته على ذلك مكتبة السيد أحمد خان و حظي بوجود الأستاذ آرنولد في الكلية ، يقول الأمير العالم حبيب الرحمن خان الشرواني أحد المؤسسين لندوة العلماء:

> و من سعادة هذا العلامة شبلي النعماني أنه عاصره في الكلية الأستاذ الباحث البروفيسور آرنولد ، فامتزج هذان المولعان بالعلم امتزاج لمعة الأضواء المختلفة الألوان التي تظهر النور في العالم ، اطلع البروفيسور آرنولد العلامة شبلي على مبادئ الفلسفة الحديثة و تفاصيلها ، و وسائل البحث العلمي الغربي و أساليبه و الاستدلالات و التحقيقات و المطاعن الموجهة نحو العلوم القديمة ، و كان من آثار العلامة شبلي النعماني و قوته العقلية أنه لم يتبع مبادئ الحديث بل أعمل فكره السديد بجسارة و رزانة و أخذ بالصالح منها بل [illegible] و رفض الظاهر المموه ، و أما البروفيسور آرنولد فدرس اللغة العربية على العلامة شبلي ، و استفاد منه في الجوانب المختلفة من التاريخ الإسلامي و تاريخ الدعوة الإسلامية ، الأمر الذي حدا به إلى تأليف كتاب "دعوة الإسلام" و تعلم العلامة شبلي اللغة الفرنسية من البروفيسور آرنولد.

مؤهلات إنتاجه بالتأليف :

لا شك أن العلامة شبلي كان منذ طفولته مجبولا على الذكاء و الفطنة و كفاءات الانتقاد و النظر و مواهب الكتابة و التأليف و العلم و الأدب ، و لكنه بدأ في تنمية هذه الكفاءات و توجيهها نحو التقدم و الازدهار لدى عليكره العلمي و الأدبي و بمجالس السيد أحمد خان . و أقام في عليكره نحو ستة عشر عاما ، استفاد خلال هذه الفترة من نواحي الثقافة الحديثة و استقى من مصادر الفكر الحديثة ، تعرف على الأوضاع و الظروف السياسية و الاجتماعية و العلمية و الحضارية للعهد الحديث و مقتضياته و متطلباته و توسع في دراساته ، و اكتسب صناعة الكتابة و أسلوب التأليف ، أدرك قيمة تراثه الإسلامي العلمي و الحضاري ، عرف الغرب و درس اتجاهاته العلمية و الأدبية و رسم صورة محاسنها و مساوئها . مقتضى القول إنه ظهر في عليكره مؤرخا ، مؤلفا ، كاتبا ، شاعرا و أديبا ، جامعا شتى الصفات و علامة للزمان و قد صرح بذلك في إحدى خطبه التي يقول فيها:

> "الواقع أنه إذا كان جزء من حياتي يستحق أن يسمى علمية و تعليمية فإن هذه الكلية هي التي يرجع إليها الفضل في صياغته و صقله و نموه و ازدهاره و تقدمه.
>
> لا أقول إنني لم أشتغل في مجال التأليف و الكتابة من قبل ، فقد طبع لي كتابان بل ثلاثة كتب قبل مدة طويلة ، و لكنها لم تكن تهدف إلا إلى الترويج لآراء الخلافات و النزاعات الدينية و المذهبية ، و تشويه سمعة المخالفين و تضليل خصومهم و الزيادة في الفوضى السائدة من قبل."

و قال :

> "لكني أجد في كل ما أعلمه أو جميع ما تمتعت به أياد هذه الكلية ، فإني تلميذ لهذه الكلية و طالب من طلابها كما أني أشتغل بها و معلم"

إن ما صرح به العلامة شبلي النعماني من شأنه لا يشوبه شيء من المبالغة ، فقد قدم عليكره و ليس له ذكر في الأوساط العلمية و الأدبية و لكن لم تمض ست سنوات حتى اخترق صيته حدود البلاد ككاتب أديب و مؤلف شهير بارع ، و ذاع بواسطة أحسن مقالاته التاريخية و سيره القيمة و منظوماته البديعة و هو مقيم بعليكره.

و قام العلامة شبلي بمشاركة عملية فعالة في نشاطات الكلية العلمية و الأدبية و الثقافية و حركة السيد أحمد خان الإصلاحية و التعليمية ، و وقف

مؤلفاته على الكلية على نحو مخالف لما يهواه ، و ظل يحمل مساعدة للسير سيد أحمد خان.

و كان العلامة شبلي النعماني كان يحمل عقلا كبيرا و دراسة عميقة للإسلام و تاريخه ، فلم يقبل من السيد أحمد خان آراءه الشاذة التي تعارض المعتقدات الإسلامية و الأسس الدينية ، بل انتقدها انتقادا حرا إزاء تلك الجوانب الدينية و الثقافية التي تمرد عليه.

كان السيد أحمد خان و أصحابه قد انبهروا بالحضارة الغربية و الثقافة الحديثة فأقبلوا عليها و أثنوا على علاتها و مفاسدها ، و قاموا بتأويل الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية و المعتقدات الدينية في ضوء المعارف الغربية ، بينما كانت الطبقة القديمة للعلماء قد أغلقت على نفسها كل باب ، و حرمت على نفسها حتى الاستفادة من العلوم الغربية الإنسانية و التجريبية ، و كان العلامة شبلي بفضل ثروته العلمية و عقليته الإسلامية المتفتحة اختار طريقا وسطا ، فلم يحرم المعارف الحديثة و لم يؤمن بها إيمانا أعمى ، بل استفاد منها بعقلية متفتحة و عقل واسع ناقد ، و كان الله تعالى تولى تربيته و إعداده في أكبر معهد علمي حديث في الهند لذلك العمل الجليل الذي حققه مؤلفاته القيمة و مقالاته البديعة العالية ، و أدى دورا بارزا في حركة ندوة العلماء و رسم خطة دار العلوم لندوة العلماء ، و صياغته المنهاج التعليمي الجديد المستمد من تجارب المناهج التعليمية العالمية.

و كان من محاسن صنعه أن وفقه الله تعالى لزيارة البلدان الإسلامية فاكتسب تجارب واسعة و نضجا في العلم و الفكر.

و للبحث صلة ......

تعريب : محمد أكرم الندوي

مولانا حسين أحمد المدني

بقلم : سماحة الشيخ
أبي الحسن علي الندوي

كان الزمن زمن سنة ١٩٤٨م ، و كان مؤتمر منتدى الأحزاب يمارس إجراءاته و برامجه في مبنى المعروف بـ بارة دري الأبيض بلكناؤ، و كان كاتبه شهده على صدر للبحث و التشاور - و ألقى الشيخ محمد أحمد خان الشرواني خطبته حول أي اقتراح، و عرض فيها بعض إحصاءات، فبرز عليه شخصية رجل وقور - عليه لباس عربي و عمامة هندية - و لكن الذي يبعث على الدهشة و الاستغراب أنه تناول بالضبط و التصحيح بعض الأعداد التي ذكرها الشرواني رغم أنه كان زعيما سياسيا محنكا، فكان الشاب المتقدم للانتقاد المقتضب هو مولانا حسين أحمد المدني

ثم استمعت لخطبة الشيخ و ابتدرته أيضا في حفلة سرور و شكر بمناسبة نهاية مقدار الدرس المقرر في السنة للقرآن عقدها طلبة صف من صفوف دار العلوم لندوة العلماء في رحابها - وجدت فيها كلمته كلمة مرتجلة قيمة ، تناول فيها بشكر فضائل و آداب القرآن الكريم و التنبيه للطلبة إلى احترام القرآن و احترام الذين يخدمونه، و التوجيه و بيان السبب فيما أن بعض الفرق لايشكر لها حفظ القرآن المجيد، و قراءته عن ظهر القلب، كما تناول بالتشريح و الانتقاد لزيادة قسط التحقيق في منهاج الدرس القديم و تعلق العلماء في هذا الفن و بعضهم لتنصيب القرآن الكريم و الحديث الشريف و كيف أنزل الله بعد ذلك للقرآن و الحديث من هذا الفن الكلامية الاشتغال عن الفكر و الدراسة مكانا لا بمنعطفه، و تشرفت بزيارة الشيخ لدى عودته من الحج بعد ما كنت طالبا في الندوة، وجئت إلى لكناؤ و تكلفت أحوالي فلقيته بها أول معرفتي بالشيخ وعلاقتي به، فطلب لا يزال شخصه مثالا طريا و ثوبه بسيطة أبيض نقيا، فلما و ترعرع بعيدا عن جو الاصطلاح و التربية ، و لا يكون لديه ميل خصوصي إلى المجال السياسي، و لا عمر خصوصي بالشخصية، فمثل هذا الطالب لايمكن له أن يتشرف أكثر من هذا بزيارة عالم جليل معروف بجل همه و شغفه الاشتغال خدمة الشعب و الوطن.

جاء بيتنا منزلا مستقلا لإقامة الشيخ في الحجاز سنة ١٣٤١هـ ، ١٩٢٢م و كان أخ كاتب هذه السطور الأكبر الدكتور السيد عبد العلي من المتخرجين من دار العلوم بديوبند و تلاميذ فقيه الإسلام شيخ الهند مولانا محمود حسن الديوبندي رحمه الله. و كان لبيتنا " البيت الحسني " بفضل السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد أواصر و روابط دينية تربطه مع أفراد الحزب الديني في كل ناحية من نواحي الهند خصوصا المنتسبين منهم إلى مدرسة شيخ الإسلام ولي الله الدهلوي الدينية و العلمية و منهم علماء ديوبند. و يكتسب بها بيتنا ويمر و أفاضلهم و مشايخهم و منابتهم، فلم يزل أخي متمتعا بحدب شيخ الهند و عنايته مدة إقامته في ديوبند. و كنا نريد أن يختص أخي مصلح ربانيا لإكمال التربية الروحية و الإحسان ثم يقع الاختيار على شيخ الهند، و لم تتحقق هذه الرغبة حتى اعتقل شيخ الهند لسفره إلى الحجاز و واجه محنة مالطا و لم تسنح له الفرصة لتحقيق ذلك في العودة كذلك. لكن الله أراد تحقق هذه الرغبة بشيخ كان من القدر أن يجتمع و يحتل كثيرا من رغبات و مشاريع ذلك الشيخ.

كانت لكناؤ - العاصمة و خصائص عديدة - مركزا كبيرا بل و كبرى المراكز الحركات السياسية و القومية، فكانت تعقد فيها احتفالات حزب المؤتمر الوطني حتى الجمعيات و الهيئات السياسية الجديدة العديدة. و كان كثيرا ما يشق للشيخ أن يحضرها، و لم يستطع الانفصال السياسي و لا العلمي للتفكير الدائم لمؤتمرات و احتفالات حزب المؤتمر الوطني أن يطور شيئا من طبيعته و أخلاقه و رغباته. كانت منازل الزعماء السياسيين و المشهورين في لكناؤ دائما هي المنازل الفخمة أو المنازل العظيمة تكون بها أو أحياء المدينة. لكن الشيخ لم يتلاءم طبعه مع هذه الحياة الأنيقة المترفة، فكان منزل بسيط متواضع قريب من المسجد يسهل به الإقامة و إنجاز حاجاته و لا يكون به التصنع في التكلف و التسكن كان ذلك أحب إليه ألف مرة، و كانت هناك غرفة في منزل جهاولال - اشتراه والدنا بأن تسكن فيها العائلات الأسماء المطيعة المتمسكين بالدين و الشريعة، و استأجر هذه العمارة و جعلها مركزا للعلماء و الباحثين بفضل والدنا - العلامة السيد عبد الحي الحسني مؤلف نزهة الخواطر الندوية. فاختار الشيخ الإقامة بهذه العمارة و بيتنا، و لم يتطلب من قبله غير هذه الحجرة. و قد اتفق أنه ساهم لساعات في مناقشات و احتفالات القصر الفخم "لسيتم مهاراجا" و "باره دري" الكبير. لكنه تناول الطعام على مائدتنا "الفقيرة" مهما أدى ذلك إلى تأخير و وقت طويل، كما حدث أنه زار بعض حفلات الانتخابات زمن الهيئة البرلمانية الإسلامية و كان على البلاط مرتفعا، و هو لم يتناول الطعام بعد، فتناول عندنا "بسكويت" و "مشروب". هذه هي البساطة و عدم الاستعلاء ليعتاد في أن الباعث على إحسانه و خلقه، و كانت عائلتنا شيئا من التكلف و الاصطناع عنده، و رجع في نفسه من ذلك شيئا.

نزل الشيخ ضيفاً و أقام في بيتنا أياماً و ليالي متوالية بل و أسابيع بمناسبة الهوجة البرلمانية الإسلامية و حركة مدح المسلمين و تمجيدها. لا عرفت ذلك و أنت تطلع كثيرة أساليب الاتصال من حديث يجري و مجالس تنعقد و اجتماع يحصل. و لا تسأل عن سرور و أنس و لا تسأل عن بركة و خير، و لا عما يكتسي من دراسة و مطالعة الضيوف الكرام من كتب في منزل محمود و مهنئة بسيطة و عن الصبر عنده و لا حرج !

و الشيء الذي لاحظته بصورة خاصة هو بشاشته و طلاقة وجهه، و تقشفه و تيقظه و إبعاده كل شيء حول نفسه من التصنع و الكلفة، و التزام الأوراد و النوافل و الاشتغال بالقلب و قد شاهدت فيه مناظر ممتعة متعارضة، فبينا رأيت في جانب عاطفة الحب و الابتهال و روح التضحية و الفناء في بعض الحركات الملية، و في جانب آخر رأيت الشجعان يطلبون و استياء المصلحين الذين يرون ما يخطئون و يتساهلون، و ... المسئولين بإخفاقهم و يلومونهم وجها لوجه. و لكني وجدت الشيخ ثابتا على حالة واحدة. و شاهدت أن الأعلام و الأكابر يحضرون إليه و يتكلمون معه بكل أدب و احترام و يستفيدون منه ويتلقون التوجيه و الإرشاد، و لعلهم ... المتكبرين المتعجلين و ... الأدب و ... و الصوفية و ... و قد شهدت ... عن ذلك ... أو ... الواقع و ... في ... البارعين و المعاصرين في مجلس الشيخ قل منهم من استفاد من طرقه الأصيل و انتفع بعلمه الخاص، و إنما كان جل رغبته ينحصر في ذكر الأشخاص أو الجماعات أو التعليمات الخارجة أو على الأحكام و الشعائر و الدعاء، و كان الشيخ يكرم ضيفه و أربعته المعروفة و ... الخالية يحصل كل ذلك و ... و ... و ... في ... أو ... بل يبقى ... و ... الصغير على ... الشيوخ، و كان لا يليق أن ... و ... وجهه ... إذا ما رجعه أحد ... من التزكية و الإحسان أو أكثر ... أو ... و المصلحين و المسلمين، ... طلق الوجه ... - كأنما ... و ... .

لم يكتف هذا العاجز بمشاهدة الشيخ في الخارج و السفر فحسب و إنما شاهده في منزله كذلك، ... عنده في بيته الأربعة أشهر، ... في منزله بصورة خاصة، ثم ... و ... إلى غرفة ... ثم ... بباب الشيخ و ... على ... على الشيخ ... على وجهه، و ... إلى ... و ... لي ... و ... في الأخيرة ... و ... و ... و ... و ... في ... و ... و ... التي ... علي ، ... و ... لم ...

بالمدينة هذه أيضاً لرؤيته المعروفة و مطالعته الكثيرة و بمكتبته الشهيرة و وجدت الكتب جليلة و مخطوطات صحيحة ذات فصول و أبواب منها الصين و منها الأخلاق و منها السياسة، صحيفة حية ناطقة بصحيفة عنوانها الصين و الصدق. و ليس لي إلّا أن أذكر ما كتب الكاتب الشهير الأمير شكيب أرسلان عن مولوي أحمد الشريف السنوسي في حواشيه على حاضر العالم الإسلامي: قد رأيته في المسجد المعتد بالصيان ما كتب تشبيهه و حقّ لي و الله أن أنشد:

كانت محادثة الركبان تخبرنا	عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا فلا و الله ما سمعت	أذني بأحسن مما قد رأى بصري

و وجدت منزل الشيخ مكتظا عامرا بالضيوف من كل أصناف الناس و طبقاتهم من علماء و سياسيين و متصوفين و متطوعين يكتظون إلى الساحات - و الزمن زمن الحكومة الإنجليزية و الأيام أيام حركة التحرير و الجلاء - و من أعضاء الجمعية و العاملين الطلاب و رجال المطبوعات و الراغبين في البيعة و الإصلاح و الطالبين للتعويذ و الدعاء، وجدت مائدة واسعة و وجدت فناءها فسيحا و أوسع من ذلك قلبه. فمنها الأحزاب السياسية و المشرب و الجيل من أكثر الطوائف و صنوف الضيوف، و وجدت بيته زاوية صوفية و مدرسة سياسية و ناديا علميا تلتقي الصحف و الجرائد من جميع أنحاء الهند، و يتوافد عليها الطلبة الذين قد تأثروا و تلقوا السياسة الحاضرة التي تحاول الحصول على الماء، كأنهم لا يجدون الصحف في غير هذا المكان، ثم يتجادلون بينهم أطراف الحديث و يتبادلون وجهات الأنظار، و قد يستفيدون الكتب السياسية من بيت الشيخ و هكذا يتأثرون ثقافة سياسية و يخرجون رجالا متحمسين و أحرارا ثائرين.

هنالك تعارفت بالصحافي البارع مولانا محمد سجاد البهاري نائب رئيس الإمارة الشرعية بمقاطعة بهار (BIHAR) التي رفعه به المسلمون رحمه الله و جمعية العلماء التي مات بالهند، و كان الشيخ يعاملهم بالإكرام و الإجلال له كثير الاستشارة منه، و هنالك تعارفت ببعض زعماء جمعية العلماء. و تعارفت بأساتذة دار العلوم الذين يزورون شيخ الحديث في بيته، و قد كانت تنعقد مجالس منتظمة بعد صلاة المغرب في حديقة الشيخ الصغيرة و بين الضيوف الزائرين أمام بيته.

و كان يحضر في بعض الأحيان عالم يطيب عليه منظر الشيوخ الكبار و روحة المعلمين السالفة، كثير السكوت، قليل الكلام، إلا أنه إذا تكلم تكلم بكلام مثل العسل، و كان ممتازا في هذا المجلس كأنه من أهل البيت حبيبا لصاحب البيت و الشيخ إجلالا له و إعجابا بكلامه ملأ قلبه من حبه و الأنس بكلامه و لا يكاد يمل منه. فكان الحواب من غير مرحب بطريق الرأس من غير حياء، صاحبة من غير منّ. سألت بعض الإخوان عنه فأخبرني أنه مولانا إعزاز علي.

شفع لي الشيخ عند مولانا إعزاز علي بأن يقرئني شيئاً، فقبل و سمح لي بالاشتراك في درس شرح الكافية. كان الشيخ معجباً بهذا الدرس جد الإعجاب، و أختار عدداً من الطلبة النجباء يقرئهم على منهاج خاص، و أذن لي الأستاذ أن أقرأ عليه درساً في نور الأنوار بعد صلاة العصر.

و كانت المشاركة في درسين آخرين مهمين، يلقيهما مولانا حسين أحمد المدني شيخ الحديث و رئيس الأساتذة في دار العلوم بنفسه، و يواظب عليهما، درس الجزء الثاني من سنن الترمذي، و درس الجزء الثاني من صحيح البخاري، شهدتهما و شاهدت جلالة الشيخ و قوة ذاكرته و اطلاعه الشامل الكافي للمسألة ليس حديثاً على الذين يطلعون على نشاطاته السياسية و كثرة أسفاره، و قد كان تقريره حول مسألة واحدة يستمر ثلاثة أو أربعة أيام - اعتباراً من ستين دقيقة لحصة تعليمية واحدة - و يعالج موضوعاً كل ما يتصل بتنشئة المسألة و تاريخها و اختلاف المذاهب و الأئمة و دلائلهم و مصادرهم و نقد رجال الأسناد، فكانت له روعة في النفس، و كانت تملأ دار الحديث خشية من الدين و سحابة من الروحانية، و لا يزال يرن في أذني صوت الشيخ العذب الرنان و لحنه العربي الجميل.

و كانت هذه الدروس من دروس الدراسة الأخيرة و مقرر الدرس الكثير لم ينته بعد، فكانت دروس متوالية و يكاد يكون النهار كله درساً، درس بعد صلاة الصبح و كذلك درس بعد صلاة العصر و فترة بعد المغرب، و درس بعد صلاة العشاء يستمر إلى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة في الليل، و ذلك في الشتاء في البرد الشديد، و لكن الطلبة قلما كانوا يحسون بمقاساة التعب و نومهم و مطالعتهم.

كان الزمن زمن سنة ١٩٣٢م، و كانت برامج أسفاري قد سبقت، و أكثر ما يقضي جمعته في القطار، و إن الله تعالى قد ذلل له السفر مثلما الآن نعرفه عليه الصلاة و السلام حيث قال: " و أذنّ له الحديد " فكان مصداقاً لقول الشاعر: "ما أنا من سفر إلاّ إلى سفر". كنت مشغولاً بمطالعة تفسير القرآن الكريم و أواجه فيها مشكلات ربما يستعصي عليّ حلها بأي كتاب، فكان الشيخ يخص لي وقته بعد كل جمعة لأعرض عليه ما يشكل عليّ من مطالعة تفسير القرآن الكريم. و لكن لم يتح لي سوى بعض الجمعات، و منحني للدراسة و المطالعة بعض كتب سياسية مثل "حكومت خود اختياري" (حكومة الاستقلال) لمؤلفه خليل أحمد و رسائل مولانا محمد قاسم النانوتوي رحمة الله عليه، و كان من بركة الإقامة في ديوبند أن انبعثت فيّ حاجة قراءة الإنجليزية التي كانت تتوطد جذورها في نفسي عن إثارة، و قد تصاعدت هذه النزعة فيّ كثيراً لمّا بعد حتى حدث احتكاك من صميم القلب أن ليس الإنجليز وحده فحسب بل أوروبا كلها داعية للإغراء و الفتنة، و لا يمكن إرجاع الدين و الأخلاق و لا استقلال الدول الإسلامية و الشرقية إلاّ إذا انهارت أوروبا و سبّ فيها سبب التدهور و الانحطاط، و ليس

الأمر أمر حكومة و عبودية دولة أخرى فحسب، و إنما هو أمر حضارة متكاملة و منهج فكر مستقل و دعوة شاملة لها أسسها و مناهجها و أساليبها الخاصة و هي تعارض التعاليم النبوية و الوصايا الدينية و الشريعة و مقتضياتها في نهاية المطاف و طول الخط، على أنها و هم لتعطي للجسم و البيئة التي نشأ فيها موسى عليه السلام بقية من الحرية و الاستقرار. بينما إنتاج ثقافة فرعون و ملأه زينة و أموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك، ربنا اطمس على أموالهم و اشدد على قلوبهم الخ. ثم لتعطي كذلك إلا بعد ما بسطت أوربا نفوذها و سيطرتها على العالم و أحرزت تقدمها الهائل المدهش. لقد كانت الانجليز وسيطا متحمسا و عميلا نشيطا لأوربا المادية اللادينية في الشرق، و كنا نحن أهل الشرق أول من واجهوه، و أكثر من تعرضوا لهجماته الشرسة فاستفزازنا و تقززنا منه أمر طبيعي، لكن الكثير مثله و حدة تقتضي هذه الحضارة و دعوتها و تتحمس لها أمريكا و روسيا و الدول و الأقطار الأسيوية اللاتينية نفسها التي اعتنقت فكرة أوربية و منهاج حياتها بحذافيره و أصبحت بحذافيره و على علاته. كما أن الواقع أن الحضارة الغربية و الجاهلية و الفلسفة التي تصيب العالم الإسلامي من أوربا تعظم و تخطر مما يصيبه من الحكم المادية من الحكومة الأجنبية. على كل فقد كان هذا التقزز النابي يمثل أهمية خاصة في حين من الأحيان، و كان في ذلك - بدون شك - سببا للبيئة التي نشأنا و فضل كبير لصحبة الشيخ و تعاليمه.

لم يكن الكتاب الإلهامي في ديوبند ما يبعث على السلوان و تسكين الخاطر إلا الشيخ وحده، و ذلك لأن نشأتي و تربيتي العقلية و التعليمية قد تمت في بيئة تختلف عنها رغبتي في البيئة الدراسية و الدروس هناك، و لكن نظرة حنانية منه و صلة و ملاطفة له و سؤاله عن شيء بكل عطف و كرم في حين من الأحيان كان كفيلا بأن يخفف وطأة الثقل و ضغط البيئة كله، و تتلاشى به همومها.

و جئت إلى ديوبند في نهاية شهر رجب أو بداية شهر شعبان، و استعد أسبابه و نطاقه و إقامته مدة و بذلك لم تزل يتيسر لنا شرف صحبته. و اتفق لي أن صحبته في السفر فاكتشفت لي ناحية مهمة من نواحي الحياة الإنسانية و الروائع صفحة جديدة من صفحات حياته - الباقية الله - و الاندماج في السفر غيره في الحضر - و لكن رأيته عين ما رأيته في بيته يقوم تمهل، لوداعة خلق و خفة بدن و علو همة و شهامة نفس، و صبر لا يعرف السآمة و القلق - و همة لا تعرف الفتور و الكسل، سهر في خدمة و بطانة في شغل و تروحة في اعتدال، و القلة في الشبع، و حياة كلها جد و اجتهاد و تضحية و جهاد. اتفق لي أن صحبته في إحدى مناطق الانتخابات زمن البيئة البرلمانية الإسلامية، و كان الشيخ من برامجه أن يقوم بجولة في منطقته [illegible] و كان مجموعة صغيرة قد بلغ منه الإعياء كل مبلغ للأسفار المتواصلة و الناس إنما يهتمون بشأنهم لتعليمهم. لا يبالون بصحة الآخرين و راحتهم فيعطون تلى مع الشيخ.

بعد ما لاحظ ما عرفه و تمعنه الشديد . فلقي لوطن للشيخ الزاهد و الاستقامة عندي في "ذاكرة الشاعر علم الله" بزمن مريض ليوم أو يومين . و أحاول أن يظهر الشيخ بعض قوافيه في الزاهد و الاستقامة و قوافيها الجيدة . كانت الحرية المنطلقة في منطقة حارس (تحيرانية) و اشتهر بالشجاعة - و كان معنا كذلك الموضع الذي هو مقام معلم معروف الاتراتيرانية . فاكتشف في هذا الشعر أن الشيخ يمارس هذه المهمة و هو يمكنها رابطة دينية خالصة يدفعه إلى ذلك اعتقاد جازم و عاطفة دينية قوية ، بمعنى بنزاهة الاخلاق و محبة الحق و يقظة . مخاطرة تتوفر في المجتمع و هو في ساحة الحرب . في صلاة الجمعة في جامع حيفا ، و كان الخطيب من المتكلمين لأبناء مدينته من الشرعية و قبل عن بعض علمائها الكبار شيئا كثيرا ، جلس الشيخ بعدما فرغ من السبق يستمع إلى الخطيب مليئا - و انصرف ساكتا بعدما انتهت الصلاة ، و لم يتكلم عن الخطيب شيئا إلى نهاية السطر و لو مرة ، نظم الموضع طلعنا للهدنة و الوزن و القوى .

كما هو حالة الموضعين و كما يوجد خطباء المواثق الاستثنائية ، تحرك الشيخ معه في مطبعة واحدة و لم يلبث أن فرغ بعد حتى تقدمت أنه لا يعتقد على هذا الحكم إلا بعد الترسل ، التقى الشيخ في رأي مريض ثانية - و احتكت وجهها في مسجد الشيخ الشاعر علم الله بعد سيد لصحة الشهيد طويلا مراقب ذكر الله ، و يعد ما خرج منه زمنا قسى الحديث طويلا لم يكسب يتصل إلا بالأخوة و المزح و ختام الأرواح ، و تمنى مشاعره و انطباعاته القلبية عن هذا المكان المبارك الذي يعني الخضوع ، و أعرب عن رغبته في طول الإقامة ، التي لم تكن تتسع له حياة الشيخ الشخصية المتنقلة إلا قليلا .

ثم تطورت الأوضاع و الاضطرابات و جاء الزمان الذي كانت فيه رؤى الشيخ و حركته السياسية مجاريها في طول الخط لرغبات و مواطنيه المسلمين و الفكر السياسي للزعامة التقليدية السائدة آنذاك ، صدع الشيخ بوجهته بكل قوة و صراحة ، و بين المساوئ و الأخطار المحدقة بالاتصال ، و لم يقتصر على ذلك - بل قام بجولات موسعة في أرجاء البلاد ليبث دعوته و إيضاح حركته و ترويج أفكاره و خطب في مختلف الأماكن و نشر لذلك كتيبات و مقالات عديدة ، و كان المسلمون لذلك عرضة لصراع عقلي و توتر نفسي متضارب مرجعه سببان : أحدهما تعرض أبناء الوطن و عملائهم و تضحية الأمر التي تطلبها الوضع من الحكومة الانجليزية ، و لأجل ذلك لم يكن في مقدمة هذه الحركة إلا الطبقة التي احتكت بهم في المكاتب و المواثيق الرسمية و المعاهد و المرافق العسكرية الأخرى ، و الثاني يرجع إلى طبيعة القيادة الوطنية للمسلمين ، إن هذه الزعامة التقليدية اتخذت مواقف المسلمين و بذلت بمصالحهم مبلغا ليصبحوا به يتكلمون على الجمهور أمرائنا و شيوخنا و ملكوا كل صلاحية للاستماع إلى أي رأي معارض و شجاعة و استقلال الفكر في أي قضية يطلب منهم و نفس ظاهر و تطبيقية على جميع وجوهها - و لكن إخلاص الشيخ و عزمه الصميم و شعوره بالواجب

ليس أن يخضع لهذه الظاهرة المؤسفة و أن يستسلم لها، و تغيير أفضل الجهاد
و عد من واجباته أن يصمد في وجه هذه الظاهرة الجاهلية و يصدع
بكلمة الحق أمام قوتها الهائلة وفق ما يملي له ضميره و عقيدته الإيمانية، مما أدى
إلى أن حدث في الأسفار و الاجتماعات و الحفلات ما لم يكن بالحسبان، و أدى
في ذلك ما لم يكن يليق بتاتا بشخصيته البارزة و بمكانته السامقة الجليلة
و مكانته العلمية الدينية، و كانت هناك طبقة يسوءها تطبيق الأمور الدينية
بجانب الأمور الظاهرة، و كانت هذه الطبقة تتكلم و تتحايل بالأحداث التي
كانت تظهر في مختلف الأماكن، و تشهد شهادة ظاهرة على مكانة الشيخ
و نزاهته و إخلاصه و ربانيته، و تعتبر هذه الأحداث المؤلمة جزءا و عبارة
طبيعة للمسلمين، الذكر أنه لما كان يقرأ حديثا أحد منه في أي مجلس من مثل
هذه المجالس حادث محطة "سهارنبور" لم يتمالك الشيخ الرباني مولانا
عبدالقادر الرائي بوري و شيخ الحديث مولانا محمد زكريا الكاندهلوي كانا موجودين
في تلك المجالس، من البكاء من شدة التأثر بهذا الحادث الفجيع، و لم يبق أحد منه
إلا و ابتلت عيناه، فاستحسنت الطبقة أتباعه بحب الشيخ و الهيام به و خلوصه
و نزاهته شبه جزيرة يحفها من كل جانب بحر زاخر من الحقد و الاستياء،
و سوء السمعة و الفظاظة، و العصبية و الافتراق و التعصب و العنصرية
تصطدم أمواجه العاتية بشاطئ، هذه الجزيرة ثم تنصرف. و كانت هذه
الجزيرة عامرة بالآلاف بل بعشرات الآلاف من المسلمين المخلصين الذين كانوا
يعيشون الثقة حتى في تلك المناسبات العويصة الشائكة. فمن خلوص الشيخ
و عقيدته و نزاهته التي لا ترقى إليها الشبهة، و كانوا يلتمسون من قريرة
القلب بأن الشيخ يمكنه أن يجتهد و يخطئ، فإن جميع أصحاب الاجتهاد،
و لكن الله رفعه عاليا عن كل من الانتهازية و العصبية و الإعجاب
بالنفس و حب الشهرة و الظهور، و يمكننا في الكلام إنما كان يقع على نفس
الجزيرة، و بناءا على أن الكلام كانت من المراكز الهامة لهذه الحركة الشعبية
القلق لذا أن نتصور بهذه الحيوية الإيمانية من الغضب و القلق و تصطلي
بنيرانها المتصاعدة.

و بالجملة فقد جاء الزمان الذي انسحب فيه الزعماء و القواد من الميدان
و غادروا المسلمين الذين أسقطوا موطنهم و تركوا مساكنهم و المذعورة حالتهم
التي بنوه، مما أدى إلى تعرض المسلمين لليأس الشديد و قطع الرجاء عن
المستقبل و عدم الثقة و الاعتماد بنفوسهم و مركب النقص فهم جاثمون
متباكسون لخطط ظلمها من الذعر و الهوان و الضنك لا يجدون من يعزيهم
و يسليهم حتى كأنهم لسيح من الإيلام في غياهب الظلام، فتعالى صوت الشيخ
و أشباهه ليدعوا إلى المسلمين لتثبيتهم و تشجيعهم و يبعثوا فيهم الرجاء
و الطمأنينة إلى المستقبل و يثيروا هممهم و ينشطوا عزائمهم لمقاومة
الأوضاع الحرجة و الصمود في وجهها بصمود الجبال الراسيات و البقاء في

أوطانهم مهما أدى ذلك إلى المخاطر الروحية و الثقافية. و تهاجم بقاء المسلمين لمصالح الهند و لا سيما لاترابراديش . التي تمثل مكانة المركز الثقافي و العلمي و السياسي لمسلمي الهند . لذا كان يتوقف على بقاء و ثبات المسلمين في الجمهوريات المتاخمة لغربي اترابراديش أي سهارنبور ، مظفر نكر ، ميرت . فلو كان المسلمون قد هاجروا الذين هي واسطة جمهوريات اترابراديش و شرقي بنجاب زالت أقدامهم و تشتت جمعهم لانعدم للمسلمين الثبات و البقاء في أي جمهورية، و كانت سهارنبور و الجمهوريات المجاورة لها تشهد تحت ضغط الأوضاع القلقة و قربها من شرقي بنجاب كانت تشهد حركة عنيفة و قلقا قويا إلى النزوح و الانتقال . فمن فضل الله ثم بفضل الشيخ و سهارنبور و سكينتهم المعهودة بالتقدير و الثناء أنهم قاوموا حركة النزوح تلك المقاومة، و أشعروا أحاسيس المسلمين دينيا و سياسيا، و صبروا عن مغادرة مساكنهم و بذلوا مساعي جهدهم في الأخذ بحماية المسلمين و بعث همتهم و تثبيت أقدامهم و كان في ذلك أيضا نصيب كبير لجهود الشيخ الشخصية، فقد كان نفسه و شخصيته الملتهبة المتحمسة لعبت دورا بارزا في بث الروح الحية في مسلمي هذه الجمهوريات و تشجيع عزائمهم و إثارة عواطفهم ، حتى هدأت العواطف و توقف النزوح . و قد يشعر كثير من الناس كأنه لو كان في صحة الشيخ بقية من الجد و الجهد و ساعدته الأوضاع و صاحبه الرفقاء و الأتباع، و لم تكن الأوضاع و الملابسات . على العكس مما كان يرجى . لحقق قواه و أحسن مواهبه لاستطاع الشيخ أن يعالج الأوضاع المتدهورة المتضررة و يوجهها توجيها رشيدا و يسد ثغراتها و يقاوم الاتجاهات المنحرفة بنفس القوة و الطاقة :

و لو أن قومي أنطقتني رماحهم نطقت و لكن الرماح أجرت

يبدو للشيخ أنفس ذكريات حياته و قوته و أروع صلاحيات عقله و قلبه و جل شجاعة نفسه و علو همته الفتية في مقاومة الإنجليز و إجلائهم الأمر الذي قد أحدث لذلك صعوبة لشيخ الهند و تجربته و دراسته لما ظهرت نتائج ثورة ١٩٤٧م الحديثة بمقتضياتها الطويلة و متطلباتها المتنوعة كان يرى أنه لمحافظة الدين و لاستقلال الأمة و القوى و تنظيم الأعمال و الواجبات، و كان الرأي السائد أن مصير بقاء المسلمين في هذه البلاد في ظل الأوضاع المتقلبة أشد نوع من القلق و الاضطراب العظيم، و أنه قد جاء دور أولئك الذين يشرفون على الآثار المهيبة لهذه الثورة و يقدرون على التصدي في وجهها علميا و فكريا.

إن شخصية تجمع أمثالا من الفضائل و الخصائص من التمايز، يتحتم علينا أن نظهر الميزة التي تتميز الشخصية و تحتل أبرز مكانة و أروعها من بين مزاياها و خصائصها، و التي يمكننا أن نعتبرها قطبا لتلك الشخصية تدور حوله جميع مواهبها و مزاياها و تسهل به معرفة حياتها و شخصيتها. إن

كثيرا من الناس يعرفون الشيخ كعالم و محدث، و الخبير كمصلح و عارف رباني و منهم من يعرفه كموجه سياسي و مجاهد، و لا شك أن الله تعالى وفقه أن يتحلى بالكثير من هذه الفضائل و الشخصيات من المحاسن و الأخلاق . و الذي ميزت حياته تتمثل ... في ذاتي التقليدي - الثقافة الرئيسية في حياته و تميزت من بين أقرانه و معاصريه : و هما العزيمة و الأنفة و الحمية . و في سبيل أكبر على عزيمته أن تجاوز و تخطى دائرة التعصب، و أصل التدريس ، و اعتنى بالقضية التي كانت من أهم و أخطر القضايا آنذاك، و تحرير شرف الشعب الهندي ... حيث منحه سلطان جائر بما أعطى الحق مدويا و رفع كلمته عالية أمام حكومة الإنجليز و هي في ريعان شبابها و حضورها في رابعة النهار، فظل لياليه أسيرا في مالطا و التقى السنة اليوسفية بالسجون في المعتقلات الهندية شهورا و أسابيع، و صمد في وجه الظلم و القوى برباطة الجأش و صبر شهور الرابعة سنين طوالا، حتى حقق الله غايته المطلوبة، ثم إن هذه العزيمة تتجلى بأروع أشكالها في جميع نواحي حياته، فالتمسك بالواجبات و المحافظة على السنن و المندوبات و التزام الأوراد و الوظائف بصفة دائمة منتظمة في هذا الزمان، كما أن إيثار الجهود و المساهمة في الاحتفالات و الاجتماعات الدينية و تحمل كل صعوبة و مشقة في سبيلها بصفة منتظمة، ثم إن المواظبة على دروس دار الحديث و إكمال التدريس الدراسي بجهد كبير، و إكرام الضيوف و لقاء الزوار بوجه طليق و حسن معاملته مع الأصناف المختلفة الطبقات و الفئات و تحمله و صبره على طبائعهم الطبيعية المتنوعة أيضا جهد كبير، و زد على ذلك تربيته لمتعلميه و مريديهم و رده على الرسائل الكثيرة، و كل ذلك في خضم أشغاله و واجباته و حله و ترحاله . أليس كل ذلك دليلا على عزيمته المدهشة الخارقة و علو همته العجيب المثير؟ الواقع أنه برهان على العمل بالحديث الشريف: إن الله يحب معالي الأمور و يكره سفسافها - و أكبر صورة لهذا الحديث في جميع نواحي حياته.

و الحمية أروع و أزهر عنوان لصحيفة حياته، فهي التي أثارت فيه عاطفة معارضة الإنجليز و مكافحتهم التي لم يتخل عنها إلا بعد ما طوى الإنجليز بساطهم من هذه البلاد، و هي التي كانت تدفعه إلى المساهمة و الاشتراك في شئون حركة الخلافة و جمعية العلماء، و هي التي جعلته قائدا متحمسا و متنقلا في كل حين و آن، و هي التي أثارت معارضة عنيفة لدى و الرؤساء من الناس، و كانت هي الحمية التي حملته على أن يلبس الخشن شهورا بعد الطرق الماضية للاستعمار برمتها حيلة لا شيء، كثير من الحماسة و النشاط حتى يظهر أن المعارضين قد شبعوا و أن ليس هناك كلمات تنطلق و إنما هي خرافات يطلقها القلب الفارغ، و كان من نتيجة هذه الحمية تحملها أن لم يتحمل قط، و لو للحظة، أن ينظر أمامه منكرا يرتكب أو عملا مخالفا للسنة الشريفة، و كثيرا ما كان جلساؤه و المعاصرون حوله يظهرون بصورة هذه

الشعبية، و قد استدلت أصابت الناس مرضوا فيه هذه العقلية التاريخية و أدركوا مدى عبقرية هذه الشخصية في عبقريته و سيطرتها على نفسه. كما أن كثيرا من اتباعه استغلوا كرم طبع الشيخ و مرونته في مسائل الأداء و من طبيعته لسياساته الكرام و بذلك تسببوا في تسرب سمعته للفلسفين و معاملته [illegible] و يوهنوا بتسهيل أغراضهم الشخصية و رغباتهم الشخصية على شخصياتهم و امتيازاتهم و تعصبهم و مصالحهم و استغلوا التيسير ببساطة الشيخ و تقواه.

مهما كان الشيخ رغبة من الناحية العلمية و السياسية، فلا أكثر ما كتب و سيكتب عن ذلك الكاتبون و يناقشه الناقدون، و لكن الناحية التي هي أروع و أجمل نواحي حياته و أكثرها جديرة بالتقدير و الإعجاب إنما هي مرونته السياسية و عقليته الإنسانية.

إن دنيا العلم و الأدب لا تخلو من الشخصيات الفذة و العباقرة البارعين الموهوبين، و يمكنهم أن يختلفوا في آراء الشيخ السياسية. فلم تحرق الشيخ الشهرة و المناصب فيما بعد و جاهه يتصور البلاد بعد ثقله، و فيها الحديث عن عظمة هذه البلاد بالروح العظمى و نزاهته النفسية، و ما لقي الشيخ الجليل و المتورط في آخر عمره عن تأمين الكيان و منع الشرعية - الذي سنه قرار حزب المؤتمر الوطني في دستور الهند - للأحوال الشخصية و اللغة و الثقافة و التعليم الديني، و ما لقي شوارب مرة مؤسفة من زملائه و رفقائه - ممن تطلعوا للمناصب و حصلوا على السلطة و النفوذ - في المكافآت و الجهود السياسية. كل ذلك من المظاهر التي مهما عجزنا عن إظهارها لكن قلم مؤرخ المستقبل لن يمتنع فيه عن تسجيلها و إبرازها أمام العالم من صفحات التاريخ على أن الحديث الذي انتهى إليه النتيجة و لا يطيق أي بحث أو نزاع و جدال هو سمو خلق الشيخ و ثبات شخصيته و نزعته نفسه و علو همته و خلوص نيته و بساطة حياته و شفافية قلبه و مكارم أخلاقه التي جعلت شخصيته نموذجا خالصا و جوهرا صافيا، و بلغت به إلى قمة العظمة الخلقية و السمو الطبيعي الذي تمثل به شخص الصدر الأول العربي فكأنه:

[illegible] كالذهب المصفى   [illegible]

و يحق الله كاتب هذه السطور أن يقابل الشيخ عن كثب و في مختلف الأحوال من السفر و الإقامة و الرضى و الغضب و الضيق و الضراء و الخلوة و الاجتماع و شاء الله أن يتخذ للشيخ بيتنا منزلا له في لكنو منذ سنة ١٩٤٣م في أسفاره و هي كثيرة كانت تكون مستمرة، و هذه الصلة يرجع فيها الفضل إلى الوالد بيتنا و مجد أسرتنا حضرة الدكتور السيد عبد العلي مدير ندوة العلماء، كان له خصائص الشيخ بها و الشيخ و صداقته الزائدة، كما أتيحت لي أن أتعرف على الكثير من نواحي حياة الشيخ و أخلاقه و خصائصه [illegible] الإنسانية المثالية في بيتنا و مختلف الاتصالات فيما بعد.

شغوف بالسير و التراجم و دراستها و لاسيما العظماء المذكورين و الشخصية المتواضعة الكبير كتاب يعرف في جنبه القارة الهندية في السير و التراجم "نزهة الخواطر"(١) لمؤلفه والدي الجليل العلامة السيد عبد الحي الحسني عميد ندوة العلماء السابق مؤشر ذلك على مشاهدة الشخصيات وأحاديثها و صحبتها و دراسة سيرهم و شمائلهم بنظر دقيق و تحديد و تعيين و اختيارهم بمعايير المطلب الثابتة، و انطلاقا من هذه التوجيهة و الطبيعة كنت رأيت الشيخ وجدته آية في الكرم و الشرف و المروءة و سمو النفس و عفتها و الفروسية و الفراسة و السيرة و الأخلاق ، و قد ترك ذلك على نفسي أثرا عميقا لشخصيته و سموه بحيث كلما انتظر نحوي و طلبني من الجانب مع أني رأيي سياسي للشيخ أو تصديق و اتجاه معين له و لم يضعفه على كلما قلت حالتي نحوي جاذبية شخصيته و سمو سيرته و جلالته و فراسة نفسه و خشيته الطيبة، و تعلقه على حبيبي هذا جالبي على وجه الشيخ و تواضعه و بشاشته و محبته و ... لم ينقص منه شيئا.

وجدت الشيخ كاملا على المعايير السامية للعظمة الإنسانية و السمو الخلقي. فكان الخلوص و الصدق جوهر حياته و الدافع لجميع أعماله و جهوده و نشاطاته. فكما أن بعض الانتهازيين يجب عليهم أن يكونوا مخلصين على أي حال و في أي عمل حتى يقبلوا ذلك و يستفيدوا منه ، بناءا على أنه هو المصلحة الانتهازية و الشخصية و حب الظهور بمثابة الطبيعة الثانية لهم كذلك إن المخلصين الذين طبعهم الله على النزاهة و الإخلاص يستحيل لهم أن يكونوا غير مخلصين و تندفع طبائعهم بدافع من نفسها إلى الإخلاص و التقى . حتى أن العمل الذي تتم مزاولته مشوبا بالأغراض في عامة الأحوال، من مزاولة السياسيين المخلصين لهم يكون هذا العمل أيضا متحررا عن الأغراض الشخصية و مطبوعا بطابع من الإخلاص و الاحتساب. فالدور السياسي الخطير الذي لعبه الشيخ في حركة تحرير الهند- و ما تحمل المشاق و الصعوبات في سبيل ذلك، إنما قام بذلك كله مدفوعا بدافع قوي من بغضه الشديد و كراهيته للإنجليز - الذين كان يعدهم من أعدى أعداء الإسلام و محنته ، و تحرير الهند . و تمهيد الطريق بذلك لتحرير الدول الإسلامية ، و زد على ذلك عاطفته ، و كونها كانت تحمل ميراثها ـ للطاعة و الاتباع لشيخه و أستاذه و لمسيرة حبيبه و مرشده الحبيب شيخ الهند مولانا محمود حسن الديوبندي ، و لم تخطر بباله سوى ذلك أي خاطرة من النفع الذاتي و المصلحة الشخصية، و لذلك لما نالت استقلالها و تكونت الحكومة النيابية اعتزل الشيخ السياسة العملية، و عكف على التدريس و التعليم ، و أكب على الدعوة إلى الله و تربية النفوس. كتحمل بالحكومة و رجالها، كأنه قد أدى وظيفته و انتهى دوره. و أعتقد أنه لم يكن في الزعماء و القادة الدرجة الأولى إلا هو وحده الذي لم يتسلم أي منصب الشخصيات الحكومية و المناصب السياسية الخاصة، حتى انضمام عليه

رئيس الجمهورية في جمادى الأولى ١٣٧٢هـ بوثيقة مشرفة. فرفض ذلك قائلاً إنه لا يستطيع [illegible]. و بقي في ديوبند يدرس الحديث الشريف، و يتجول في الهند، يدعو المسلمين إلى التمسك بالدين، و اتباع الشريعة الغراء، و اقتفاء السنن النبوية و إصلاح المجتمع. و لم يقتصر الشيخ على أنه لم يتسلم أدنى قيمة لخدماته و جهوده التدريسية بل [illegible] و لا أي مساعدة و لا موظفة و لا [illegible] له. و قد [illegible] الواقع و [illegible] الأحداث أن الراتب الذي كان يتقاضاه في ديوبند - و الذي كان يكفيه و يعيله كما يدل على أنه تبرعي - لم يكن يتقاضى نفقة عائلته الواسعة لأسبوع بل و لنصف أسبوع، و قد كان [illegible] بالأمطار و الفيضانات. الواقع أنه قضى حياته كلها في الإخلاص و الاحتساب، و [illegible] راتب المدرسة، و قد كان يتكفل عن تلاميذه، ربما أعطاهم منه بالكثير.

و كان الشيخ نسيج وحده في الجمع بين أعلى المستوى الإيماني و الخلقي و هو [illegible] العلم و [illegible] و أحرص من المجاهدين و [illegible] بالتقوى في الحب و الصبر على المكاره و المصابرة للأعداء بل إسداء الخير إليهم و الدعاء لهم في صلاته، فلم يشتك و لم يجد شيئاً مما لقيه في محطة [illegible] و مما جرى من الأحداث المؤلمة الحزينة التي تمخضت عنها الحروب الطائفية للاستقلال و التقسيم و التي [illegible] ذكرها [illegible] الإنسانية [illegible] و تكاد تتصدع الأكباد [illegible] - على [illegible] - فقد كان [illegible] يدعو لهؤلاء الظالمين في سحره و [illegible] بالضراعة و الابتهال - و كلما [illegible] هؤلاء الجاهلين المتهورين [illegible] من الشيخ رسالة شفاعة، لم [illegible] و [illegible] من طيب الخاطر و [illegible] الكاملة [illegible]، و إن [illegible] أي خادم من خدامه أو رفيق من رفقائه بهذه المناسبة أن [illegible] به و يذكره [illegible] و [illegible]، الواقع أنه كان يتحلى بالأسوة النبوية المطهرة [illegible] و أن أعفو عمن ظلمني و أصل من قطعني و أعطي من حرمني.

لم يكن الشيخ ينتمي إلى بيت غني و أسرة ثرية و [illegible]. و لكن الله وهبه همة الملوك و [illegible]، بل و سماحة الأسخياء و الكرماء، و ورثة الأنبياء، و سعة صدر [illegible] و رحابة [illegible]، فكان [illegible] في [illegible] أن [illegible] الآخرين، بل - على العكس من ذلك - [illegible] إليه الشيخ، فقد كان [illegible] من توسيع [illegible] و [illegible] من توسيع [illegible]، و الواقع أن قلبه كان أوسع من [illegible]، و [illegible] أن كان [illegible] حول مائدته [illegible] كل يوم، من [illegible] و [illegible] من [illegible]

To: www.al-mostafa.com

+ سياسيين و متصوفين و متطوعين يدعون إلى السجون أو منها يخرجون، و كانت مضافة الشيخ و بشاشته و شفاعته و نصحه و تلطفه و انطباعه ينم كل ذلك عن مدى سروره و أنسه .. و انبساطه و ابتهاجه و لذته و سعادته الروحية.

لقد كان أسعد بإكرام الضيوف و النزلاء و تأمين راحتهم و إطعام الطعام، عوائد العرب و طبيعته الثقافية، ثم إن التواضع و الانكسار و التكريم و الاحترام و البطولة و البشاشة التي كان يتحلى بها ضيوفه يذكرنا بشعر الشاعر العربي القديم:

و إني لعبد الضيف ما دام ثاويا ... و ما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

و لم يكلف بذلك بل ضيوفه في كل مناسبة و فرصة ان يكون يده طويلة و تسنح له فرصة النفع و الإفادة بدل الانتفاع و الاستفادة، فإن تحسن إليه أحد شيئا أو خدمه في أي أمر متعلق بالنفس وجده أن يحسن إليه خيرات و يوفي حقه . فكل ما قرأت عن مساعدة أهل البيت و الصالحين و حوارييهم و بسالتهم وجدت عكسه و ملامحه بارزة متجلية في حياة الشيخ و سيرة بعض أقرانه و معاصريه الكبار.

إن سمو الخلق و نفسه و استصغار مطالبه و إطلاقها مع التحلي بمحاسن الخلق و مكارمه و شهامته لدليل على سمو المروءة و كماليّة و برهان على أن الإنسان قد ارتفع من سيطرة النفس الأمارة و تنزه عن الاغترار بالنفس و الإعجاب بالنفس قد شهدت هذه الخصلة في حياة الشيخ و ازدان بها حفيه دون قوله

كان الشيخ يكتب اسمه مقرونا بـ "سبة الأسلاف" و قد استهزأ بذلك بعض المعاصرين الجهلاء، لكن الذين يعرفونه عن كثب و يعثرون على أحواله الواقعية يشهدون أن هذه النعوت و الأوصاف يمكن أن تكون عادات و تقاليد للآخرين لكن كان ذلك يمثل الشيخ و اعتقاده في نفسه و لم يكن يشوبه شيء من التكلف و الاصطناع، فكان يعتبر نفسه "سبة الأسلاف" و يعرض بذلك عن تزكية النفس و مناقشة الألقاب بينما جعله الله خير خلف الأسلاف و مصداقا لـ "نعم الخلف لنعم السلف".

و إضافة إلى هذا اللقب المتواضع - سبة الأسلاف - كان الشيخ كثيرا ما يذكر بفخر كثير من الكلمات و الأشعار و الزفرات المتصاعدة تعبيرا تنم عن مدى ندامته و خجالته من نفسه و إنكار الذات و عدم اعتبار نفسه شيئا، تذكر أنني ذات مرة - و كنت أنزل في بيت صغير - تمسكت الماء على يد الشيخ لم يكن يوضعا فكان يختم البيت التالي بصوت و أنا و لهجة كبيرة و زفرة متصاعدة:

غضب الذين يصلي في أكفانهم ... بقي الذين حياتهم لا تنفع

شاهدنا الهنــد

كما كان ينشد البيت الفارسي التالي :

نه گلم نه برگ سبزم نه درخت سايه دارم
در حيرتم كه دهقان بچه كار كشت مارا

يقول الشاعر: لست بزهرة و لا ورقة خضراء و لا شجرة مظللة ، فتحير على أن الفلاح لأي غرض زرعني و أنبتني؟

و يمكن أن نقدم كثيرا من مقتبسات رسائل الشيخ، تدل على أنه كان لا يعتبر نفسه شيئا و أن الله بلغ به إلى القمة في التواضع و انكار الذات و كسر النفس ، لكنني اكتفيت فيما كتبت بما يتصل بمعرفتي الشخصية و ما شاهدته عيناي عن كثب لا عن كتب و شتان ما بينهما.

لقد أكبر المسلمون على مختلف طبقاتهم وفاة الشيخ في عالم العلم و الصحافة ، لكن قل من يتكلم و يشعر بالفراغ الذي وقع في مدرسة الاعتدال و الانسانية و المحبة الروحية ، و لعل السبب في ذلك أنهم لا يعتبرون الروح شيئا يعرفون بها شيئا أو ماهية فيحسوا بأي فراغ بوفاته شيخ رباني . لكنني أعتقد - على العكس من ذلك - أن فاجعة وفاة الشيخ الندوي في هذا العهد الذي يعاني من جفاف ينابيع الانسانية و يشكو من القحط الروحاني ليس إلا خسارة خلقية فادحة و رزية إنسانية لا تعوض.

و ما كان قيس هلكه هلك واحد
و لكنه بنيان قـــــوم تهدما

تعريب : الكاتب سالم الندوي

الهوامش :

١ - الشيخ الندوي يعرف في شبه القارة الهندية في تراجم الرجال الذين نبغوا في الهند من الفتح الإسلامي الأول إلى سنة وفاة مؤلفه ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) ويطوي أبعاد الترجمة من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري ، و السلسلة الثانية من ... [illegible]

[illegible]

٣٤

الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي
و أسرتـــــه

بقلم: المفتي نسيم أحمد الفريدي
شيخ الحديث بالمدرسة الإسلامية أمروها، الهند

إن الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي – رحمه الله – من علماء الهند الذين تفتخر بهم الهند بحق، و إن بركات هذه الشخصية العظيمة لم تقتصر على الهند و السند بل تعدت إلى الدول الأخرى و العالم الإسلامي بأسره أيضا. فقد كان محدثا نابغا و فقيها منقطع النظير من جانب و شهيرا برموز علم التصوف و صوفيا محققا و مفكرا و متكلما ذا مكانة عالية في جانب آخر و كانت كثرة تلاميذه واسعة جدا، منهم مولانا نور الحسن البوهانوي و الخواجة أمين الله ولي اللهي الكشميري، و الشيخ محمد عاشق الفلتي، و العلامة السيد مرتضى البلجرامي ثم الزبيدي مؤلف "تاج العروس في شرح القاموس"، و النواب رفيع الدين الفاروقي المراد آبادي صاحب مؤلفات جمة.

كان الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي رجلا عبقريا، و يتصل نسبه من أبيه بأمير المؤمنين عمر الفاروق – رضي الله عنه –، كما ينتهي نسبه من أمه إلى خليفة الرسول أبي بكر الصديق – رضي الله عنه –، و قد كان في أسرته و عائلته شخصيات مرموقة من أصحاب العلم و حملة القلم.

و قد نص كل من كتبوا ترجمة الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي أنه ولد في قرية "فلت" (١٧٠٣م) بمديرية مظفر نكر في عام ١١١٤هـ و كان للشيخ محمد الفلتي جده لأمه، صوفيا و عالما معروف المكانة، و كان تلميذ الشيخ عبد الرحيم و كانت بنته فخر النساء والدة الشيخ ولي الله الدهلوي، كما كان نجله الشيخ عبيد الله الفلتي عالما و خليفة البلهي، و كان يتمتع بمكانة مرموقة بين مشايخ عصره.

كان الشيخ عبد الرحيم الفاروقي والد الشيخ ولي الله الدهلوي أيضا قد حظي فضلا جما، فقد تلقى العلم على نخبة العلوم العقلية ميرزا زاهد الهروي

كما أخذ عن شقيقه أبي الرضا و الخواجه خورد. و استفاد من الحافظ السيد عبد الله الأكبر آبادي في السلسلة الأحمدية المجددية و الطريقة أبي القاسم الأكبر آبادي في السلسلة الأبي العلائية، والسيد عبد الله الجشتي الأكبر آبادي في السلسلة الجشتية. و الشيخ وجيه الدين والد الشيخ عبد الرحيم أيضاً كان عالماً محدثاً و شجاعاً ثابت الجنان. إن البيئة العلمية و الروحانية القوية للشيخ ولي الله الدهلوي و سوابقه قد أثرت تأثيراً حسناً في سيرته و سلوكه و ثم بذل والده الشيخ عبد الرحيم الفاروقي جهداً في تعليمه و تربيته، فلم يكن بلغ السنوات العشر من عمره حتى استظهر القرآن الكريم و فرغ من تحصيل العلوم العقلية و النقلية و هو ابن ستة عشر عاماً. و لما استأثرت رحمة الله بأبيه حل محله و هو في سنه السابعة عشرة من عمره، و تابع ثلاثة سنوات من التدريس التعليم و تلقيه، و قام بتوظيف المدرسة الرحيمية، كما طور طرق التعليم في دهلي. و بعد نحو اثنتي عشرة سنة منذ وفاة أبيه غادر في عام ١١٤٣هـ إلى الحجاز للحج و تحصيل علم الحديث، و مكث بها عامين، و قرأ على الشيخ أبي الطاهر المدني الكردي و غيره من المحدثين الكبار. و قد مرّ أساتذته بذكائه الموهوب سروراً بالغاً. و أثنوا عليه ثناءً عطراً.

و على رجوعه من الحرمين اشتغل بالتدريس، و لكنه الآن أخذ يعتني بالتأليف عناية أكثر. و من مؤلفاته "إزالة الخفاء" و "حجة الله البالغة" مما يصعب أن يوجد لهما من مثيل.

و إلى ذلك ألّف مئات من الكتب و الرسائل، و كان هو ذوي براعة في كل فن و خاصة في علم الحديث و التفسير و الفقه و التصوف كانت له مهارة أي مهارة. و قد ظهرت الاتجاهات التجديدية في كتبه التي حررها حول التصوف، كما كتب في غالبها "التوحيد الوجودي" و "التوحيد الشهودي" و جعل هذا الخلاف خلافاً لفظياً. و حاول في جميع مؤلفاته ما وسعته الطاقة أن يبعث الطرق الحسن بجميع مناهج التصوف، و إن كتبه من أمثال "الانتباه في سلاسل أولياء الله" و "القول الجميل" و "الهمعات" و "السطعات" و "التفهيمات الإلهية" و "خير كثير" و "البدور البازغة" و "فيوض الحرمين" و ما إلى ذلك خير شاهد على موهبته الفائقة. كما نقل القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية و سماه "فتح الرحمن" و هو من المستوى العالي بحيث يعتبر له مثيل بين الترجمات الفارسية، و لا يستطيع أن يدرك أسرار هذه الترجمة الفارسية و خصائصها إلا من درس سعة تفاسير القرآن الكريم و ترجماته.

و هي رسالة صغيرة في حجمها و جليلة في معانيها في أصول التفسير و سماها "الفوز الكبير"، و قد ترجمت أيضاً في اللغة العربية، و هي شاهد دلالة واضحة على تبحر الشيخ ولي الله الدهلوي في تفسير القرآن الكريم.

و عاصر الشيخ ولي الله الدهلوي عديداً من الملوك المغول، و معاصره بحضرته السياسية إلى الناحية الصدق، و قدّم إليهم خطة الإصلاح على الملك

و العباد. و إن رسائله التي تنم عن سياسة ذلك العصر تدل على أنه كان أوتي حظا موفورا من السياسة الدينية و الكياسة الدنيوية.

و تكاثر المسترشدون عنده و لكنه امتاز من بينهم الشيخ محمد عاشق الفولتي، و كان الشيخ أبو سعيد الحسني الرائي بريلوي جد السيد أحمد الشهيد ممن أيضا قد أخذ عنه و تدرب عليه، و كان خليفته و مجازا منه.

و حمل نجله الكريم الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوي عنه جميع علومه الظاهرة و الباطنية، و استظهرت بعد على يديه و على يد الشيخ محمد عاشق الفولتي علوم الشيخ ولي الله المحدث أكثر فأكثر.

كان الشيخ محمد عاشق الفولتي ابن خال الشيخ ولي الله الدهلوي، كما كان أخا زوجته و تلميذه و مريده و خليفته، و كان حضر معه دروس الحديث بالحجاز. و من أكبر مآثره أنه جمع مسودات كتب الشيخ ولي الله الدهلوي و قام بتبييضها و ترتيبها بجهد جهيد في حياته و بعد مماته أيضا. و كان له عدة مؤلفات، و رسالته "سبيل الرشاد" من أحسن كتبه في علوم التصوف.

و قد عني الشيخ محمد عاشق الفولتي بجمع رسائل الشيخ ولي الله الدهلوي أيضا، و كان يأمل أنه بعده يقوم بجمعها ابنه الشيخ عبد الرحمن و لكنه بعد وفاة ابنه قام على هذا العمل بنفسه، و أنجزه بجهد و تعب بالغين.

و قد التزمت ندوة المصنفين بدلهي بطبع الرسائل السياسية لهذه المجموعة مصحوبة بالترجمة الأردية لهذا العبد المتواضع، و قدم لها البروفيسور خليق أحمد النظامي و وضع عليها تعليقات. و سوف تقوم الأكاديمية الهندية للدراسات الإسلامية بدلهي الجديدة بطبع أكثر من مائتي رسالة الدينية و العلمية الأخرى مع ترجمة هذا العبد المتواضع و مقدمته و تعليقاته. إن هذه الرسائل أيضا تلقي ضوءا على حياة الشيخ ولي الله الدهلوي، و نتعرف فيها ببعض ما لا نعثر عليه في مؤلفاته سوى هذه الكتب و الرسائل.

و ساهم الشيخ محمد عاشق الفولتي في تعليم الشيخ عبد العزيز و إخوته و تنشئتهم مساهمة كبيرة، فلما توفي الشيخ ولي الله الدهلوي عام ١١٧٦هـ كان الشيخ عبد العزيز آنذاك ابن ستة عشر عاما، و مع أنه كان قد أخذ من أبيه شيئا كثيرا و لكن تنشئة الشيخ محمد عاشق الفولتي قد جلت مؤهلاته العلمية و الروحانية.

كان الشيخ عبد العزيز أكبر أولاد الشيخ ولي الله الدهلوي من زوجته الثانية، و كانت ولدت له زوجته الأولى ابنه محمد الذي استوطن (بودانه) (BUDHANA) من محافظة مظفر نكر و توفي بها و دفن في ركن من المسجد الجامع هناك.

و كان للشيخ عبد العزيز ثلاثة أشقاء آخرين، و هم: الشيخ رفيع الدين عبد الوهاب و الشيخ عبد القادر و الشيخ عبد الغني.

إن هؤلاء الإخوة كلهم كانوا أفذاذا في مواهبهم العلمية و تربيتهم و كمالاتهم

و على تلاميذهم و التزامهم بالطريق الحنيف. خلف الشيخ عبد العزيز أباه في
مجالس العلم و قام بأداء حق خلافته خير قيام. و قد ترك عددا لا بأس به من
تلاميذه و أتباعه، و الشخصيات البارزة منهم أشقاؤه الثلاثة، و ابنا أخيه
الشيخ محمد إسماعيل الشهيد و الشيخ مخصوص الله، و سبطاه الشيخ
محمد إسحاق الدهلوي المحدث (المهاجر) و مولانا يعقوب الدهلوي المحدث
(المهاجر)- و الشيخ غلام علي الدهلوي و مولانا المفتي إلهي بخش
الكاندهلوي و رشيد الله مولانا رشيد الدين الدهلوي و مولانا كرم الله
المحدث الدهلوي و مولانا سلامة الله كشفي البدايوني ثم الكانفوري و مولانا
حسين أحمد المليح آبادي و غيرهم – و من الذين تلقوا إجازة الحديث من
الشيخ عبد العزيز الشيخ فضل رحمن گنج مراد آبادي.

إن مؤلفات الشيخ عبد العزيز و رسائله قيمة تدل على موهبته العلمية
الفائقة، فإنه لا يوجد مثيل لكتابيه "التحفة الاثني عشرية" و "تفسير فتح العزيز"
و كتبه الأخرى أيضا مفعمة بالعلوم و المعارف. و من الأسف أن كثيرا من
مسوداته و كتاباته قد سقطت من يد الزمان.

و قد عمّر الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوي طويلا حتى عاش ثمانين
سنة، و كان ضعف بصره في أخريات أيامه، و تكاثرت عليه الأمراض الأخرى حتى
عاقته عن التدريس، فخلفه أخواه الشيخ رفيع الدين و الشيخ عبد القادر في
مسند التدريس. و لم يدعا أن يسقط أي شيء من النشاطات التعليمية
و التدريسية و التصنيفية التي كان بدأها الشيخ ولي الله الدهلوي.

و كان الشيخ عبد الغني أصغر أبنائه الذي لم يشتهر بمنصبه، و لكن طار
ذكره بسبب نجله الكريم الشيخ محمد إسماعيل الشهيد الدهلوي. و ترجم
الشيخ رفيع الدين و الشيخ عبد القادر أيضا معاني القرآن الكريم إلى اللغة
الأردية، و تلا هذه الترجمات مقالات و مؤلفات ما لا تخفى على العلماء. و قد
أكثرا من استخدام الكلمات الهندية في هذه الترجمات.

و الجدير بالذكر أن أكبر العمر من رأى نور الدنيا بين هؤلاء الإخوة
الأربعة، كان أول من انتقل إلى الدار الآخرة، و كذلك توفي الشيخ عبد القادر
أولا ثم الشيخ رفيع الدين – رحمهم الله رحمة واسعة –.

و بعد وفاة الشيخ عبد العزيز المحدث الدهلوي خلفه سبطه الشيخ
محمد إسحاق المحدث الدهلوي و قام بمهمته خير قيام، و لكنه هاجر قبل ثورة
١٨٥٧م الموافق لـ ١٢٧٣هـ بمدينة مكة و مات في ١٢٦٢هـ

إن قائمة تلاميذه الشيوخ أيضا طويلة جدا، و يشتمل على أسمائهم المفتي
عبد القيوم بن مولانا عبد الحي البرهانوي و الشيخ عبد الغني المجددي
الدهلوي و المفتي عبد الرحمن المحدث الباني بتي، و الأمير قطب الدين خان
الدهلوي مؤلف "مظاهر حق"، و مولانا أحمد علي المحدث السهارنفوري
و مولانا الشيخ محمد المحدث التهانوي و مولانا عالم علي النكينوي ثم

المرادآبادي و مولانا نذير حسين المحدث الدهلوي و الشيخ [illegible] بمولانا عبد الغني [illegible] الدهلوي و قد كان [illegible] بذلك مولانا محمد قاسم النانوتوي و مولانا رشيد أحمد الكنكوهي مدرس الحديث في زاوية الشيخ غلام علي.

و قد تابع تدريس الحديث الشريف إلى زمن طويل مولانا أحمد علي السهارنفوري في سهارنفور، و مولانا رشيد أحمد الكنكوهي في كنكوه، و مولانا محمد يعقوب النانوتوي في ديوبند، و مولانا محمد قاسم في ديوبند، و مولانا عالم علي في مراد آباد، و مولانا حسين شاه المحدث ثم مولانا محمد شاه المحدث في رامفور. ثم [illegible] مولانا سيد أحمد حسن المحدث الأمروهي و شيخ الهند مولانا محمود حسن المحدث الديوبندي و تلميذا مولانا خليل أحمد و مولانا محمد يعقوب [illegible] عن طريق الشيخ ولي الله الدهلوي و قد عمت بجهودهم و بركاته في جميع [illegible] و [illegible] حتى [illegible] البلاد. و في الزمن الأخير كان من المنتسبين إلى أسرة الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي العلمية مولانا أشرف علي التهانوي، و مولانا العلامة عبد الرحمن [illegible] المحدث الأمروهي، و إمام المحدثين مولانا محمد أنور شاه المحدث الكشميري، و شيخ الإسلام مولانا سيد حسين أحمد المدني، و مولانا عبيد الله السندي و المفتي محمد كفاية الله الشاهجهانفوري ثم الدهلوي و مولانا شبير أحمد العثماني، و مولانا سيد فخر الدين أحمد المحدث الذين نفعوا المسلمين دينيا و علميا بمؤلفاتهم و خدماتهم التدريسية. و ليس عدد مسترشديهم الروحانيين بأقل من الذين تلمذوا لهم في حقل التعليم. و إلى جانب دار العلوم في ديوبند، و مظاهر العلوم في سهارنفور، و دار العلوم ندوة العلماء في لكناؤ، و المدرسة الإسلامية العربية في أمروهة، و مدرسة شاهي في مرادآباد، إن جميع معاهد تدريس الحديث و المدارس الشهيرة في [illegible] و [illegible] (AFRICA) - و [illegible] و [illegible] (NAGERIA) [illegible] و [illegible] (CHINA) و [illegible] و [illegible] و [illegible] و [illegible] بنغلاديش و [illegible] (ROMA) و [illegible] و [illegible] باكستان، كلها تندرج في سلسلة الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي و قد قال شيخ الحديث مولانا محمد زكريا رحمه الله - : إنه لا يوجد أي معهد ديني و مؤسسة تعليمية و مدرسة لأهل السنة و الجماعة حيث يدرس القرآن الكريم و الحديث الشريف في شبه القارة الهندية لا تنتمي إلى الشيخ ولي الله المحدث الدهلوي

تعريب : ولي أختر الندوي

الشريف الرضي
الشاعر الأبي و الأديب العبقري

بقلم: مروان العطية
ديرالزور - سوريا

المقدمة

ولد الشريف الرضي في القرن الرابع الهجري و قد لقي هذا القرن من الباحثين في العصر الحديث عناية فائقة، و اهتماماً كبيراً، و حرصاً على كشف جوانبه المختلفة من سياسية و اقتصادية و اجتماعية و ثقافية، لأسباب منها شعورهم أنه كان العهد الذي بلغت فيه الحضارة الإسلامية ذروتها، و تمثلت فيه على صورتها، و الباحثون ذهبوا بأنه أغنى الفترات المضيئة في حياة الأمة لأنها بصورتها و انتمائها تطلعهم إليها ثلاثة مع قربها من التعرف على أسرارها تتوق عقولهم إلى ما هو أقل انتماءً منها في سائر العصور.

و كانت حياة الرضي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري و السنوات الست الأولى من بداية القرن الخامس، في بغداد و عاصر في تلك الفترة من خلفاء بني العباس المطيع لله و الطائع لله و القادر بالله، و لم توطد مدته علاقة بالمطيع لله، و إنما كانت له أعظم العلائق بوالده الطائع لله، ثم لم يتح علاقته بالقادر بالله الصفاء، بل قام بينهما نوع من العداء.

و كان البويهيون المتسلطون على الخلافة خلال حياته المتيسرة هم معز الدولة و عز الدولة و عضد الدولة و صمصام الدولة و شرف الدولة، و لم تكن بين الرضي تربطه علاقة بالأربعة الأول، كما كانت علاقته بشرف الدولة بسيطة. لا تتعدى عاطفته عليه [illegible] و لما عن سعته إليها بهاء الدولة، فقد كان أمله، فلما ظلمه لم يجد في نفسه ما يدفعه إلى علاقة مماثلة بخلفه سلطان الدولة.

و كانت الخلافة الفاطمية في غرب الدولة الإسلامية قد استقرت في مصر و شمال أفريقيا، و بسطت سلطانها على مناطق من الشام و الحجاز

و اليمن، و قد عاصر الرضي من خلفائها العزيز بالله و الحاكم بأمر الله، كما كان الحمدانيون في شمال الدولة الإسلامية بالموصل و حلب يدفعون عنها عادية الروم و قد ضعف أمرهم فاستولى العقيليون خلال هذه الفترة على إمارة الموصل منهم و استولى الفاطميون على حلب في السنوات الأولى من القرن الخامس الهجري.

و على أطراف الشام و العراق، و في نجد و سواحل الخليج، كانت تنتشر قبائل الأعراب من خفاجة و أسد و غيرهما، تسد الطرق على قوافل الحجاج، أو يتعصبون لقوم على قوم، مما جعل لها ثقلاً في الميزان السياسي لهذه الفترة.

و قد أدى الصراع السياسي الذي عاشه العراق خلال هذه الفترة إلى اضطراب عظيم في شؤون الحياة، من فتن تحدث بين أهل السنّة و الشيعة، و بين الأتراك و الديلم و من شغب يثيره العيارون و الشطار، و اللصوص، و وقعت المجاعات حتى اضطر الناس إلى أكل الجيف و الميتة و كانت ثروات بعض الناس مثل محمد بن عمر بن يحيى العلوي عظيمة جداً، لدرجة أن بهاء الدولة صادر ممتلكاته - فوصل إلى علويين يحسدون عليها - كان المجلس الأعلى لا يجد قوت يومه، و قد أدى هذا التفاوت إلى مصادرات من جانب ملوك بني بويه، و ثورات من عامة الناس.

و لكن هذا العصر باضطراباته كان أحفل العصور بالرقي العلمي و الأدبي، و يكفي أنه أنجب هؤلاء الأعلام: المتنبي، و أبا فراس الحمداني، و الرضي، و المعري، و ابن العميد، و الصاحب ابن عباد و أبا حيان التوحيدي، و الصابي، و بديع الزمان، و أبا علي الفارسي، و السيرافي، و ابن جني، و الآمدي و القاضي الجرجاني، و ابن فارس، و أبا هلال العسكري و الثعالبي، و ابن سينا، و الباقلاني، و القاضي عبد الجبار، و أبا حامد الإسفراييني، و أبا بكر الخوارزمي، و الشريف المرتضى، و الشيخ المفيد ابن النعمان.

و منذ مقتل المتوكل سنة اثنتين و ثلاثين و مائتين للهجرة أخذت الدولة العباسية تزداد وهناً على وهن، فتمثلت في خلافتها و أوصالها عوامل الانحلال و التفكك، و تهدم البناء الباسط الظل، و لم يكد القرن الثالث ينصرم حتى انتثرت تلك الدول العربية، فإذا هي وحدات سياسية متباعدة لا تجمعها إلا أوهى الروابط، و لا تصل بينها إلا أوهن الصلات، و ما انتقض هذا البناء العظيم إلا لأن الخلفاء العباسيين قربوا العملاء الأجانب، و اعتمدوا عليهم، فكان منهم الوزراء و القادة و العمال، و مكّنوا على العرب أبناء أرومتهم و أصحاب البلاد الأصلاء، أن يحسوا بالدهم و يدركوا حقوقهم و يدافعوا عن مصالحهم.

تلك مصير كل دولة تعتمد على عناصر أجنبية من شعبها في سياستها العسكرية والإدارية والحربية، ومن هذه الدويلات التي صارت إليها الدولة العباسية وأصبحت عليها، دولة بني بويه الفارسية التي قامت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة، على يديه نشأة الشاعر العربي الجليل الشريف الرضي.

و قد تعصب بنو بويه للفرس تعصباً شديداً، فأحيوا عاداتهم و تقاليدهم و أعيادهم و احتفلوا بأعيادهم احتفالات ضخمة، و لقبوا أنفسهم بأرفع الألقاب، ليس هذا فحسب، بل لقبوا بالملوك إلا زاعموا منهم، و استطال الخلفاء العباسيون دمى في أيديهم تحركها كيف يشاؤون، ليس للملوك بني بويه إلا الأمر و ليس على الخلفاء إلا الطاعة و التنفيذ و الخضوع.

في هذه الفترة من حياة الأمة العربية في العراق طغت الروح الفارسية طغياناً شديداً على كل شيء، و كان لها أثر كبير في الأدب العربي. فقد شعر الشعراء بالفخر و الاعتزاز بالعنصر العربي، و التغني بالعروبة و الوقوف على أطلالها، و الإشادة بتقاليد العرب من فروسية و شجاعة و نجدة و كرم و مروءة إلى جانب الترف و الميوعة و الانحلال و المدح المفرط في الغلو، و تغنت الأقلام الفارسية من صورها تطل في وجه الشعب العربي و الكرامة المهدورة و الخلافة المغلوبة، محتفية بالفرس مفتخرة بآثارهم و مآثرهم، متطاولة على العرب تنعى أمجادهم و تصيب منهم كل يوم مقتلاً.

حتى إن ديوان الشاعر مهيار الديلمي يوشك أن يكون جميعه - على طوله - فخراً و اعتزازاً بقوميته الفارسية، و هو الذي يقول:

قومي استولوا على الدهر فتى	و مشوا فوق رؤوس الحقب
عمموا بالشمس هاماتهم	و بنوا أبياتهم بالشهب
و أبي كسرى على إيوانه	أين في الناس أب مثل أبي؟

إن غلبة العنصر الفارسي في العراق و شيوع الروح الفارسية في الأدب العربي، كان لها رد فعل عنيف في نفوس الأدباء العرب الأقحاح فجاء شعرهم معبراً عن الروح العربي بكل ما فيه من شجاعة و فروسية و مروءة و ترفع عن الصغائر، و رفض للواقع المهين الذي يحيا فيه الشعب العربي في العراق، من أبرز هؤلاء الأدباء الشاعر العظيم الشريف الرضي. فقد حملته سطوة الروح الفارسية و بسط ظلها على البيئة العربية في عصره، على التعلق بقوميته تعلقاً عجيباً. يدفعنا عليه حنينه الأصيل إلى الوطن العربي الأول في الجزيرة، و الوقوف على أطلاله و التغني بمواطنه منبع العز و الشهامة، و الاعتزاز بالعروبة و تقاليدها و السخط الشديد على هؤلاء الدخلاء من الفرس الذين سيطروا على خلفاء بني العباس، و غيرهم بالغرباء في بغداد التي كانت تعج بالدخلاء. حتى يمكن أن نعد أدب هذا الشاعر تصويراً لما كان يختلج في نفوس العرب الغيورين على أمرهم في ميادين الحياة السياسية و الاجتماعية و العسكرية من سخط على الدخلاء و ملوكهم و احتقار لأمرائهم، و تطلع إلى مستقبل عزيز، و أحلام بالنصر، و آمال عريضة بالعودة إلى الأمجاد السابقة.

حياته و شعره

هو أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى الكاظم من نسل الحسين بن علي بن أبي طالب. و قد كان أبوه نقيباً للطالبيين (رئيساً و وصياً لآل البيت الشريف)

ولد الشريف الرضي في بغداد (٣٥٩ هـ = ٩٧٠م) و نشأ فيها و برع في علوم اللغة و الفقه و الأدب، و قال الشعر و عمره خمس عشرة سنة. و في (٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م) اعتزل أبوه نقابة الطالبيين فخلفه هو فيها نيابة عنه. و في ذي القعدة (٤٠١ هـ = ١٠١١م) منحه الأمير البويهي بهاء الدولة لقب الشريف. ثم إنه عين نقيباً أصيلاً يوم الجمعة في (١٦ المحرم ٤٠٣ هـ = آب ١٠١٢م) بعد ما ضمت إليه الأعمال التي كان يقوم بها أبوه و هي النظر في المظالم و الحج بالناس.

و كان الشريف الرضي عالي الهمة طموحاً إلى المعالي لم يقبل صلة من أحد و لا جائزة. و قد رد جميع الصلات التي كانت جارية على أبيه من قبله، فطالبه الخليفة القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢هـ) فاتهمه بالميل إلى الفاطميين فصرفه عن المظالم و الحج.

و توفي الشريف الرضي في السادس من المحرم ٤٠٦ هـ (٢٦/٦/١٠١٥م) و دفن في بيته في محلة الأنباريين إحدى ضواحي الكرخ (الكاظمية اليوم).

ألقابه و مناصبه

لقبه بهاء الدولة سنة ٣٨٨ هـ بالشريف الأجل، و في سنة ٣٩٢ هـ بذي المنقبتين، و في سنة ٣٩٨ هـ بالرضي ذي الحسبين، و في سنة ٤٠١ هـ أمر أن تكون مخاطباته و مكاتباته بعنوان « الشريف الأجل » و هو أول من خوطب بذلك من الحضرة الملوكية.

إن المناصب و الولايات كانت متكثرة على عهد الشريف من الوزارة التنفيذية و التفويضية، و الإمارة بقسميها العامة و الخاصة، و العامة بضربيها: المستكفاة بعقد عن اختيار، و المستولى عليها بعقد عن اضطرار. و الإمارة على جهاد المشركين بقسميها: المقصورة على سياسة الجيش و تدبير الحرب و المفوض معها إلى الأمير جميع أحكامها لقسم الغنائم و عقد الصلح. و الإمارة على قتال أهل الردة، و قتال أهل البغي، و قتال المحاربين. و ولاية القضاء، و ولاية المظالم و ولاية النقابة بقسميها: العامة و الخاصة و ولاية إمامة الصلوات، و إمارة الحج، و ولاية الدواوين بأقسامها، و ولاية الحسبة، و غيرها من الولايات. فمنها ما كان يختص بالكتاب و الأدباء، و آخر بالفقهاء و رجال العدل و الشرطة، و ثالث بالأمراء و القواد و الجيوش، و رابع بسلطة الحسم و أصحاب الوجاهة و الرئاسة، و خامس بذوي الآراء و الحنكة الفكرية و العملية.

و سخي بأملاكهم الطالبيين و أعيان العترة النبوية، و جابر بالعلماء و أئمة العلم و الدين. و هذا ما يضم بجوانب تلك الشخصية، و مجموع ما تركه الكاتب كالشريف ذلك المثل الأعلى في الشخصية كلها تعطي الباحث عن مواهبه و مقاماته و نفسياته الكريمة أن يطرأ و لو بصورة مصغرة لدروس الشخصية التي كان يتولاها الشريف فيجد صورة مكبرة تجاه مواهبه متقدة من العلم و الفقه و الحكمة و الثقة و السؤدد و الأنفة و القوة و الهيبة و العظمة و الجلال و الورع و الوفاء و عزة النفس و الرأي و العزم و الحزم و الحماسة و العفة و السؤدد و الكرم و الإباء و الغنى عن أي أحد قد عليه بالأدب و الشعر و لا يراها إلا مثال الشريف الرضي.

تولى الشريف نقابة الطالبيين، و إمارة الحاج و النظر في المظالم سنة ٣٨٠ هـ و هو ابن ٢١ عاماً على عهد الطائع، و صدرت الأوامر بذلك من بهاء الدولة و هو بالبصرة سنة ٣٩٧ هـ ثم عهد إليه في ١٦ محرم سنة ٤٠٣ هـ بولاية أمور الطالبيين في جميع البلاد فدعي « نقيب النقباء » و يقال إن تلك المرتبة لم يبلغها أحد من أهل البيت إلا الإمام علي بن موسى الرضا سلام الله عليه التي كانت له ولاية عهد المأمون، و لتنصب الشريف الخلافة على الحرمين على عهد القادر كما في المجلد الأول من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد و كان هو و الولايات كما قيل:

لم تُقلّده الولايات مجيداً	لا و لا قيل: رفعت مقداره
بل كساها و قد تعرّضها الجـ	ـو جلالاً و بهجة و نضارة

شعـــره:

و أغراض الرضي الشعرية مختلفة، و قد تعاطى الشعر و هو حدث في شعره حتى أربى على ثلث ديوانه، ثم يليه الرثاء و الفخر و الشكوى و النسيب ثم بقية الأغراض.

و أول هذه الأغراض المدح و التهنئة، و مدائحه لأسرته يجمع فيها بين شرف النسب و علو الهمة، و كرائم الأخلاق من مثل قوله في أبيه:

و ثمّ مثيل للسحاب إن حسمت	مناقب الفخر و الفضل القصد
أبلغ إن صاحبه الطاحي بسه	[illegible]

و قوله فيه:

تتزاحم الأحساب في أبوابه	طرقاً تحن إلى العلى و تتولى
و إذا رأتهم لم يهل محتشماً	فتى الزمان لظل و منه يطول

و في مدائحه للخلفاء العباسيين، يمدح فيهم مناقب المجد و علو النسب و إحكام الخلافة، من مثل قوله في الطائع لله:

ملك إذا [illegible] السماء به	كثر العثار و ضيق الزلل
و إذا [illegible]	ضربت بظاهر كفه القسطل
جلت الأئمة حين [illegible]	و استوعبته نورها الرسل

و في مدائحه للبويهيين، يمدحهم بالقوة و استكمال الملك قهراً، و الجاه و الكرم، يقول في بهاء الدولة:

إذا [illegible]	[illegible]
و أين [illegible] بهاء	طلوع البرق من خلل الظلماء
[illegible]	[illegible] بالسماء
[illegible]	[illegible]

و في مدائحه للوزراء و الكتاب و أصحاب الجاه و المتقلبين على المجد و الأصدقاء و العلماء، يبين خصائص ممدوحه لكل طائفة، و له قدرة على تمييز ما يمدح به كل فريق.

و خصائصه في الرثاء و التعزية، تظهر تفجعه على من فقدهم من أسرته، أو من الخلفاء و الملوك و الوزراء و الكتاب و الأصدقاء و العلماء. انظر إلى لوعته في رثاء أمه:

[illegible] تمسكي و تجلدي	[illegible] و إباتي
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]

و تفرده في هذا اللون من الفن و امتزاجه بعاطفة الوجد، و بالآلام اللاذع، كل ذلك استحق به أن يسمى النائحة الثكلى.

و كان الشاعر الوجداني الذي يحكي فيه الرضي و يكشف عن [illegible]، و يبوح عن مشاعره الداخلية، و يظهر [illegible] حيث يرى نفسه [illegible] الفرسان، و لم [illegible] شعره في هذا الاتجاه عن [illegible] الفرسان [illegible] و عن [illegible] الذي لا يعطي [illegible] إلا [illegible] الرجل و [illegible] التي [illegible] بقوله:

[illegible] مثل [illegible] الرماح	إلى الوغى قبل [illegible] الصباح

شريعي ذلك. كما كانت الشكوى متنفسا له، يبث فيها متاعبه في دنيا الأقارب و الأصدقاء و معاناتها المريرة و انقلاب أحبته. و شعره في الفخر و الشكوى الذي خالص، ينبع من نفس أبية و ثابتة حساسة. كما أن شعره الوجداني في النسيب و طيف الحبيب ليرينه في الرقة و الإفصاح عن الأشواق العاطفية. و الحنين التي حملتها الوجد و غشيتها الشوق. و أصبحت حجازياته بما تحمل من معالم فنية طريقا ممهداً للشعراء بعده و عم الناس بها بعذوبة وقعها و رقة حواشيها و قد عارض الشعراء كثيراً قصيدته الكافية.

يا ظبية البان ترعى في خمائله ... ليهنك اليوم أن القلب مرعاك

و قصيدته الميمية:

يا ليلة السفح ألا عدت ثانية ... سقى زمانك هطال من الديم

كما أن مكانة الشباب و ظهوره من الشيب الذي لم يأتيا حين الأسوان الطريف و تنفس عن ما تحمله نفسه الأكروية من هم - عن طريقه - في شعره.

و كانت صداقات الرضي ميدانا رحبا لشعره- أبان فيه عن معرفة بطبائع الرجال و حرص على الصورة المثلى للمجتمع و هو يمثل رائحة له في صور شعراء المتنبة كما يمثل نوعاً من المكاشفة في معاتبة موع الأصدقاء يقول فيها القصيدة:

و كم صاحب كالرمح زاغت كعوبه ... أبى بعد طول الغمز أن يتقوما

و يسمو الهجاء عند الرضي عام الذي لكنه غير فاحش و هو يصيح على مجموعة المثالب التي يجدها عن طريق العلا و لا يصف بما يصف المهاجرون به الناس من مثل الأعراض و تعريض بعاليهم الجسمية، مما يؤذي النفس و يجرح الحس و تنقل على أهاجيه شيئا ما غريب، و لا يخرج كثيره عن رواية أن التمثل بها و انه لنفس في قصيدته:

أيبيت يسمع الأبيه المنسل ... و تكلمني و ردائه حتى السيل

ثورة الغضب و لغة الهجاء و ألم المثالب :

و الشريف الرضي شاعر وصاف، و لكن وصفه لا يأتي غالبا إلا استطرادا و هو حين يصف يخلط الوصف بنفسه و يمزجه بخطرات قلبه و لذلك لا نرى في وصفه عناية بإبراز المحسنات و قد وصف الطبيعة و ما يحيط فيها كما وصف الحرب و الصراع السياسي.

و قد اقتضت ظروفه التي عاشها أن يشارك في الحياة السياسية و أن يكون من أعلامها و سادتها و أن يكون بشاعره و شعره في هذا الجانب يحاكي ملامح عصره و يتلاءم مع النصوص التي يحتاجها في الكشف عنه و يعبر عن

القيم السياسية التي كان الناس يتعاملون على أساسها في تلك الفترة من شراء المنصب إلى المكائد و الدسائس التي تفتك بالناس إلى الغدر بمن كان محل الثقة إليه.

و الرضي رقيق في مذهبه، يدعو إلى الحياء و ترك التبذل . و لكنه مترف في تمذهبه لا يطلق و يبذر و لا يدعي ملامح تقشف أو سلك بعيد بالقطيعة و الرحلة - و الغريب و الفراغ كما يجد بتأملات شعره و له نظرات خاصة في الحياة كونتها لديه تجاربه و هو لا يبخل بتقديم نصائحه المناسبة في كافة الميادين، حتى تستقيم الحياة على وجهها . و له في هذا الجانب أبيات تسير مسير الأمثال و لكن أمثاله لم تشتهر شهرة غيره من الشعراء كالمتنبي مثلاً و يتحلى بهذه النصائح و معلومات الرضي، يتزهد فيها و ينذر الناس بالآخرة و يحذر من الركون إلى الدنيا بعد ما تحدث حسن خير و يتكل الله على بعضه و هو في هذا كله لا يصدر عن فلسفة خاصة لها منهجها و إنما هي نتاج تجربة الدرب إلى الحكمة و الموعظة.

و الرضي حسن الاتكال على ما يختار منه و قد زانت عنه مقطوعات و قصائد رقيقة في هذا الجانب و له قصائد في استعطاف بعض الولاة يخشى الصورة التي يرسمها سطوة شعره في لينه و شدته . و لعل ظرفه سياسياً هو الذي دفعه إلى هذا الموقف . كما أن له بعض الشعر في الاستعطاف و الحكمة و الزهد و له قصائد و مقطوعات و أبيات صورة لا نستطيع أن نلخصها للرضي بعينه.

و الرضي للشعر الجاهليين حسب ما وصل إلينا من شعرهم و غيرهم فيبقى لنا نظرتنا إلى الكثرة في فنون الشعر المختلفة و نهايته لها أما في الجانب الذي اختص به عمر بن أبي ربيعة و شعر وصف النساء و أحوالهن و أحواله فعين فلا تصح المقارنة بينهما

نثر الشريف الرضي :

القدر الذي بين أيدينا الآن من رسائل الرضي المطولة و القصيرة لا يمكننا من الحكم على نثره و تطوره و مكانته في عصره حكماً منصفاً و لكنه يتيح لنا رؤية لبعض ملامح نثر الرضي إلى أن يجود علينا الزمان بالمزيد منه.

و الرسائل الطوال التي بين أيدينا تتناول أغراضاً متعددة من تهنئة و معاتبة و تعزية و عهود و تقليد و شعر.

و رسائل التهنئة كتبها الرضي إلى ثلاثة من الوزراء الذين عاصرهم و كانت الأولى إلى سليمان بن أحمد الأبرقوهي يهنئه بالشهادة من حادث ، و ربما كان سياسياً و قد ذكر الرضي في أوليه ما بينهما من علائق الإخاء و التراضي

الخطباء ، و ثنائه عليه من ثقة المعتمد و توالي سؤاله عنه في غيبته و الدعاء له حتى عاد إلى وطنه محفوفـاً بالسلامـة ثم يصف سروره الخالص بعودته و سلامته.

أما الرسالة الثانية فكانت إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف الحكار يهنئه بما صار إليه من العودة إلى العلية و شهادته بما ألم به ، و لعله يعني العزل عن الوزارة ثم العودة إليها و قد بدأ رسالته ببيان سروره بالقبول و التهاني و ضعفه بموانع الأقدار تعجزه عن الوصول إليه لرهنه و علته و كان أمله أن يبادر إليه ليلوذ بالواجب نحو تهنئته بنجاته مما أصابه، و يذكره بما يفعله الزمان بمقام الرجال في تقلب أحوالهم في الخير و الشر و أن العواقب دائما لمن يصبر ، و يبشره بالأجر على ما أصابه و زوال المحنة و اضطرابها و يحمد الله على أن جعل محنته محنة أدب لا محنة غضب و نكبة استصلاح لا نكبة اجتياح و يصفه بالعفو و الأدب.

و الثالثة كانت إلى الوزير سابور بن أردشير يهنئه بعودة الوزارة إليه في المرة الرابعة و يذكر في قولها أن هذه نعمة شملت الناس عموماً و خاصته خصوصاً و أن خلو الوزارة منه كان نقمة على الخاصة و العامة و يدعو الله أن يديم عليه هذه المنة و لا ينقله عنها إلا إلى ما هو أجل منها و يصف كتابته و ما وصل إليه من تدبير الوزارة لأربع مرات، مما لم يحصل عليه أحد في ذلك الزمان ثم يذكر ما جمع الله فيه من الخلال الحميدة و يدعو الله أن يتم له ما خوله و يعينه على ما قلده.

و نلاحظ أن هناك معاني تتردد في رسائل التهنئة هذه مثل بيان ما بين الرضي و بين هؤلاء الوزراء من علائق و ما يشعر به نحوهم من الولاء أو الإخاء و إنها تهنئة بنعمة جاءت بعد نقمة، أو بتوليه بعد عزل، كما يلاحظ كثرة الدعاء فيها بدوام النعمة و استمرارها.

أما رسالته إلى الصابي في الرد على تهنئته له بعيد الفطر في سنة ٣٨٢ هـ فقد ذكر الرضي فيها أنه سعد بهذه التهنئة من بين التهاني كلها لما يعلمه من أنها تهنئة صادرة من قلب غير متقلب و يدعو الله له بطول البقاء و يواسيه من علته بأنه أرضى لقلبه على تطاول الزمن مدة و يقبل عذره في تخلفه عن حضوره لتهنئته ، و يطلب منه الصبر لأن الزمن لا يطالب بالمناصفة و يصف مكانه المكين من قلبه و يشكره على ما أرسله إليه من العطر و يذكر رده عليه.

و قد وجه الرضي رسالته في العتاب إلى أحد أصدقائه و يذكر شوقه إليه و يعتب تأخر مكاتباته و يذكره بما بينهما من عهود و بما مضى لهما في ربيع الأيام و شباب الدنيا و يبين عذره في شدة لومه لتبدل حاله فقد كان مختصاً به و كان أقاربه يحاسبون غيره عن طريق الرضي ثم انقلب ذلك إلى ضده. و يذكره بالمودة قبل أن يحول بينهما الزمان . كما فعل في سالف صحبته

الصميم أبا إسحاق الصابي ثم يصف صداقته له و تواضعه في عراقة و مكانته الأدبية و السياسية و مكان بينهما ، و ما رثاه به ، و يدعو الله أن يحفظ مودة صديقه و أن يثني عطفه نحوه.

و الرسالة الثانية رائعة نظمها تجمع رقة و جمالا

و رسالة الرضي إلى الصابي في تعزيته عن ولده سنان في ربيع الآخر سنة ٣٨٠ هـ رسالة فريدة وضع فيها الرضي خلاصة حب لصديقه، و محبته و شفقته عليه و ذكر فيها أنه علم عن تعزيته و قد أضيف إلى حزنه على الشباب فكلله على ما جاد إليه صديقه من الحزن و الهرم ثم يذكره بما لا ينفصل عن الصبر و ما يعرفه حسن تقلب الأيام و الاعتبار بمن مضى من القرابة و الخلان و أن المرء سائر إلى مصيره مهما كان هذا الحزن . وفي الأخير يطلب من الكاتب و يسأل الله أن يزيد سروره بمن بقي من أولاده و أن يبارك فيهم و قد عدل الرضي في هذه الرسالة إلى السجع في أكثر من موضع . رغبة في أن يصل بصديقه المكلوم إلى الاقتناع بسلو عنه و يصرف عنه الحزن.

و قد كتب الرضي إلى الصابي رسالتين أخريين في سنتي ٣٨٠ هـ ، ٣٨١ هـ يبين له فيهما ما يريد توكيده في العهدين المذكورين من دار الخلافة و كان الأول بمناسبة تقليده نقابة الطالبيين و النظر في أمور المساجد بمدينة السلام و النيابة عن والده في المظالم و الحج و كان الثاني في تقليده بعمل جديد لم يتم أمره.

و لم يكتب الرضي إلى الصابي لغرور بمعرفة قلبه و إنما أراد أن يوضح له أمرين :

الأول : المحافظة على مكانة أبيه و مطالبتها فقد كانت القضية جديدة للعباسيين ، ذلك أن الطائع لله ولى أباه نقابة الطالبية و الحج و المظالم في أوائل سنة ٣٨٠ هـ ثم ولى ولده في رمضان من السنة نفسها و الأمر يقتضي في كتابة المرسوم كتابة تليق أن ينسبه الرضي صديقه الصابي المكلوم إليها زيادة في الحيطة و شرف لتنقضي.

و الثاني : رغبة الرضي في استماع مظاهر التكريم عليه في هذين المرسومين و قد أشار على الصابي بالإطالة في موطن خاصة يرى فيها إظهار الكرامة و الرفعة.

و الرسائل التي بين أيدينا تشيع فيها المعاصرة المتوازنة بين السجع و الازدواج و إنما يكتب لأصدقائه الغلبة على الآخر و يدرك القارئ أنها أن الرضي لم يكن يعمد إلى السجع و إنما كانت المعاني تسوقه فيضعه في القالب الذي يناسبها فيستعملها يكتبها الرضي إلى السجع في قوله و يخفف هذه المعاني ترسلا دونه و تصرح أننا من أحاديثها و تطلعنا تطلق سماحتها و تعزينا بذكره يذهب يعود إلى المراوحة بين السجع و الازدواج فيقول : و بها

تستعرضه بوجهة و تستحضره معه و تستعطيه أوانا و تستوهبه أونة حتى تحطه ملهفة عطف الفروس و تطرحه صرع النفوس و تريق ما طلبت من النجيع بضروب ما جلبت من الهموم .

و قد يعمد الرستمي إلى تضمين رسائله بعض شعره كما فعل في ختام رسالته لسابور فقد ضمنه الأبيات ٢٩، ٣١، ٣٢ من القصيدة (٤٣) أو تضمينه شعر غيره كما فعل في رسالته إلى أبي بكار حيث ضمن قول القائل

و القلب في عدم الصلاب نصيب

وضمن قول الآخر.

كالجسم يهوى عند البالي بعد حبس الأرواح في الأجساد

و تكثر الجمل الدعائية في رسائل الرستمي مثل رعاك بطول البقاء، و العز و التمكين إلخ. و قد يتداخل الدعاء في الكلام بما يفصل بين أجزائه مثل قوله لسابور «فإن رأى سيدنا الوزير - أدام الله علوه - أن يأمر - أعلى الله أمره - بإجابتي . .

كما يفصل أحيانا بين جزئي الجملة لمجرد الفصل مما يتعلق بالنفس و لم تشابه كما في قوله «و بعد الحيثية من مناسبة الخلائق و مشاكلة الطباع ثم من المودة التي تألفت بين شخصينا و سرت بين أرواحنا ملتفة و ما كنا نتهاداه من الطالب الفضائل و نتجاذبه من أعلاق المناقب، ما يجرئني على أن أفرط جزعي عليه .»

و كلمة ختام في آخر رسالته لسابور الذي تقدم ذكره

و الفصول القصار التي ساقها الثعالبي في آخر ترجمة الرستمي و ساقها ابن معصوم في «الدرجات الرفيعة» و نشرتها «مجلة العرفان» قبل طبع «الدرجات الرفيعة» لا تخرج في جملتها عن رسائله المطولة فهي في الغالب فقرات من رسائله الطوال أو أنها رسائل مستقلة، ذلك لأن كل رسالة منها لا تستقل بغرض و إنما هي لمع من كتابات الرستمي كما نص على ذلك ابن معصوم و قد فتشتها فلم أجد فيها شيئا منه يحمل سمات من المعاني في الرسائل الطوال كما أنها تتضمن الخصائص الفنية التي سبقت الإشارة إليها.

شاعريتــه :

نظم الرستمي الشعر في عهد الطفولة و لما يبلغ عمره عشر سنين طليعة و نظم في جميع فنون الشعر فأكثر، و جاء محلقاً محرزاً قصب السبق، يطير سيارها، و لم يكن في ناحية من نواحي الشعر أشعر منه في غيرها معا على علو منزلته، و إنه كان ينظم قصائده بنغمة تفصيلية قلما تؤثر بها

العوامل الخارجية و امتاز الرضي بأن شعره على كثرته لا يبعد كله عن الجودة و الملاحة و هذا إنما يتفق لشاعر مكثر، بل لم يتفق لغيره، فلهذا ترى تشبيبه و غزليه مهيّجاً للتشبيب قد أكثر من نظم الشعر و لكن قصائده لم تكن متناسقة متناسبة في الجودة بخلاف قصائد الرضي. و إذا نظرنا إلى شعر المتنبي المتقدم عليه في العصر نجده مع ما للمتنبي من المكانة السامية في الشعر يشتمل على سقطات لا تليق من ثاني الشعراء فلا غرو إذا فضل بعضهم شعر الرضي على شعر المتنبي.

و إذا تأملنا في شعر الشريف الرضي وجدناه متطبعاً بطابع لا يوجد في غيره و يعسر علينا وصفه و التعبير عنه، لأن حسن الشعر بمنزلة الجمال في الإنسان، فمن نظر إلى الوجه الجميل من أهل الأذواق علم أنه جميل، و لكن يعسر عليه أن يبين أسبابه و عوامله و تفاصيلها، و كذلك إذا استمع ذو الطبع المستقيم إلى القصيدة الجيدة عرف أنها من الشعر الجيد و يصعب عليه أن يفصل الأسباب في جودتها و لعله إلى ذلك يشير كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين سئل عن أشعر الشعراء فقال: إن القوم لم يجروا في حلبة واحدة فيعرف السابق منهم. فإن كان و لابد فالملك الضليل. فشعر الرضي مطبوع بطابع من البلاغة و الجزالة و البراعة و عذوبة اللفظ و الأخذ بمجامع القلوب و غير ذلك من المميزات كلها تجد في شعره و لسنا بعيدين عن الصواب إذا قلنا أن الشريف الرضي بين الشعراء أمة برأسه. و مما امتاز به شعر الشريف أنه نقي من كل ما يتعاطاه الشعراء من الغزل المشين و الهجاء المقذع و التكلف بالمدح تارة و الذم أخرى. و الحقيق بنا أن نمدح الشريف الرضي بأن شعره خال من المجون الذي كان شائعاً في ذلك العصر فهو أجل قدراً و أرفع شأناً من أن نمدحه بذلك. كما أن شعره خال عن وصف الخمرة، و إن وصفها كثير من الشعراء الذين لا يتعاطونها، و لكن الشريف لم يصفها إلا بسؤال من سأله ذلك على لسان بعض الناس. فوصفها بعدة أبيات لم يصفها بغيرها.

و شعر الشريف الرضي مرآة تنعكس عليها الملامح النفسية فتكشف لنا بوضوح كل ما فيها من جوانب و تفصيلات و هو الذي يعطينا صورة صادقة لسمات شخصيته من ناحية، و سمات عصره و بيئته و ثقافته من ناحية أخرى بحيث يستطيع الناظر في شعره أن يكون من الوسائل المهمة التي تعين على فهم كثير من جوانب هذا العصر و أهله.

و أول ما يطالعنا في هذا الشعر في قوة و وضوح، هو أرستقراطية الشريف الرضي العربية التي تمثلت في أسلوبها و مقوماتها، و هي تطالعنا في الفخر و الأغراض التي طرقها.

صفاته الخُلقية و الخَلقية :

لم نجد بين يدي وصف خَلقي للرضي، اللهم إلا ما نسبه الدكتور زكي مبارك من أنه كان جميل الوجه جداً، بحيث نستطيع بعض لداته أن يقول: إنه لم يستطع النظر إلى وجهه إلا بعد أن تخضرّ شاربه، و نبت عارضاه. و لست أدري ممن نقل الدكتور زكي هذا القول فإنه لم يعين مرجعه في هذا، و قد نقل الشيخ الشبي كلام الدكتور زكي، و زاد على ما أورده أن الشيخ صاحب المقالة هو شيخه الطبري. و لم يكن له مصدر في هذا إلا كلام الدكتور زكي مبارك.

و قد شكا الرضي و هو في الثالثة و العشرين غزو الشيب لرأسه بالقصيدة

عجبت بشيبي على مفرقي ... و أيّ مستغرب لله أن تهرما

و نستنتج من بيت الثعالبي من قصة هشمه لبيته ذمم الشاعر بالله أنه كان مسدل اللحية حتى لتصل عرضها إلى أنفه.

و زعم الدكتور زكي مبارك أن الرضي كان يشكو مرضاً يكتمه عن الأطباء، و عزا إليه قصر عمره، و سرد كثيراً من شعره في ذكر المرض، الذي ينعم بنظرة متشائمة و يدل على إدراكه - في زعمه - قصر عمره - و يدرك المتصفح لهذا الشعر أن ذلك دعوى لا يقوم لها دليل، و إنما هي خواطر الشعراء حتى الرضي لم يرها حين رثى الناس.

أما صفات الرضي الخُلقية، فإننا لو تركنا شعره و ما يحمله من إباء و عزة - و ما يدل عليه من وفاء و إخلاص و ما يتمتع به من خصائص مرهفة، و عرضنا إلى ما جاء من صفاته في كتب المترجمين له، لعلمنا أن ابن الجوزي وصفه بأنه - كان عفيفاً - عالي الهمة ملتزماً بالدين و قوانينه، و لم يقبل من أحد صلة و لا جائزة حتى أنه رد صلات أبيه، و ناهيك بذلك شرف نفس - و شدة ظلف - فأما بنو بويه فإنهم اجتهدوا على قبوله صلاتهم فلم يقبل - و كان يرضى بالإكرام و صيانة الجانب، و إعزاز الأتباع و الأصحاب، كما ذكره ابن عنبة فقال: - ذو الفضائل الشائعة و المكارم الذائعة - كانت له هيبة و جلالة و فيه ورع و عفة و تقشف - مراعاة للأهل و العشيرة.

و ترى من خلال هذه الأقوال، أن الرضي يوصف بالعفة و الورع و التقشف و التدين كما يوصف بشرف النفس و علو الهمة، و أنه لم يقبل من أحد صلة، و يوصف أيضاً بالجود و التعصب على قومه و مراعاتهم - و يروى في هذا الشريف و ورعه و عفته، أنه اشترى في بعض الأيام جزازاً من امرأة بخمسة دراهم، فوجد فيه جزءاً بخط أبي علي بن مقلة، فقال للدلال: أحضر المرأة، فأحضرها، فقال: قد وجدت في الجزاز جزءاً بخط ابن مقلة، فإن

أرسلت الجزء شفقته و إن المحتسب شفعته بموسطة محسبة درهم فلقطها ويعد له و التصرف به.

وهذا ما يدل على التصوف . و عن القصة التي عرضنا ، و نقل الطوبخماري عن صاحب حدائق المقربين ، أنه : كان رضي الله عنه في غاية الزهد و الورع ، صاحب حالات و مقامات و كشف و كرامات.

و يحكي أنه اقتدى يوماً بأخيه المرتضى في بعض صلاته فلما فرغ قال : لا أقتدي بك بعد هذا اليوم أبداً . قال : كيف ذلك؟ قال : لأني وجدتك خائضاً في صلاتك غائصاً في دماء الحيض. فصدقه المرتضى و أنصف و التفت إلى أنه لعدم نفسه في تلك الصلاة إلى التفكر في مسألة من مسائل الحيض . السؤال و في بعض المواضع أنه انصرف من صلاته المذكورة ، ممتعض أنه انكشف له الحال المزبورة و أخذ في الويل و العويل و تظهر الفزع الطولي في تمام السبيل إلى أن بلغ المنزل في هذه الحالة فلما فرغ المرتضى أتى المنزل من خلفه. و شكا ما صنع به إلى أمه ، فعاتبه على ذلك فاعتذر عنها بما ذكر . و ثمة كان يتفكر في مسألة من الحيض سألته عنها بعض النسوة في أثناء مجيئه إلى الصلاة و هذا شيء عجيب، لكنه قول من ظن أنه لا قدر للرجال إلا إذا عجبت في سيرتهم الكرامات. و لو كانت على هذا التصور المزعوم من كثير البكاء و الصراخ و العويل.

إن المتتبع لحياة الرضي لا يستطيع أن يجد مجنزاً في عيشه ، فلم يؤثر عنه أنه اتخذ حرفة من الحرف ، أو أخذ فيما كان يتخذ فيه الناس في ذلك العهد من متاع الدنيا حيث يتجاوز ما تحله الله إلى ما حرمه، و تمت أفعل إلى سمعة القصة التي يرويها المصري من أن كوران الفتي ضرب عنه الشريف الرضي ، فاعتقد رباحه - و زعم أنه سرق ، فقال الشريف ويحك ، من تكلم عنه؟ أما علمت أن الضعيف بساط يطوى بما عليه ، فقال : اعتقرت هذه البساط أخذ رياشي و طويه إلى يوم القيامة

ذلك أن القصر ضيق على سهول المطالبة ، و هو يحمل في طياته عوامل تكذيبه ، فالرضي لا يمكن يتفاقى مع كوران الذي هو من لا يصل لحب مسروق ، و لا يعقل أن يظن كوران بالشريف ، مع جلالة قدره و عظم نبله ، أنه لو أخذ جلسته سر الثوب ، إن هذا لو قيل في مجالس الخلفاء و السلاطين لكان له محل من التصديق ، أما في مجلس الرضي فلا يرد مثل هذا . و لم يسر في شعر الرضي وصف الخمر و حين يصفها يكرهه .

رأي محصول شفاهيـــة بين التفسير و المطول

ذكر في مقدمتها أنه سمى القول في ذلك ، و كتابه عن جملة ذكر القصر ... للسعيد في الطرف و وصف البرقي ، و كتابه من أول قوله فقال :

أمشي [illegible]   و [illegible]

يفكر في مقدمتها أيضاً أنه قالها على لسان بعض الناس ، مما يشعر بتحرجه من ذلك . و كان الرضي شديد التكبير على من يشرب الخمر ، و قد ظل طوراً يجد في « مختصر الكرخي » مقالة أن عبد الرحمن بن أبي ليلى شرب شربة عند علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، و قال في التعليق عليه : « و كان المعلوم المشهور ، و المنقول المتداول ، أن أمير المؤمنين و الأطهار من ولده عليهم السلام ، لم يؤتوا قط بمثل هذه الفعلة ، و لا أن عرفوا بهذه الحالة » . فكيف يشرع نفسه من زمرة هؤلاء الأطهار ؟

و قد التزم الرضي هذا الخلق الصارم منذ صباه ، و آمنه في أوائل ما قال من الشعر . ففي أول قصائده كما ورد في صدر القصيدة يقول :

يثني عليك إذا غيري ألم به   كانت مناقبه [illegible] على التهم

و في سنة ٣٧٧ هـ و هو في الثامنة عشرة من عمره يقول :

أنا المرء لا عرضي قريب من العدى   و لا في للباغي علي مقال

وما العرض إلا خير عضو من الفتى   يصان و أقوال العداة نصال

و في السنة التالية يقول :

و إني لمحسود على كل حالة   من الهوى و القلب و العين والفم

[illegible] إلى الفحشاء إن عرضت له   [illegible] على الدم

و في ذلك السن يصف نفسه فيقول :

و أعرض عن كأس النديم [illegible]   [illegible]

[illegible]   و لا [illegible]

و لا أعرف الفحشاء إلا بوصفها   و لا أنطق العوراء و القلب مغضب

هكذا كان الفتى في صدر شبابه و الهوى [illegible] و [illegible] ، و قد دعته [illegible] إلى أن يكون أشد صرامة مع نفسه ، فشدد [illegible] على من [illegible] عليهم . و ذلك قوله لهم :

[illegible]   [illegible] إلى [illegible]

[illegible]   [illegible]

و هكذا [illegible] من [illegible] ، و [illegible] من [illegible]

[illegible]   و [illegible] لا [illegible] على [illegible]

و قد وصف الرحبي بالزهد و التقشف ، فهل كان هذا الرجل الذي شغل بالسياسة منذ مقتل المثنى ، و تركته هموم قلمه منذ شبيبته ، و استشرى على المناصب ، فكان يطلب المنصب في سبيل الخلافة . هل كان هذا الرجل زاهداً متقشفاً؟ لقد كان زهده يتمثل في السمت الظاهري و البعد عن المجون الذي كان يتميز به كثير من شعراء في هذا العصر ، فقد كان من علماء عصره و فضلائه . و لكني أميل إلى أن الرحبي بعد وفاة [illegible] سنة ٣٠١ هـ قد يئس من سلطانه الذي كان يملأ الدنيا و يشغل الناس ، و لم يعد يسعى إلى ساحة سلطان ، أو يجري وراء منصب سياسي ، بل إنه ترك قول الشعر ، في [illegible] الجديد شرف الدولة حتى [illegible] . و هذا الإرتداد [illegible] من الإقبال على الدنيا إلى البعد عنها زهد ما بعده زهد ، و في الديوان عدة مقطوعات و قصيدة واحدة معنونة بأنها قيلت في الزهد ، و المقطوعات جميعها تتضمن معنيين ، السخرية من تعلق الناس بالدنيا ، و قرب نهاية الحياة من بدايتها ، و لم تترك هذه النغمة الرحبي و هو يصارع الدنيا ، و عندما هي نغمة من تركها ، و حتى يبحث عن الهوى ، و قصيدته الزهدية وعظ و إرشاد ، و فيها يعلن طلاقه الدنيا :

[illegible]	و [illegible] من [illegible]

و الواقع طلاقه هذا إنما في تلك الفترة القصيرة من نهاية مسيرة حياته منذ سنة ٤٠٢ هـ ، و حتى نهايتها سنة ٤٠٦ هـ و قد بكاه مهيار لهذا مرثيه :

[illegible]	و قد [illegible]
و [illegible]	[illegible]

و مما وصف به الرحبي شرف النفس و علو الهمة و أنه لم يطلق من أجله [illegible] و مناصب في [illegible] الرحبي [illegible] حقاً [illegible] في [illegible] عندما ذكر أنه لم يقبل صلات [illegible] و بالتالي [illegible] فيما [illegible] ، و أميل إلى القول بأن الرحبي كان يحمل نفساً [illegible] ، لم تتصاغر [illegible] من الشعراء [illegible] بباب الخلفاء و الملوك [illegible] على الشعر ، [illegible] أنه كان لا يرضى [illegible] الشعراء حيث يقول مخاطباً أباه :

و [illegible] لا يرضى [illegible]

و إنما كان يطلب ود الخلفاء و الملوك و الوزراء و الرؤساء [illegible] و [illegible] وسيلة إلى مايريده من مجد ، و لم يكن على [illegible] أنه [illegible] أو ملكاً أو [illegible] و يحصل على [illegible] ، و إنما كانت [illegible] [illegible] المكرمات ، و طريقاً توصله إلى ما يريده من مكرمة و رفعة ، و قد عبر عن أنفته من التكسب عن طريق المديح في مقطوعته التي يقول فيها :

كم مرّحوا لي بالخلابة و زخرفوا   مع الهلوات فلم أرفع بها رأسا
وكيف يخلبني وطء الناس مكتسبا   إن المطالب من أيدي الناس

كما وعد بتجنب الشعر إذا وصل إلى آماله في قوله :

و ما قولي الأشعار إلا ذريعة   إلى أمل قد آن قود جنيبه
و إني إذا ما بلغ الله منيتي   ضمين له هجر القريض وحوبه

هذان البيتان من قصيدة ثائرة يقول فيها :

فوالله لا أبالي الزمان بذلة   و لو جعلت في كل يوم حروبه
أأنت معتدي كل ملك تزوره   عن العز و العلياء ... ركوبه

و مواقف العزة هذه التي وقفها الرضي رفع مكانته في الدولة ، و أسبغ عليه أرفع المناصب و هو في العشرين . كما أن من يتصل بقصر الخلافة و ينعم بالملك في هذا القصر لا بد أن تجري عليه الأرزاق ، دون أن يسألها بجمهوره أو شعره . و قد أعلن الرضي في إباء ، في مدحه لأبيه و هو بعد شاب لم يبلغ العشرين ، أنه ضمنه القلوب إذ كانت الثقة بمكانته

و كسبت إذا ما جئتني خاليا   تزاورا من الفضائل الفاخر
لبست الفضل و لم أكتسي   و نعمت الرؤية على المفاخر

و قد أعلن الرضي للطائع لله منذ اتصل به ، أنه لا يبغي مالاً و لا ثروة ، و إنما :

مدحت أمير المؤمنين و إنه   لأشرف ما أمول و أعلى منعّم
أريد الكرامة لا المكسب   و شتان الصلات لا العطايا المكتسبة

و كانت استجابة الطائع لله لرغبته مباشرة ، فقد وصله بالكرامة قبل العطاء .

مدحت أمير المؤمنين و إنه   لأشرف ما أمول و أعلى منعّم
فأوسعني قبل العطاء كرامة   و لا مرحبا بالمال إن لم أكرّم

و كان الرضي يمضي إلى إباء النفس حسن التذكير بمنهج المتقدم ، و كذلك فقد أرسل إلى الطائع لله قصيدة يشكره على تكرمة أكرمه بها و الهدايا و ورق . قولها :

أنا طالب إن مرضت يمنزل   و إنه المشرع أطامعني لم أرحل

و كما كانت الأرزاق تجري عليه من قصر الخلافة أيام الطائع لله ، كذلك كانت تجري عليه من بهاء الدولة الملك دون أن يسألها أيضا . و قد بدأت صلته الرسمية به حين كاتبه حتى بعد قتل سنة ٣٨٨ هـ ، ثم قويت حتى ولي بهاء الدولة أبا أحمد الموسوي نقابة الطالبيين و الحج و المظالم سنة ٣٩٤ هـ .

فاللهم ولده الرضي و المرتضى بهاء الدولة ، ثم تقلد الرضي النقابة حين ولي بهاء الدولة الخلافة و الإمارة الحج سنة ٣٩٢ هـ و استمر بعد ذلك على مر السنين حتى توفي بهاء الدولة سنة ٤٠٣ هـ و في خلال ذلك كله كانت الأموال تغدق على الرضي لمكانه و صلاته فلم يكن الرجل يقدم قصائده ليتخذها من ورائها إنفاقها بدرة أو طمعاً من المال .

وفاة الشاعر الشريف الرضي :

إن الشريف الرضي ودع آماله حين توفي على بهاء الدولة البويهي سنة ٤٠٣ هـ ، و قد انتهى هذا من عصره الذهبي ، إلى العهد الذي حل سلطان الدولة بواسطة ناظيهم منه ، حتى اضطر إلى أن يكتب قصيدته في صفر سنة ٤٠٤ هـ و فيها يقول :

و لم يبق عهد القريض و لم أزل ... علة بجانب ابن ساع الالفة

حسبٌ من رقية الطيور إليه ... وجدها طعنٌ تلطرية و أليق

بل إنه كان يدرك أنه يودع الحياة نفسها ، ففي شعبان سنة ٤٠٤ هـ و في صديقه المهنى ، فختم مرثيته بقوله :

ما أخطأتك النائبات ... إذ أصابت من تحب

و لم يمض على هذا إلا أكثر قليلاً من أربعة شهور حتى لقي ربه في بغداد يوم الأحد ، لست خلون من المحرم سنة ٤٠٦ هـ / ٢٦ يونيو سنة ١٠١٥ م.

المراجع و المصادر :

تاريخ بغداد ٢/٢٤٦ ، المنتظم ٧/٢٧٩ ، وفيات الأعيان ٢/١٤٩ ، الكامل حوادث سنة ٤٠٦ هـ ، المنتظمون من الشعراء ٢٤٤ ، إنباه الرواة ٣/١١٤ ، تاريخ ابن الوردي ١/٣٣٣ ، تاريخ أبي الفداء ٢/١٤٤ ، تذكرة الحفاظ ٣/٢٥٠ ، عمدة الطالب ٢٠٩ ، روضات الجنات ٢١٢ ، الدرجات الرفيعة ٤٦٦ . و في نسخة من وفيات الأعيان ، « توفي بكرة يوم الخميس سادس المحرم ، و قيل صفر سنة ست و أربعمائة » ، و منها نقل الصفدي في الوافي بالوفيات ٢/٣٧٤ ، و ابن العماد في شذرات الذهب ٣/١٨٢ ، و في البداية و النهاية لابن كثير ١٢/٣ أنه توفي في خامس المحرم سنة ٤٠٦ هـ . و تاريخ ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ١/١٠ بأنه توفي في المحرم من سنة أربع و أربعمائة . و كذلك ذكر الخوانساري في روضات الجنات ٤٩٦ ، بعد أن ذكر التاريخ الأول من سنة ٤٠٦ و القول الأول هو المعتمد في

يُنسب الرواية التاريخية إلى الرضي . و هو ظنٌّ يتفق مع ما جاء في ديوانه في رثائه لأبيه المتوفى [illegible] فيما سبق . و ما جاء في ديوان أخيه المرتضى و تلميذه مهيار في رثائهما له إذ مات سبع و أربعين سنة .

[جاء في كتاب الدكتور إحسان عباس عن الشريف الرضي ١٤٩ أنه توفي عن ثمانية و أربعين عامًا . و هو خطأ]

و قد تساءل الأديب التقي عن السبب في قصر عمر الرضي . و هو من أسرة معمَّرة فوالده بلغ السابعة و التسعين . و أخوه عاش نحو إحدى و ثمانين سنة و [illegible] - في الجمهرة - إلى مرض عصابي [illegible] . ثم [illegible] كرنكو ، من أن الشريف كان ضعيف البنية . [الشريف الرضي ١٠٩ ، ١١٠]

و ذكر كرنكو أيضًا أنه كان شديد التعصب و هو في العلوية و المعتزلة .

[دائرة المعارف الإسلامية ١٢ / ٣٨٨] و هذا خطأ لأن الرضي كان إماميًا و هو في الثلاثة و العشرين ، كما جاء في الصفحة [٢٣٠] .

و لست أدري من أين استقى كرنكو قوله : إن الرضي كان ضعيف البنية . بل إنه ثابت أيضًا أن الرضي [illegible] خطيرًا سنة ٤٠٣ هـ ، في [illegible] الأولى حتى يئس الناس من حياته ، بيد أنه ما إن انقضى شهران حتى أبلّ من مرضه ، إلى حد أنه استطاع أن يرسل في شهر رجب قصيدة أخرى إلى سلطان الدولة في أرّجان . [المرجع السابق]

و يتضح من هذا أن الأمر اختلط على كرنكو - فالذي مرض حتى يئس الناس منه هو بهاء الدولة لا الرضي .

و قد علّل ابن معصوم و الخوانساري [illegible] في [illegible] الرضي [illegible] بينهما حتى أخيه المرتضى ، [روضات الجنات ٥٦٨ ، الدرجات الرفيعة ٤٦٨ - ٤٦٩]

يرويانها عن أبي الحسن العمري ، و جاء في كلتيهما في رواية ابن معصوم أن المرتضى قال : [illegible] يعزّ عليّ أخي - قتله الذكاء . فما كان إلا يسيرًا حتى قضى نحبه . و في رواية الخوانساري : يعز علي أخي ، يقتله الفهم بعد أسبوع - فما مر الأسبوع إلا و جاء نعي الرضي ، و مضى لسبيله . و الملاحظ - كما ذكر الأديب التقي و الدكتور إحسان عباس [الشريف الرضي ، الأديب التقي ٢٠٢ - ٢٠٣ ، و الدكتور إحسان ٢٥٨ - ٢٦٠] - صنعت على مثال قصة أبي تمام مع الكندي ، و صيغت لتدل على عبقرية الرضي ، و قوة حدس المرتضى . و قد نقل الخوانساري ، بعد رواية القصة ، عن بعضهم أن ذلك حدث [illegible] . أو [illegible] [روضات الجنات ٥٤٦]

و ليس لهذا كله [illegible] ، فكل أولئك كذاب .

و لما توفي الرضي حضر الوزير فخر الملك و جميع الأشراف و القضاة و الشهود و الأعيان ، و صلى عليه الوزير في الدار مع جماعة أمّهم أبو عبد الله بن المهلوس العلوي ، ثم دخل الناس [illegible] عليه - و دفن في داره بمسجد الأنباريين بالكرخ . [المنتظم ٧ / ٢٨٣ ، ٢٨٣ ، وفيات الأعيان ٤ / ٤١٩ ، الوافي

بالوفيات ٣١٢/١ ثم بعض المراجع التي [illegible] في ترجمته)

و لم يستطع أخوه المرتضى أن ينظر إلى جنازته و دفنه ، فمضى إلى مشهد موسى الكاظم بمقابر قريش ، و ركب فخر الملك في آخر النهار ، فعزاه و ألزمه الرجوع إلى داره ففعل . و قد سجل لنا المرتضى هذا المشهد ، فقال في رثائه الآتي .

[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]

(ديوان الشريف المرتضى ٢ / ٢٢٢)

و هذه الأبيات – و ما تدل عليه من مظاهر نفسية لدى المرتضى في ظهره ، تصور الطور الذي بلغته [illegible] ... إن [illegible] لا يحتمل ، فالمرتضى [illegible] إلى تلك العين ، كان قد [illegible] على [illegible] . و ما هو بالأخ [illegible] الذي [illegible] المرتضى [illegible] عليه ، و لم يكن من ضعف الإيمان [illegible] التي لا [illegible] ، لأنه [illegible] في [illegible] – و ربما كان لهذه [illegible] يتعلل [illegible] ، و قد يكون [illegible] لم تستطع عليه ، و بين الرضي و [illegible] [illegible] و [illegible] و [illegible] و [illegible] . (الشريف الرضي ١٠٤)

و قد دفن الرضي – كما سبق – في داره بمسجد الأنباريين بالكرخ ، و يذكر ابن خلكان و ابن العماد نقلاً عنه ، أن الدار خربت ، و دثر القبر .

(وفيات الأعيان ٤ / ٤٩ ، شذرات الذهب ٣ / ١٨٤)

و [illegible] أنه نقل بعد ذلك إلى مشهد الحسين عليه السلام بكربلاء ، فدفن عند أبيه ، و قبره ظاهر معروف . (عمدة الطالب ، ٢١٠ – ٢١١)

و يقول ابن معصوم : ثم نقل الرضي إلى مشهد الحسين بكربلاء فدفن عند أبيه . (الدرجات الرفيعة ٤٦٦)

أما [illegible] فقد [illegible] عن ابن عنبة بعد قوله : و قبره ظاهر معروف ، قوله : – هناك قبرهما من الروضة الشريفة – ثم نقل قول [illegible] : و الظاهر أن قبر السيد ، يعني المرتضى ، و قبر أخيه و أبيه ، في المحل المعروف بإبراهيم المجاب ، و كان إبراهيم هذا هو جد المرتضى ، و ابن الإمام موسى عليه السلام ، و قبر إبراهيم المجاب في الحائر معروف مشهور . [illegible] : و [illegible] الواقع في [illegible] [illegible] فوق الرأس من الحرم المطهر ، و قال : [illegible] الآن في المسجد المتصل بالحائر من جهة [illegible] . (روضات الجنات ٣٩٩)

و في [illegible] [illegible] على [illegible] إلى الشريف الرضي ، و قد

ثالثاً: قصيدة [illegible]

جزم السيد محسن الأمين بأن هذا الشعر ليس إلا للرضي .
[[illegible] الشريف الرضي [illegible] ص ١٠٦]

و قد اتهم الرضي بالرفض جماعة لكرههم أبي حنيفة [عمدة الطالب ٢١٠]
فقال الشعر [illegible] منهم .
و رثى الرضي أخوه المرتضى بقصيدة بائية و مطلعها .

[illegible] ... و [illegible]

و فيها يقول .

[illegible] ... و [illegible]

[illegible] ... [illegible]

ثم يصف مكارم أخلاقه . و عظيم صفاته . فيقول

و مضى [illegible] ... [illegible] و [illegible]

و [illegible] ... و [illegible] و [illegible]

من [illegible] ... و [illegible]

[illegible] ... [illegible] و [illegible]

من [illegible] ... [illegible]

و يشير إلى [illegible] له

[illegible] ... و [illegible]

كما [illegible] في [illegible] .

يا [illegible] ... [illegible]

[ديوان الشريف المرتضى ٢/ ١٤٦ - ١٤٢ . و قال الصفدي في الوافي بالوفيات ٢/ ٣٧٤ : " و رثاه المرتضى بمراثٍ كثيرة " . و قد فتشت في ديوانه فلم أعثر له إلا على هذه المرثية].
كما رثاه تلميذه مهيار الديلمي بقصيدة ميمية أبيات في [illegible] من [illegible]:

[illegible] ... [illegible]

و [illegible] ... [illegible]

و [illegible] ... في [illegible]

[illegible] و [illegible] ... [illegible]

[ديوان مهيار الديلمي ٣/ ٣٢٠]

و في قصيدة طويلة ، [illegible] في رثاء [illegible] . [illegible] قوما ممن كان يحسد الرضي [illegible] و نسبوه إلى الشريف في رثاء [illegible] بالرضي . (الشريف الرضي ٤٢٩ - و مقدمة القصيدة الرائية في ديوان مهيار الديلمي ١ / ٣٩٩)

مطلع قصيدته الرائية

[illegible] [illegible]

و كان هذا على استجابة الرضي في رثائه أبا طاهر بن ناصر الدولة بالقصيدة .

[illegible] [illegible]

و يقول مهيار مخاطبا شريفا

[illegible] [illegible]

[illegible] [illegible]

ثم يذكر أمجاد الرضي :

[illegible] [illegible]

[illegible] [illegible]

[illegible] [illegible]

[illegible] [illegible]

[illegible] [illegible]

[illegible] [illegible]

و [illegible] في هذه القصيدة الأولى، [illegible] و [illegible]:

[illegible] [illegible] إلى [illegible]

و يختم المرثية بهذا البيت و تلك اللوعة

[illegible] [illegible]

[illegible] [illegible]

(ديوان مهيار الديلمي ١ / ٢٢٩ - ٢٤٣)

و رثاه أبو القاسم الوزير المغربي بقصيدة ، مطلعها:

[illegible] [illegible]

[illegible] [illegible]

[illegible] [illegible]

([illegible] ١/ ٦٢)

و رثاه سليمان بن فهد بقصيدة ، مطلعها

[illegible] [illegible]

([illegible] ٦١٢ ، الشريف الرضي [illegible] ٦٠٦)

و في هذه المراثي [illegible]

مذكرة رحلة الحجـــاز
لسمو الشيخة سلطان جهان بيكم أميرة بوفال

بقلم : أحسن علي خان
بوفال

سلطان جهان بيكم حاكمة إمارة بوفال قد رحلت إلى أرض الحجاز المقدس، فكانت مذكرة شيقة ممتعة، بها نعرف الفرق الواضح بين عهد اليوم و الأمس. كان الحاج يمرّ من المصاعب العظام و الخطوب الهائلة حتى بداية العصر قبل قرن من الزمان ... و كان يسافر و قلبه خفقان من المخطرات المحدقة به، و فيها عبرة للحجاج الكرام الذين يقصدون إلى تلك البقعة المباركة هذه الأيام بيسر و سهولة.

إمارة بوفال الإسلامية :

أذكر قبل الخوض في الموضوع الأصلي سطورا عن إمارة بوفال الاسلامية المرحومة كمدخل للموضوع الشيق.

أسست هذه الإمارة بوسط الهند على يد قائد أفغاني دوست محمد خان في بداية القرن الثامن عشر و كانت دولة المغول تحتضر و تكاد أن تختفي عن الوجود، و أحوال الهند تنتقل من سيء إلى أسوأ، و لم يبق من الاستقرار و الانضباط شيء، و كانت هذه الإمارة محاطة من جميع الجهات بأقوام همهم القتال و الإغارة مثل المرهتا و البنداري.

استمرت الحروب بأنواع مختلفة حتى سبب تضعيف الإمارة بقوة. و انخرطت الإمارة في معاهدة مع شركة الهند الشرقية لتجنب ذلك القتال و انتهت الحروب و لم يبق إلا الحروب الأهلية بين بعض أسرة الطبقة الحاكمة.

في عهد سكندر جهان بيكم و شاهجهان بيكم وصلت الإمارة إلى أعلى درجات الرقي و التطور و الازدهار، و في عهد سلطان جهان بيكم تطورت الإمارة إلى أعلى معدل للحضارة و الثقافة.

To: www.al-mostafa.com

عهد الأميرة سلطان جهان بيجم :

توفيت الأميرة شاهجهان بيجم في ١٦ يونيو ١٩٠١م في الساعة الثالثة عشر ظهراً ، و دفنت في حديقة نشاط ، و كانت المرحومة قد أنهت مسألة ولاية العهد لابنتها سلطان جهان بيجم ، و بعد وفاتها أخبر الكسندر جي المرشح الوكيل السياسي لدى الإمارة وزير الإمارة المولوي عبد الجبار خان أن حكومة الهند المركزية قد اعترفت بحكومة الأميرة سلطان جهان بيجم.

عزمها الحج قبل تولي السلطة :

و كانت سلطان جهان بيجم تعتزم الحج منذ أن كانت ولية للعهد، و كان وراء هذا العزم سببان : الأول . كانت علاقتها بأمها قد تكدرت لبعض الأسباب السياسية. و الثاني: كانت متدينة و صاحبة استطاعة تحقق في تحقيق هذه الفريضة. و هي تشير إلى السبب الأول في كتابها "جوهر إقبال" : "في عهد شاهجهان بيجم كنت اقترحت أن أهاجر إلى مكان آخر بسبب القلق و المصائب التي كنت أعانيها ، فقد أشرت إلى ذلك في رسالة بعثتها إليها، و كنت أعتقد أن أحسن بقعة على وجه الأرض هي بيت الله الحرام".

و أشارت إلى السبب الثاني في نفس الكتاب: "كنت أتمنى أن أنال الثواب باستخدام المال الحلال في الأعمال الحسنة لأداء فريضة الحج و كنت أؤكد عليه لكننا مستطيعون و نسأل عن التأخير يوم القيامة " والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا " (١)

و لما تولت زمام الحكم لم يبق مانع من الحج و لا حاجة بعد للاستئذان من أمها و استشارتها و تاقت نفسها مرة أخرى للحج ، و هي تكتب بعد وفاة زوجها " و كنت أتحرق شوقا للحج و لزيارة روضة الرسول صلى الله عليه وسلم المقدسة " (٢).

الاستئذان من الحكومة بالحج :

و كانت تحتاج للحج لإذن من حكومة الهند المركزية فقدمت طلبا إليها في ٣ من مارس سنة ١٩٠٣م للاستئذان للسفر و اصطحاب ابنيها الصاحبزاده محمد عبيد الله خان و محمد حميد الله خان ، و كذلك طلبت أن يرافقها مسئول طبي كبير إلى جدة كما رافق الدكتور [illegible] مع الأميرة سكندر جهان بيجم و أرسلت هذا الطلب عن طريق الوكيل السياسي إلى حاكم الهند العام.

الإذن بعد جلوس الملك على العرش :

و طلبت الأميرة من قبل الحكومة المركزية بدلهي في ١٦ يناير ١٩٠٣ ، أنها تجيز لها السفر إلى الحجاز بعد مهرجان جلوس الملك على العرش بدلهي ، و تسمح الحكومة أن تكون في مرافقتك مسئول طبي إلى جدة. فطلبتها أن تؤخر

سفرها، و كانت قلبها قلق . و كانت تستعجل الذهاب، و لكنها اضطرت إلى ما بعد مهرجان جلوس الملك على العرش.

و عقد مهرجان الجلوس بأوائل شهر ديسمبر ١٩١١م بدلهي. و اشتركت فيه و بعد الفراغ منه فوراً بدأت الاستعداد للسفر و كتبت إلى الجمهور في نفس الوكيل السياسي بإمارة بوبال أن الحكومة المركزية اعتمدت في أن تسافر بعد مهرجان الجلوس على العرش. و لكن كان في الأمر إشارة أن يطلب مرة أخرى بعد الجلوس فيستحسن أن تحصل على الإذن الجديد بالسفر بصورة مكتوبة و اطمأنت بذلك و اتخذت ترتيبات الأسفار لاستعدادها.

الاستعداد للسفر للحج :

و كان أهم شيء في هذا الصدد من يتولى شئون الإمارة في غيابها، فاختارت لتعيين ابنها الأكبر محمد نصر الله خان، و كتبت له الدستور و ذكرت فيه كيف يجري شئون الرعية و البلاد و سلمت إليه هذه الوثيقة لتحصل عليها كما أخبرت الحكومة المركزية عن هذا التعيين.

و كانت تريد المساعدة من الحكومة الإنكليزية المركزية في الأمور الآتية :

١ - أن تعين الحكومة مستشاراً كبيراً يرافق لها في السفر إلى جدة و المدينة المنورة و مكة المكرمة و الإياب منها.

٢ - طالبت الأميرة عالية من الحكومة المركزية إرسال من يحرسها في مكان سفرها و إقامتها.

٣ - طالبت الأميرة تهيئة السفينة التي تنقلها إلى الحجاز.

٤ - مسألة الكرنتينة: كانت تجرى للمسافرين الهنود مرتين، الأولى في ميناء بمبئ و الأخرى في ميناء قمران تبعاً للمعاهدة التي عقدتها لجنة الصحة. كانت الأميرة تريد الاستثناء من الكرنتينة . و قد طلبت إجراء جميع مراحلها في بوبال لكنها مستحيلة و لذلك كانت تبتغي الاستثناء من كرنتينة قمران. و استمرت مراسلات طويلة بينها و بين الحكومة الإنكليزية و السلطنة العثمانية بهذا الخصوص.

٥ - مخاطبتها الرسمية من الحكومة التركية . طالبت الأميرة من الباب العالي عن واسطة سفارة الحكومة الإنكليزية أن تسمح لها بمصاحبة الجنود المسلحين. و الباب العالي لم يسمح بذلك و لكنه وعد بحراستها بواسطة جنوده.

٦ - تسهيل مسألة الجمرك. كتبت الأميرة إلى الجمهور أن يكتب رسالة تسهيل إلى مسئول الجمرك بجدة أو إلى سفارة الحجاز أن أمتعتي ترسل بها إلى سفارة الصحة أو الكبرى.

الوصية قبل السفر :

الوصية شيء مهم في الإسلام و جاءت أهميتها و تأكيدها في الحديث النبوي الشريف أن يكون وصيتين قبل سفرها للحج إحداهما عامة و الأخرى خاصة. طلبت الأميرة للوصية العامة اشهاد شهادات كل من السادة معالي الوزير المرحوم عبدالجبار خان، و قاضي الإمارة المرحوم عبد الحق ، و مفتي الإمارة المرحوم ... و أودعتها عند ابنائها الثلاثة و قاضي الإمارة و مفتيها.

أما الوصية الخاصة فقد سلمته إلى معتمدها الخاص و قالت له إن رجعت سالمة فرُدّها إليّ و إلاّ سلمها إلى الأمير نصر الله خان.

الأمور التي لم تعمل كانت بخصوصها مراراً و تكراراً حتى عند سفرها و لم تصل بعضها إلى مطلوبها.

الحكومة البريطانية المركزية عينت الميجر د . س . ميكونالد موظف شؤون السفينة الهندية لمرافقتها في سفرها للحج و كان يريد أن يصطحب زوجته في السفر فطلبت الحكومة الأمر على رضاء الأميرة ، و كتبت في كتابها " رحلة الرياحين " : "كانت تستهدف كثيراً سياسيا بسبب الميجر و زوجته شخصيته بالسفر و لا شيئا مشكورة".

و مسألة الميجر حلت كما أرادت الأميرة. أما مسألة السفينة و لوازمها و تكاليفها و غيرها من الأمور استمرت في تلك مراسلات طويلة بينها و بين مسؤولي الحكومة فاستأجرت سفينة أكبر لنفسها و لرفاقها من شركة ... و لم تقلق في ذلك حتى لا يحدثا النزاع عند زيادة عدد المسافرين، و كان معها ثلاثمائة مسافر و أربعون فرساً و أشياء أخرى و كانت السفينة ذات ثلاث درجات الأولى و الثانية و الثالثة ، و كانت واسعة جداً.

و اطلع الميجر النسي عن مراسلتها من قبل الحكومة التركية و أخبر أنه استلم برقية الحاكم الهندي أن الحكومة التركية تريد أنها كالمراسلة من طريق جنودها و تمنع تحصيلات في الجمرك و ستطيع أن تصطحب رجالها و حراستها و لكن بدون أسلحة و أما إذا كانت في حوزتهم الأسلحة فيجب أن يتركوها في السفينة . و كتب الميجر أيضا لكي لو حملت الشروط المتعلقة عن الطريقة فتطلب من الأميرة المحترمة أن تكتب إليّ رسالة تذكر فيها أن حراستها تدخل بدون أسلحة و أنهم كلهم مسلمون.

فكتبت الأميرة إلى الميجر الحضير الثاني أنا تصنعك أن جنودي غير مسلحين إلا بعض مسئولي الإمارة الكبار يحملون أسلحة خفيفة و هي ضرورية لهم لأنها حلية الرجال. و لأجل تقليل الأمر المتعمة كانت يجب أن تمر الأميرة على القسطنطينية و لكن بحيفا بدل بومباي و في بورسعيد بدل طهران.

مراسلة بعض الشخصيات البريطانية المهمة :

بعد أن تمت هذه المراحل راسلت الأميرة بعض الشخصيات المهمة

بالصولجان حتى لا تنصب في المقر هناك و للقيام بمهمة فارسلت الهدايا لبعضهم و كانت الأميرة أرسلت قبل سفرها للتوقيع ذو الفقار أحمد النقوي و المولوي عنايت الله و المولوي أمجد حسين و محمد شكري أفندي الذين كانوا موظفين بالإمارة أرسلتهم إلى الأستانة الآتي ذكرهم :

السيد يوسف عون الرفيق ملقبا أمير مكة ، و كانت له علاقة مع إمارة بوفال منذ عهد الأميرة سكندر جهان بيجم

السيد مصطفى أحمد راتب باشا حاكم الحجاز ، و كان قبل تعيينه حاكما زار بوفال و كانت علاقته مستمرة بها.

السيد عثمان باشا شيخ الحرم المكي

السيد حسين مظفر باشا حاكم المدينة المنورة

كانت الأميرة كتبت إليهم الرسائل و أرسلت الشمال و الهدايا و طلبت معونة لكل من أمير مكة و حاكمها و شيخ الحرم المكي و حاكم المدينة.

القرنطينة الإيطالية :

كانت الأميرة تريد مغادرة بوفال في ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٠٣م و لم تطلع على شروط القرنطينة ببوفال أو ببومباي ، و أخيرا أطلعتها حكومة بريطانيا بتلك الشروط اشترطت فيها أن تبقى هي و أصحابها لمدة و تقيم في مكان بعيد عن المدينة عشرة أيام . فلم تتمكن بعد ذلك ضرورة القرنطينة ببومباي.

و كانت القرنطينة لازمة للهنود لأن بلاد الهند كانت مشهورة بمرض الطاعون و الأوبئة الأخرى . و كانت الحكومة تحذر المسافرين أن يذهبوا إلى تلك البلاد حاملين فيروس الأوبئة . فلم تتمكن بسلامة من القرنطينة التركية توصل إلى الهند و تتعب و تلزم عليها الانتقال و لذلك أصبح لها الأسطول شبيه بنشر الطاعون هناك.

و كانت الحكومة التركية اشترطت حيال قرنطينة القافلة السلطانية ما يلي :

- أن تجري ببوفال .
- أن يحصل الطبيب بإزالة الإشارات السامة و توقيع الطبيب به.
- يجب أن تكون السفينة بجميع الشروط المطلوبة المطلقة من الحكومة التركية.
- إقامة جميع الحجاج بالسفينة.
- أن يكون التوجه إلى الآن فيبلغ بذلك إلى الحكومة التركية.

فلما أبيح للأميرة بإجراء قرنطينتها ببوفال ، قسمت أصحابها إلى قسمين ، منهم الأول منها مائة شخص تقريبا. و أقاموا بحديقة تحيط الجزء الذي يسكنها الأميرة و خادمات معها و حديقة حيث الجزء الذي سكنتها الأميرة تلبسها للسيدات و يفصل بينهما جدار فيه حجرة . أما الحديقة الأخرى كان فيها بقية

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

من بوبال إلى بومبائي: في ٢٨/ أكتوبر ١٩٠٣م ركبت الأميرة القطار [illegible]

[illegible] في ٣٠/ أكتوبر ١٩٠٣م.

استقبالها في بومبائي:

[illegible]

المغادرة من بومبائي:

باخرة "أكبر" التي استأجرتها الأميرة [illegible]

وتحريرها من الوباء.

المراسلات الطويلة التي تمت بين الحكومة الإنكليزية و السلطنة العثمانية ما حلت جميع مشاكل السفر، و كانت تبقى الاستثناءات في بعض المشاكل و خاصة عن الكرنتينة الثانية. فاعتقدت أن تفاصيل ذلك ستعلمون عنها بعد.

في الساعة الرابعة عصر الأمير نصر الله بقية الأثاث بها، و في الساعة الخامسة رفعت الباخرة مرساتها فرحت هي و مراكبها الحربية و قالوا "بسم الله مجريها و مرساها".

وصول الباخرة بمصر:

و كانت الباخرة بإسكندرية تماماً فلم يحس شخص بالمرض، و المزوع، و الأمير نصر الله خان أحس بالمرض في بداية السفر و لكن بتوجه الدكتور ميكوارث انتهى كل شيء.

وصلت الباخرة بميناء عدن في الساعة العاشرة عصر ليلاً في السابع من نوفمبر سنة ١٩٠٣م و قد استلم قبطان السفينة برقية الحضر حيوي فحصل جهة مسئولها أن باخرة سمو الشهزاده لا توقف بالقاهرة بل تصل إلى جدة مباشرة.

الكرنتينة بجزيرة [illegible]:

في الحادي عشر من نوفمبر وصلت الباخرة قريب جدة و رأى القبطان أنه لا يناسب وصول السفينة بجدة ليلاً و تبقى تموج في البحر و ترسى بالميناء صباحاً.

في ١٢ من نوفمبر سنة ١٩٠٣م الموافق ٢١ شعبان وصلت الباخرة ميناء [illegible] التي كانت جزيرة صغيرة و قد تقرر أن الكرنتينة اللازمة للأميرة تكون هناك و هي عبارة [illegible] البحر الأحمر و رست باخرة الأميرة قريبة من جهة جدة حتى تسهل عملية الحمل و النقل.

بإيعاز من الحكومة الهندية قبلت الحكومة العثمانية بشرط التزام القواعد الصحية المقررة لتكون مدة الكرنتينة الخاصة، و قد قبلت ذلك وزارة الصحة بالقسطنطينية أيضاً. و لكن بسبب وباء الطاعون ببومباي طالبت وزارة الصحة بالقسطنطينية مصرة على كرنتينة عشرة أيام، و هي إما في الكمران أو في بئر سعيد و لكن سمحوا للأميرة أن تبقى بالسفينة أو تنزل على البر حسب ما شاءت.

كانت القنصل البريطاني الدكتور محمد حسين [illegible] مع بعض المسئولين و اقترب من الباخرة و لم يدخلوها بسبب كونها تحت الكرنتينة. و أخبرها الدكتور أن القنصلية البريطانية بجدة أبرقت إلى الباب العالي أن يعفي سموها عن الكرنتينة. في اليوم الثاني حضر القنصل البريطاني

بنفسه و الخلع بذلك الهدية . و لكن بسبب تأخر ثورة من القسطنطينية بقيت في القرنطينة مدة أيام، و في اليوم السابع وصلته الخبر عن انتهاء القرنطينة. و القبول الرسمي من الانتقاء وصل إلى الجهيز عبكتوريت في صورة رسالة فأنزل الرجال على البر و عبروا بالبحور.

حسب البرنامج المقرر ارسلت الأميرة خمسين شخصا في رياسة الحاج عبد الرحمن إلى مكة المكرمة و هم لوسعوا خمسة آلاف روبية مصحوبة أمانة عند القنصلية البريطانية.

خطة سفرها إلى جدة :

كانت تعني الشيخة تريد التوجه أولا إلى المدينة المنورة و من ثم إلى مكة المكرمة و بقي في حلول رمضان المبارك يومان فقط . فلما حضر القنصل و نائبه لزيارة صرحها أخبرتهما أنها تريد أن تقضي معظم أيام رمضان بالمدينة المنورة و لذلك تريد أن تصل إلى جدة بسرعة ممكنة. و أخبرها القنصل أن السيد شريف وجه إليك الدعوة أن تحضر إلى مكة المكرمة أولا و من هناك يرسلك و مرافقيك إلى المدينة المنورة بالتكريم و الاعزاز . و كان قد أرسل خمسة لركوبها و أربعة لحراستها و مرافقيها.

و لكن الأميرة قالت أنها تريد الذهاب أولا إلى المدينة المنورة حسب برنامجها ، و لم تخرج من " بلغلم " مسافات خلال الهند . فتريد التوجه أولا إلى المدينة المنورة ، و رضت للسفر ، لأنها استطيعها من الهند ، مفكورة و لم ترد الاعتراض.

مواجهتها مع السلطان العثماني :

حضر بعض العسكريين و السيد علي بعض الظلام بحضرة الحاكم بجدة و المسؤول الكبير على السفينة لتسلم هدية. و هؤلاء استقبلوا عالية عن طريق نائب القنصل و أخبروها أن السلطان المعظم أكد لحراستها و الاهتمام بها و أمر بإرسال مدفعين و سبعمائة جندي تركي معها.

و لكن لأجل انتقاله من القرنطينة لم تنظر اليخوت من المدينة المنورة فلذا أرسلت الاستقبال بالقطر و أنه لتيسير السفر بسرعة ترسل في ركابها مائتي جندي من جدة و مائتي جندي من ينبع.

في اليوم الثاني ركب المعد الهندي و سليمان آغا بالمركبة مع خمسين و عشرين عسكريا و ٢٦٠ جنديا ، و كذلك الأشراف الأربعة المرسلون من قبل السيد شريف مع خمسة عشر شخصا.

وصولها إلى ينبع :

غادرت الباخرة سيناء جدة يوم الجمعة ٢٠ نوفمبر ١٩٠٣م الموافق ٢٩ شعبان

١٣٢٦ هـ ، و بعد أربع و عشرين ساعة كاملة رست الباخرة في ينبع البحر، و كان هناك الهواء شديدا و تلاطم الأمواج عديدة، ابتلي الناس بالقيء و الفزع و كان مطرحة بعيدة عن البلاغ سبيل فلم يعرف أحد وقوفها و على المسئولين الأتراك هنا رأوا الباخرة جمعوا العساكر و اصطفوا و قدموا اليها التسليم الرسمي علي الميناء و كان القائم بأعمال ينبع السيد مصطفى الشمي جاء إلي الميناء و اجتمع كثير من الناس لاستقبالها، و لقي بها الأشراف من السلطنة و كان أول يوم من رمضان فلم نصم و كانت مسافرة حل لها الفطر.

الإقامة بينبع:

نزلت الأميرة من الباخرة في ميرة ذات صحاب، و لما وصلت إلي الميناء أطلقت ٢١ طلقة من المدفعية و قدموا الجنود المصطفون تحية لها و سلامة.

و أرسلت الأميرة المولوي أعظم حسين و المولوي ذو الفقار أحمد النقوي و المولوي عنايت الله و شكرها إلي ينبع مسبقا حتى يتعين إقامتها هناك، فهم قرروا استضافتها في بيت قرب الساحل وسط مساكن روبية للإقامة.

و كان الحراسة جنود و تلك الرقباء الاهتمام و التكريم من الحراس من الجيش التركي، و كان مصطفى فرحت يلقيا ترسل إلي سموها مبتد الهدية الضيوف و رحالها و تهيرها.

و المسئول الطبي الدكتور الحجيم ميكلوفت و زوجته اللذين رافقاها من الهند رجعا إلي جدة بالباخرة " الكبير " بعد أن نزلت سموها بينبع ثم أقاموا هناك خمسة أيام.

من ينبع إلي المدينة:

في السابع من رمضان المبارك غادرت القافلة الأميرة إلي المدينة المنورة في الساعة الثامنة مشرقة خيرة علي الإبل لقد استأجر مائتا إبل و ستمر الجنود من جدة معها، و زاد الجنود من هنا أيضا ، و كان عدد الجنود الترك أربعمائة سوى المصحوبة.

الإقامة بمسيجلي:

وصلت الأميرة إلي مسيجلي في الساعة الرابعة فأقامت هناك و كانت مخيمة ، و كان موقع مسيجلي علي الجبل الشاهق و كانت مياهها أسمر و طعمها طيب جيد ، و الماء المحول الذي كان في معية القافلة شربها الجميع حتى الحيوانات شربت منه، و لما اقتربت القافلة هناك ضرب الجيش التركي بالبنادق لمراسلتها و نزلت الأميرة بالخيمة، في الساعة التاسعة لها لتلقي التحية خلال ليلتها يصدع بدخول أحد في المنطقة، و كانت هذه الجيش بمحيط قام كل جندي تركي بعد عطية أكرع ، و كان حاملا بندقيته و ظهره إلي القافلة لتحمي الليل بالحراسة.

الإقامة ببئر سعيد :

في اليوم الثامن غادرت قافلة الأميرة في الساعة السابعة صباحا ، و كان الطريق مثل السابق. كان في المنطقة الواحة التي يعتني بها المالكون لها ، و في المنطقة الخارجية لم تعتن بالزراعة . ضربت الخيام قبل بدء المطر . المنزل الثاني لم يكن مثل السابق ، و كان الأرض سهلة بسهول المشي عليها و لم تكن أرض حجرية ذات حجارة صلبة.

في هذا المنزل حدثت حادثة . ذهب الأمير عبيد كلبه مع شبابه إلى جهة القبلة في الطريق ثلاثة أيام . بعض الشعراء قدموا إليه خبزا و بصلا و جبنة . و الأمير قبل منهم ذلك مشكورا ، و من عادة العرب أنه لم يستجب أحد لضيوفهم يستدعون ذلك صدقة لهم ، فطلب منهم شيئا . قال أحدهم : اشتاء للطعام "الله الطيب بصاحبه" . فقرأ الأمير "يرتل من يشاء و هو القوي العزيز" فسألوه هل أنت جائع قال نعم فقدموا له بالرجوع قدموا إليه حفنة التمر.

القافلة ضربت الخيام الأمير لكنه رجع بعد مدة قصيرة فالتقى بالسيد علي الشريف بين عليق الشيطان و السدر لأن المنزل هذا خطير.

توقفت القافلة في بئر سعيد و كان الجسم جاريا حالته كالسابق و الطاقة المطلوبة ، و جاء شيوخ بئر سعيد و طلبوا الهدايا و العطايا و الشيخ طلب له مقدم إليك في الرجوع.

و قال الراوي أحمد حسين إسماعيل "هذه المنطقة هذا المنزل بالراحة و الأمن و في السنة الماضية حدثت هناك حرب كبيرة و مات سبعة أشخاص من القبائل".

الإقامة بعين حمراء :

غادرت الأميرة في ٩ من رمضان من بئر سعيد ، و كان الطريق جبلية وعرا منحنية و صعبة بسبب النمر الشجرة عند المصير و كان بها بترا جافا. و توقفت القافلة عند المغرب في "عين حمراء" و كانت أرضها سهلة صغيرة حولها الجبال ، و اشتهرت بها مواشي الشمس و سبعة قبور و نهر صغير ، و كان عدد السكان قليلا. و قد أرادت الأميرة أن تقيم هنا اليوم و الغد لأن أرضها كانت مخلطة التربة صالحة للسعي ، و لكن حدثت حادثة الطيور وليها و حضرت بالطيور من هذا المكان و الحادثة هي أنهم سمعوا طلقات البندقية في الساعة الخامسة من جهات كثيرة ثم جاءت رسالة شيخ القبيلة إلى مرافق الأميرة السيد شريف أحمد بن منصور و السيد أبو محمد البدوي ، كان المكتوب يشتمل على ما يلي :

"إن كنتم من قبيلة كلب علي فاعلموا أنهم يغيرون بأعداء عديدة بعد صدورهم من هذا المكان و لكنهم بعد

> "بجمعهم لمقابلة البرنس، أعطوا هذا المبلغ و اعتبروا اليوم إضافته مستقبلاً، و أن كلهم من قبيلة [illegible] أرسلوا مندوباً [illegible] و إلا فنحن [illegible] في [illegible] و لا نترك [illegible] القتال".

فاستشارت الأميرة [illegible] [illegible] و [illegible] عدم إعطاء شيء لأن [illegible] إذا علموا ذلك [illegible] يطلبون، و لكن الأكثرية في الركب كانت تريد إعطاء المبلغ المناسب، و كانوا في خوف و رعب. ثم [illegible] [illegible] [illegible] و أكلوا [illegible] و [illegible] بقدر الإمكان.

[illegible] بشر [illegible]

في [illegible] من [illegible] [illegible] القافلة [illegible] الساعة [illegible] صباحاً [illegible] [illegible] و [illegible] طريق [illegible]. و [illegible] من الأميرة و [illegible] حول القافلة، و كان كل [illegible] [illegible] و [illegible] و [illegible] على [illegible].

و كان [illegible] من الجيش التركي [illegible] جبال [illegible] و [illegible] الجنود [illegible] إلى القافلة إذا كانت الطريق خالية من الخطر على [illegible] القافلة بعد ذلك و كانت الجبال [illegible] و لكن الجيش التركي كان [illegible] في [illegible]. و كانت القافلة [illegible] على هذا [illegible] [illegible] الناس بعض [illegible] [illegible] [illegible]. ثم بدأوا [illegible] الطلقات من أعالي الجبال، و [illegible] [illegible] من [illegible] الأمير عبد الله [illegible] [illegible] و لكن الله [illegible] من [illegible] الهلاك، و [illegible] الطلقات الكثيرة من [illegible] الأميرة أيضاً و لم [illegible] [illegible] الله. [illegible] الجيش التركي على الجبل [illegible] [illegible] و كتبت الأميرة في رحلتها (٥):

"في [illegible] ١٩٠٢م وقعت حرب شديدة في نفس المكان [illegible]، و [illegible] كان [illegible] التركي [illegible] جداً".

و ما زال الخوف و الخطر [illegible] الأتراك من أهالي [illegible] [illegible] [illegible]، و [illegible] الأميرة و عبد الله خان من [illegible] الأتراك [illegible] [illegible] [illegible] و لم يبق داع للخوف. و [illegible] الأميرة [illegible] على [illegible] و [illegible] و [illegible]، فقال [illegible] [illegible] و [illegible] في [illegible] و [illegible] و نحن [illegible] [illegible] الملوك في [illegible].

و كانت هنا قرية [illegible] و كان بها [illegible] الماء كثيرة. و [illegible] كان على [illegible] و الجنود [illegible] و [illegible] [illegible] [illegible] الاستراحة [illegible] هناك. ثم وصلت القافلة إلى [illegible]، و كانت قرية بها [illegible] ذات الأشجار [illegible] و كانت [illegible] الأميرة [illegible] و لكنها لم تسترح هناك.

و وصلت القافلة إلى بئر عباس عند الغروب ، و أقامت بمكان رملي واسع، و كانت هناك قلعة بقرب البئر الصغيرة و كانت بها ثكنة الجيش التركي و عددها خمسون جنديا. و كانت الأميرة تريد القيام بالقلعة و لكن الجيش أشار إلى القيام بالخارج في الميدان لأن البدو إذا نزلوا و حاصروا القلعة و أغلق الباب فسنكون محاصرين و قبلت الأميرة هذا الرأي المناسب للنوم في الميدان.

و جاء شيخ القبيلة و قال للأمير عبد الله خان أن [illegible] القبائل و قرابتها اجتمعوا و هم من أولئك الذين أطلقوا البندقية و هم يريدون الهدايا و العطايا و إلا سيعارضون تجاوز القافلة.

فقال الأمير إن الذين أطلقوا النيران و شاركوا في [illegible] الأميرة كيف يستحقون الجوائز و التحف فأجاب أن مطلقي النار [illegible] على [illegible] إن لم يطلقوا. في هذا الأثناء بعث أحمد بن منصور الذي كان مشتركا في حراستهم قال للأمير [illegible] أن لم يعطوا [illegible] لهم [illegible] و على [illegible] إرضاء الأميرة [illegible] . و [illegible] الأميرة [illegible] الكلام [illegible] أن هؤلاء [illegible] يستحقون [illegible] و إن [illegible] بالطريق [illegible] و [illegible] من [illegible] هذا المبلغ . بعد ذلك [illegible] في توزيع المبلغ. و غادرت القافلة في صباح ١١ [illegible] عن بئر عباس و كانت الطريق آمنا.

استقبال القافلة بالجيش التركي :

علم الأمير عبد الله خان من طريق مسئولي الجيش التركي أن بعض مسئولي الجيش و [illegible] و [illegible] حضروا لاستقبال [illegible]. [illegible] الأمير و [illegible] و [illegible] حسين خان [illegible] و قال الأمير أن القافلة الأميرة [illegible] من هذا [illegible] أن [illegible] للاستقبال ، و كان [illegible] [illegible] و [illegible] على مكانتها.

في [illegible] بئر [illegible] جاء [illegible] و [illegible] بها و كانت [illegible] من [illegible] . و [illegible] الأميرة [illegible] أن [illegible] من الوقت.

في ٣ من ديسمبر ٢٠٠٩م [illegible] ١٣ [illegible] جاء [illegible] شيخ الحرم [illegible] بها في الساعة الثامنة صباحا. و [illegible] تم عن طريق الترجمة [illegible] . بعد السؤال عن الأحوال قال إن شيخ الحرم [illegible] . و [illegible] من السلطان المعظم [illegible] كثيرا.

[illegible] الأميرة و قال [illegible] الشيخ أن شيخ الحرم [illegible] أن [illegible] في [illegible] عند [illegible] و هو [illegible] عند السلطان ، [illegible] و [illegible] [illegible] من [illegible].

[illegible] الأميرة [illegible] و [illegible] زيارة [illegible]

في بيت رتبه لي السيد شريف، و إن كان بعيداً عن الحرم و كانت مشقة في الإتيان إليه سوف انتقل إلى بيت الذي رتبت لي.

استقبال حار بالمدينة :

بعد لقائنا بممثل شيخ الحرم نشر الركب الموكب و وضعت الشنطات على الإبل و توجهوا إلى المدينة المنورة و كلهم شوق. و كان الناس يلتقون في الطريق لاستقبال القافلة - و جميع أفراد القافلة اجتمعوا حولها. و الطبول معهم أيضاً. و بعضهم مراكبهم بالكسوة محتشمة - و مراسم الاستقبال و الزينة كان عند باب العنبرية في الساعة الثانية عشرة.

و كان خارج الباب حاكم المدينة حسن مظفر باشا - و معه خزانة الحرم الشريف و هما من أهم مستقبليها - و أصناف الجنود و قدموا التحية بملابس و العلامات الرسمية لجيش و ضاربين طبلة - و كانت ملابسها تشتمل على أفراد بطول ميل واحد. و ذكر الأمير حبيب الله خان أن أفراد القافلة أن لم يعتنوا أن المناسبة تطلبت لاستقبال الأمير ربما ظنوا و تحاربوا فارسل من يخبرهم بذلك و لكنه حصل ما كان في حسبانه و أصحاب القافلة و المرافقون استعدوا للقتال لما سمعوا طلقات المدفعية.

و الجيش الذي حضر للاستقبال كانت فيه مسئولان كبيران و ستة من المسئولين الصغار و مائة و خمسون جنديا.

الإقامة ببئر درويش :

كانت القافلة ببئر درويش بعد العشاء - و في ١٦ من رمضان المبارك سنة ١٣٢٩هـ قافلة تحت مواجهة ضخمة في الصباح الباكر و كانت الطريق آمنة و إن كانت تلال كثيرة في الطريق، و لما وصلت القافلة بئر علي أثار المدينة المنورة - و أهلها مسرورة إلى انتهاء شدة الطريق و كان الجمع يرددون و كانوا يرددون الصلاة و السلام على الرسول صلى الله عليه وسلم و يدل ذلك على سعادة مشاعرهم و كتبت الأمير في رحلته عن ذلك " كنا نشم رائحة ذكية في هذا الميدان تعطر أنفاسنا و لما تقدمت القافلة ظهرت آثار المدينة المنورة جلية واضحا و أكثر أصحاب الركب ترجلوا احتراماً. في الطريق كانت قرى صغيرة و في بعضها مسجد صغير.

الإقامة ببئر عروة :

كانت القافلة عند بئر عروة في الساعة الخامسة ليلا و المكان بعيد عن المدينة بميلين - و الأمير حبيب الله خان ذهب إلى المسجد النبوي للسلام في الساعة العاشرة ليلا.

و كان الجيش مع الطبول و المدافع واقفا لاستقبال لنا - و كذلك ...

المدينة و مشاكلها . و للطالبات الخاصة إحدى و عشرون طائفة ساعدنا عليها،
و تزلمت الأميرة في جدة تصميم خصيصا لها و قابلت فيها مشايخ المدينة.

و قالت الأميرة في وقتنا استقبلنها القائد العسكر العثمانيون و خصوصا السلطات للمدينة على احتفاظه بها و شكرتهما و صدقاتها، و سمعت الجنود الأتراك شكرهم و صلواتهم و حرصهم على حراستها.

و بقيت بعد ذلك المدينة ، و كان على باب المسجد النبوي منتظرين بنفسه و شيخ الحرم و خدمها و مفتيها و غيرهم من المسؤولين الكبار لاستقبالها .
و كانت طريقة الحجاب غير مقبولة و هي صعبت و سمعت على الوصول صلى الله عليه وسلم من البعيد و خوفت أن تزور القبر الشريف في وقت آخر.
و وصلت إلى بيت السيد صافي للقيام به و قد قررت القيام به من قبل.

أهمية الدخول بالروضة المقدسة :

تقدم الأمير عبيد الله خان بايجاز من الأميرة بطلب دخوله هو و الأميرة إلى الروضة المقدسة إلى شيخ الحرم.

للأميرة شيخ الحرم أن دخول النساء غير ممكن و لكنه قدر بشرط إخلاء المكان و المعاملة البيضاء مع القنصلية التركية (وكان ذلك لها في الدخول بالروضة المطهرة).

في ١١/محرم رمضان المبارك دخل الأمير عبيد الله خان و الميرزا كريم بك و الكابتن محمد حسن خان في الروضة النبوية . و قرأوا الفاتحة لوحدهم الخشوع و تم تقديم الروضة إليه الأشياء التي تحيط فيها البركات و ماء الورد التي تغسل بها القبر الشريف.

الإقامة ببيت آخر :

كان بيت السيد صافي بعيدا عن الحرم و كان قصدها بالمدينة المنورة حضورها في الحرم الشريف . و هي رغبت ليجد بيتها عن الحرم انتقلت إلى بيت آخر قرب الباب المجيدي في ١٧/ رمضان المبارك . و كان هذا البيت ملك على الأجرة بعد المولوي أعظم حسين بعد الاستشارة من شيخ الحرم . و تستريح بيت آخر قريبا من مكان القافلة . و كانت أهل شيخ الحرم يحضرون إليها في هذا البيت.

حضورها إلى القبر الشريف :

كان بيت السيد صافي بعيدا عن الحرم الشريف . و كان الحضور إلى المسجد النبوي صعبا، و لكنها لما انتقلت إلى بيت عند الباب المجيدي طالت تحضر معظم الأوقات، و قد رتب لها شيخ الحرم الروضة مقدمة تحضر بعد العشاء.

و لما حضرت الأميرة إلى الحرم لأول مرة كان الاستقبال لها على الباب شيخ الحرم و القاضي و المفتي بها و لجنة كاملة ، و كانت مبرقعة بسلمت عليهم و سلمت عليهم ثم توجهت إلى الروضة الشريفة . و بعد ذلك كانت تحضر كل يوم بعد العشاء . فلا تجد أحدا على النساء.

الهدايا من قبل الموظفين و المشتغلين :

و كانت ترسل إليها دعوة للعشاء في المدينة من قبل أعيان المدينة، أول مأدبة حضرتها كانت من قبل علي زاهد وكيلي و كانت مأدبة فاخرة لم تشهدها منذ أن كانت مقيمة بينبع. و السيد صالح صاحب الأميرة دعاها و أقام كذلك على مأدبة كبيرة و كذلك شيخ الحرم وغيرهم. و كانت المأدبة تحتوي فاخرة لذة قدمت فيها أنواع الطعام الكثير جدا.

شراء الخيول العربية :

طلب الأمير نصر الله خان ولي عهد الإمارة من أمها أن تشتري له خيولا عربية أصيلة . فقد اشترت مجموعة التي عشر فرسا بعضها من الشيخ عبد العزيز بن رشيد النجدي الذي كان في مستوى الجودة العالية و كلفتها المجموعة مبلغا كبيرا . و أصبحت الثلاثة للأمير عبيد الله خان و الباقية كانت من نصيب الأمير حميد الله خان.

طريق العودة عن المدينة :

كانت الأميرة تنوي الذهاب إلى مكة المكرمة من نفس الطريقة التي أتت بها. و لكنها لما استقرت في طريق المدينة بالبحر وصلتها الأخبار أنهم يخشون النهب و التخريب فنصحها شيخ الحرم أن تسافر إلى مكة المكرمة عن طريق البحر مع القافلة الشامية ، و لا يكون خطر النهب فقبلت مشورته مشكورة و أرادت الذهاب عن طريق البحر مرافقة القافلة الشامية و لما استقر رأيها على ذلك توجهت إلى القنصل بجدة أن لا يستغرق المباشرة . و لكنها وصلته بعد أيام المعاهدة مع الحكومة السياسية المصرية على باخرة جدة و أرسل صورة المعاهدة إلى الأميرة.

فرحت الأميرة إلى القنصل عن طريق البرقية أنه تغير برنامج الرجوع فطلبت بإلغاء المعاهدة فورا. و لكن المعاهدة لم تلغ لتغير بذلك طلب القنصل منه ما زارها للاطلاع على أسباب تغير البرنامج.

فأخبرته الأميرة بتفاصيل ما حدث في السفر و ما نصح من المشاهد . و قالت إن شيخ الحرم و غيره يرون السفر بالبر مناسبا لأجل أنه خطورة و ما يحدث من النهب في الحرم المكي.

فأظهر نائب القنصل بتمام المقبولية ، في هذه الحالة تذهب القرابة الخاصة بالأميرة أن الوقت قد طال للتخلص من القرابة ، و ... في هذا الصدد بين الأميرة و القنصل و الحركة الدبلوماسية، حتى قررت الحركة بإسقاط القرابة بشرط السفر عن طريق البر.

و بعد الفراغ من هذه المسألة كتبت الأميرة إلى سعادة القنصل أن يسعى في الحضرة السلطانية لأنه وصلت إلى المدينة المنورة بخير في رعاية العساكر السلطانية و استقبلني شيخ الحرم و محافظ المدينة استقبالاً حافلاً ، لشكركم لذلك و لكن لكي أتجنب في الطريق أريد الذهاب إلى مكة المكرمة مع القافلة الشامية فأقدم الطلب إلى حضرتكم أن تأمروا لمن يلزم أن يوصلني مع القافلة الشامية في المراسم الحكومية و كتبت الأميرة إلى القنصل أيضاً أنه كان مناسباً لو أمر السلطان المعظم من خلال البرقيات التي ... كي تكون المراسم على ... .

في ٢٦ ديسمبر ١٩٠٣م أجاب القنصل البريطاني السفير ... الأميرة أن سفير الإمبراطور ... السابع لدى القسطنطينية أبرق إلى السلطان المعظم بوصولها بخير إلى المدينة المنورة ، و استمرت الأميرة في مراسلتها حتى ... من برقية القنصل البريطاني في القسطنطينية ، و أخبار من الباب العالي إلى شيخ الحرم أن السلطان المعظم أبرق إلى محافظ المحل الشريف السيد عبد الرحمن باشا و مسئول القافلة الشامية باصطحاب سمو الأميرة إلى مكة المكرمة في حراسة ... .

و جاءتها برقية من القنصل و مضمونها - بعد ورود القافلة الشامية تقدم هذه البرقية إلى السيد عبد الرحمن باشا أن الحراسة الكافية تكون ... رغبة السلطان المعظم.

حلول العيد المبارك :

في أثناء هذه الظروف و المسائل انتهى شهر رمضان المبارك و حل العيد، صلى الناس بالمسجد صلاة العيد في الساعة السابعة و صلاة العيد تصلى في البلاد العربية مبكرة . و لم تحضر الأميرة و النسوة في صلاة العيد ... و الأميرات و الرجال حضروا بالمسجد.

في الساعة السابعة حضر المفتي الحنفي و المفتي الشافعي و شيخ الحرم مع ... لتهنئة السيدة ... و مباركتها بالعيد . و قدم المفتي الشافعي للسيدة ... هدية ... و تذكرة العيد . و بعد ... انتقلوا إلى غرفة الرجال و قدمت إليهم القهوة و الحلوى و الشاي.

و بعد ذلك ذهب الأميران عبد الله خان و حميد الله خان إلى مقر الحكومة - و كان به شيخ الحرم و حاشيته . و الجنود الأتراك مصطفين و قدموا السلام لهما ... و عزفوا بالنشيد الوطني . و هنا رجعا إلى بيتهما بعد

هذه المراسم.

و بعد الظهر ذهب الأميران إلى بيت شيخ الحرم و قدمت إليهم الحلوى و القهوة و الشاي التركي و جاءت زوجة شيخ الحرم و الحاكم و بناتهما لمقابلتها في بيتها.

منع التجول للقافلة :

أرسل حاكم المدينة السيد حسن مظلوم باشا مكتوبا إلى الأميرة : " أطلب من سموكم أن تراعي أبواب المدينة جيدا أن لا يخرج أحد من مرافقيك من أي باب من أبوابها لا بقصد الزيارات أو التجول بدون استشارتنا حتى نرسل معه عساكر الأمن ، أما إذا لم يسمع أحد نصائحنا بهذا الصدد و حصل ما قدر الله لا يكون علينا مسئولية ذلك . فأمرت الأميرة أن تبلغ هذا القرار فورا.

هدايا للجنود الأتراك :

قدمت الأميرة بتوسط حاكم المدينة السيد حسن مظلوم باشا ألفي روبية على الجنود و الضباط الأتراك .

مسألة المزوِّر :

عينت الأميرة محمد عبده مزوّرا لأهل بوبال و لكنه جاء شخص آخر حامل رسالة من شريف مكة يشفع فيها له أن يعين مزورا و كان اسمه أبا الجود. فقالت الأميرة لقد عينت من قبل محمد عبده مزورا و لو أعينه فيكون لمستقبله ، و لكنها خافت من شريف مكة فعينته أيضا على ثلاثين روبية و قالت له كن مزورا للأهالي بوبال الآخرين الذين يأتون للحج.

شراء الإبل :

عندما تقرر أن الأميرة سوف تسافر مع القافلة الشامية فكرت مجموعة في ترتيب السفر و أمتعة الإبل ، و علمت أنه إذا لم تحصل عليها مسبقة ستكون مشكلة و لا يمكن السفر مع القافلة الشامية . فراسلت حاكم المدينة بهذا الخصوص - و تكلمت مع شيخ الحرم فأحيل الشيخ إلى الأمير عبد الرحمن باشا أمير القافلة الشامية أن يشتري بخمسين جملا يكون ثمن كل منها ستمائة و خمسين روبية.

القافلة الشامية بالمدينة :

في ٢٤ من ذي القعدة سنة ١٣٣٦ هـ وصلت القافلة الشامية إلى المدينة المنورة و كانت تأتي بمحمل الكعبة (كان يقال له المحمل الشريف) و كان يوضع في صندوق كبير يحمل على جمل قوي الهيكل ، و جمل آخر مرافق له عليه

للشارة العثمانية و كانت ثلاث ليال للبيرق. و هذه القافلة مع موظفيها و أصحابها الذين انضموا إليها من المدينة وصلت الحرم النبوي عند باب السلام في الساعة الحادية عشرة مع المدفع الثاني و على أصوات الطبول ، و كان عند الباب مكان مرتفع أنيخ الجمل عليه و الصندوق الذي بالمسجد النبوي و كان الجمع محتشدا و كانوا في حالة مستبشرين ، و بقي الجمل بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة إلى حين وقت القافلة بها.

تعيين من البيرق :

أرسلت الأميرة السيد عبد الرزاق خان كاتب مجلس شرف الحج إلى عبد الرحمن باشا أمير القافلة الشامية للاستفسار عن أمور الجمال و تموين القافلة و غيرها و لما وصل القاصد إليه رأى أن المهدي ملتقى بالبدو الذين تجمعوا من حول المدينة و شيوخهم بداخل الخيمة و ما دار من حديث بينهم و بين السيد عبد الرحمن باشا، كانت خلاصته ما يلي :

- قال شيخ ، نكون طلبة كبيرة و أصحابنا مستعدون و مسلحون ، فقال السيد عبد الرحمن بدون اكتراث : القافلة عليكم لا علينا . فقال شيخ بجرأة غير معقولة و هذه القافلة لازمة و لا يمكن أن تسافر الهدية معكم . فقال السيد عبد الرحمن أن الهدية لابد أن تذهب و لو على رؤوسكم. أو لا تعلمون أنها هدية السلطان المعظم و أمرت بحراستها و ما كنت أقول من قبل السلطان و أيها أعطيتم السلطان تضرب قراكم و تحرق بيوتكم و الجمال التي تأتون إليها غير من الأصحاب. ثم قال ما معناه سترون كيف تكون أوامر السلطان.

فتمتم الشيوخ بأدعيتهم باسم السلطان و قالوا مولانا السلطان على الرأس و العين نحن لا نعارض السلطان و لكن نسأل منكم لا تخصصون معاشنا و نحن فاقة من البدو.

فقال السيد عبد الرحمن أنا أشفع لكم عندها في هذا الصدد و إذا أعطيتم شيئا لا تعترضوا على ذلك. و بعد ذلك ذهب الشيوخ ، و رجع السيد عبد الرزاق خان بعد الاستفسار عن الأمور الضرورية.

من الحرم النبوي إلى الحرم المكي :

و بعد مكثها بالمدينة مدة مثلية و ضمنة قبل مغادرتها المدينة المنورة . في ٢٣ من ذي القعدة سنة ١٣٢٦هـ الموافق ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٠٨م أدت الأميرة و أصحابها و سلموا على النبي صلى الله عليه وسلم و خرجوا بعد العصر من المدينة المنورة مع القافلة الشامية ، مرورا من ذي الحليفة ثم قاصد بئر علي ، في يوم ٢٥ من ذي القعدة تحركت القافلة إلى مكة المكرمة. و كانت الطبول مثل طبول ينبع و المدينة المنورة و الجيش من القافلة الشامية و غيرها و كان السيد عبد الرحمن الحاكم لم يكن و لا هو راضيا.

في المنزل التالي جاء السيد عبد الرحمن الأمير حبيب الله خان و أخبره أن شريف مكة سجن شيخ بني سعد و قال له أن كان في صعوبة أو خلل في الأمن في مسيرة أميرة بوبال فليقل ذلك و هذا كلام ظاهري و هو يريد أن يسمي مستحقي ظاهرة هذه القرية التي يعلمون شيئا و اعتقد ان منزل القوم فيه خطر شديد.

و ذكر الأمير حبيب الله خان خطة لحفظ الأميرة ثم أخبر بتلك تعيين القافلة الشامية لتصحبها هي أيضا، و هو أن تنزل جمل الأميرة خاليا و لا يعلم ذلك سوى مستخدميها و يحرس هذا الجمل كالمعتاد و هي تركب على جمل. أخير و يكون آخر القافلة و بعد ذلك تذهب القافلة إلى مكمن المطرات و كانت هذه الخطة ناجحة جدا و لم يمر عليها أي خطر و أطلقوا على مركبة الرسمي طلقات كثيرة و رمت الجنود الأتراك النيران و كان العدو يطلق من قمة جبل يصعب الصعود عليه.

و أمر قائد الجيش التركي جنوده على صعود الجبل و بدأوا يصعدون عليه بجنون و جل و خوف و كانت الجبل مستقيما و كان العدو وراء الجبل فلم تؤثر البندقية إلا بعد حين و استمرت المعركة قرابة ساعتين و استشهد سليمان آغا من جنوده جدا و قتل بعض أفراد المسلحين أيضا و التي القافلة كانت في حفظ و أمان.

أما البدو المسلحون لم يقدروا القافلة وقتئذ طريقا مهربا و في هذا الأثناء وصلت الجنود على قمة الجبل و ذهبت القافلة بهدوء و راحة و كان الطريق الباقي من سكون و عافية.

الدخول بمكة المكرمة:

في ٦ من ذي الحجة الموافق ٢٣ من فبراير ١٩٠١م دخلت قافلتها بمكة المكرمة.

وجاء حاكم الحجاز أحمد راتب باشا و شريف مكة عون الرفيق باشا مع مجموعة من الجنود الأتراك إلى مقام الشهداء لاستقبالها. و قدم إليها السلام العسكري و جلست بها مع الاحترام و الإكرام إلى مقام إقامتها في بيت الأستاذ أحمد آغا.

و أرسلت ابنتها الأميرتين إلى بيت حاكم الحجاز و أمير مكة للقاء بهما. في أثناء إقامتها بمكة المكرمة السيد شريف و عبد الرحمن باشا حاكم بمجلس و أحمد راتب باشا حاكم الحجاز و الشيخ محمد صالح الشيبي و السيد علي باشا و باشا المصريين جاءوا مع زوجاتهم للقاء بها و الأميرة بدورها ذهبت إلى بيت السيد شريف و السيد أحمد راتب باشا.

أداء مناسك الحج:

ذهبت الأميرة إلى الحرم الشريف لطواف القدوم و السعي لأداء مناسك

الحج . و ذهبت إلى عرفات في الثامن من ذي الحجة و حضرت يوم التاسع من ذي الحجة ثم رجعت إلى مكة المكرمة في ١٢ من ذي الحجة بعد أدائها مناسك مزدلفة و منى.

قضية أجرة البيت :

السيد شريف كان طالبا من الأميرة إلى الآن و لكن لأجل كرم السلطان المعظم و معاملة الأشراف الخاصة بها لم يجد شيئا يبدي عليه لطلبه .

و لكن لما قررت الأميرة تاريخ الرجوع في ٢٠ ذي الحجة الموافق ٨ من مارس ١٩٠٤م ، طالب السيد شريف حقوقها من طريق نائب القنصل ٥٠ ألف روبية أجرة البيت الذي أقامت فيه بضعة أيام.

و لكن المبلغ الذي استلمته قد نفد ، و كانت مع الأميرة رسالة من ناظر ماليتها سمو عبد الغفار ويحضرها أن وكلاءه يقدمون إليه المبلغ عند الطلب. طالبت المبلغ منهم قالوا لا يمكن اليوم و لكن نعطي بعد يوم أو يومين . و من جهة أخرى بدأ السيد شريف إصراره على تأدية المبلغ فورا و تعبوا أعوان القنصل اليوم جميعا و أخبرته عن التفاصيل و قالت أن سفر اليوم تأجل لأجل هذا السبب و ربما لا أقدر على السفر بدون تأدية المبلغ و لذلك يجب أن تحرر مكتوبك إلى السيد شريف لن يؤدي المبلغ من طرفك و لنا نرسل إليك المبلغ فورا.

فقدم موظف القنصلية هذه البرقية إلى حاكم الحجاز و قال مثل هذه التحكمات عار على السلطنة العثمانية و لم يتوسل إلى القنصل البريطاني جميعا. ثم أرسل إلى الحاكم محضرا إليها ، طلب المعذرة منها و قال إن السيد شريف يؤذي نفسه و الآخرين و ثبت حجة على السلطان لو علم تقدم بالغضب و لذا تقترح جميعا لكم على الأميرة قرب الحرم و تكون لنا وساطة رسالتك إلى السيد شريف لذا ، لا يمكن مطالبة الأجرة منك و لا يقوى على طلب أحد.

في اليوم الثاني استلمت الأميرة مبلغا من عبد الغفار المتحير قائلا إلا أن تؤدي شيئا عوضا عن قيامها في بيته فأرسلت خمسة عشر ألف روبية إلى الحاكم و كتبت أن يرسل المبلغ إلى السيد شريف كله أو جزئه كما تراه مناسبا. و لكن وجب علي أن أؤدي أجرة الإقامة.

و لكن الحاكم لم يقبل المبلغ و رجعه إليها قائلا إن أخذ أي فلس كأجرة البيت يكون عار للسلطنة العثمانية (٢)

المغادرة من مكة :

في ٢٢ من ذي الحجة الموافق ١٠ من مارس ١٩٠٤م. غادرت الأميرة و حاشيتها من مكة إلى جدة و نظم حاكم الحجاز أحمد راتب باشا قافلة محفوظة للرجوع و أرسل على نفقته جماعة معها و كانت تشتمل ٢٢٢ مسلحا و جنديا.

في " بومباي " أخلي بيت شكالمت به و تكتب الأميرة في رحلتها. [٨]
" في الرجوع من مكة شعرنا بشدة فيأتلف ... أن راحة هذا البيت ليست أقل من قصر منزلي [قصر الأميرة بهوبال].

الوصول بجدة :

في ٢٣ من ذي الحجة الموافق ١٦ من مارس دخلت الأميرة بجدة مساء، و كانت باخرة "أكبر" موجودة على الميناء لها أن تقلع بجدة حتى ركبت هي و ابنها على الباخرة ، أما الموظفون و الأمتعة فصعدت إلى ١٣ من مارس.
تبرعت الأميرة من طريق القنصل البريطاني إلى عبد الرحمن باشا و علي باشا و أحمد راتب باشا و الشريف عون الرفيق باشا، و استلمت الهدية البرقية أيضا

المغادرة من جدة :

في ٢٧ من ذي الحجة الموافق ١٣ مارس يوم الأحد بعد العصر رفعت الباخرة مرساتها و غادرت جدة ، و كان في التوديع القنصل البريطاني لدى جدة و السيد جريس ... و نائب القنصل بجدة الدكتور محمد حسين.
في ١٧ من مارس ألقت الباخرة مرساتها بميناء عدن و لكن بسبب تفشي الكوليرا بالباخرة لم يسمح لأحد بمغادرتها. عند المغرب غادرت الباخرة من عدن إلى بومباي ووصلتها في ٧ من محرم سنة ١٣٢٢هـ الموافق ٢٣ مارس ١٩٠٤م.
أبرقت الأميرة الوكيل السياسي بهوبال المستر ... و ابنها الكبير نصر الله خان عن طريق البرقية من عدن عن الوقت التقريبي لوصولها إلى بومباي، فهيأ رحلا مع أصحابهما إلى بومباي.
وصلت الباخرة إلى ... و لم يسمح لها بدخول الميناء حسب القواعد الصحية و تمكن نصر الله ... أن يصلوا إلى الباخرة عن طريق الزوارق و التقوا بها.
في صباح ٢٦ من مارس يوم السبت تقدمت إلى الميناء ، و في ... تزاحمت على البر بعد ... و أطلقت المدافع ... و كانت فرقة الحرس للسلام عليها مع طبولها موجودة على الرصيف فسلمت عليها ثم أطلقت المدافع.

الوصول إلى بومباي :

... الأميرة قرابة أربعين شخصا من ... و أرسلت البقية مع ابنها عبيد الله خان إلى بوبال بقطار خاص.
و ... بومباي في حالة ... في أثناء إقامتها هناك زارت المدرسة ... و ... و ... الذي كان ... و ... هناك أيضا.

استقبالها ببوفال :

في ٢٦ من محرم ١٣٣٢هـ الموافق ٣ من أبريل ١٩١٤م غادرت بومباي بقطار خاص إلى بوفال . في اليوم التالي أي في ٤ أبريل وصل القطار إلى بوفال في الساعة الثالثة ظهراً. و كانت المحطة حافلة بأمراء بوفال و أعضاء الحكم بالإمارة و أعضاء المجلس التشريعي و الشعب كله خرج لاستقبالها و الترحيب بها.

الأمير نصر الله خان الذي رجع إلى بوفال قبل قدومها زين المدينة بزينات جعلتها كالعروس.

الأميرة قبلت سلام المستقبلين بمحطة الانتظار . ثم ركبت العربة الأميرية و توجهت إلى "صدر منزل" قصرها مع مرافقيها و قبلت سلام الجنود و تحيات الشعب من الرجال و النساء و الأطفال الذين اصطفوا في صفين ، و تمت حفلة بصدر منزل لمناسبة تشريفها للقصر و الليلة و تنور القصر بالأنوار.

تبركات الحرمين الشريفين :

التبركات مثل أجزاء من غلاف الكعبة و غيرها التي جاءت مع الأميرة و وصلت إلى بوفال في ٥ من ربيع الأول يوم الجمعة على محطة بوفال فاستقبلت تبركاتها بإجلال ، ثم وضعت مع الاحترام اللائق بها في مسجد (مسجد الموتي) في ولاية ... (و كان المسجد يقع قريبة من قصرها و كان مبنيا من الحجر الأحمر الجميل) و أقيمت فيه حفلة ... من مستقبليها. و جاء الرجال ... و النساء ... و حضرت الجنود و الشعب. ثم أرسلت هذه التبركات إلى المسجد الأصلي ، و تصدقت الأميرة على الفقراء و المساكين ، و وجهت الدعوة إلى الرؤساء و الأمراء ، و وزعت بين ... و ... و النساء ... و الكتب الأوردية و العلماء ... و ...

في اليوم التالي ... المحطة ، و ... بوفال ... حتى ... المدينة بأكملها.

التعريب : محمد حسان خان

المراجع :

١ - الكتاب ... للوالدة سلطان جهان بيگم ص ١٠

٢ - نفس المصدر ص ٢٦

٣ - روضة الرياحين ج ١ ص ٢٨

٤ - رحلة الحج للوالدة سلطان جهان بيگم ص ٣٩

٥ - نفس المصدر ص ٣٤٤

٦ - نفس المصدر ص ٣٤٣

٧ - نفس المصدر ص ٣٤٥

٨ - نفس المصدر ص ٣٤٦

الحلقة الثامنة و الأخيرة:

ندوة العلماء عبر التاريخ

بقلم: الأستاذ سالم الندوي
أستاذ بدار العلوم ندوة العلماء – لكهنؤ

إنجازات هذه الحركة الندوية و آثارها

إصلاح المنهاج الدراسي

كان بناة ندوة العلماء و قادة فكرتها ينظرون إلى مناهج التعليم و برامجه كأداة للتعليم ثابتة القدم و التطور خاضعة لحاجة كل عصر و متطلباته، و لم يكونوا ينظرون إليها كآلة جامدة لا مرونة فيها، و في مقدمتهم بالخصوصية الكاملة و الإيمان الصادق، و كانوا يرون أنه لما حصلت الحاجة في العصر العباسي - حين ازدهرت العلوم و الفنون و الفلسفة اليونانية - إلى إدخال الفلسفة و المنطق و الهيئة و الرياضيات في المنهج الدراسي الديني، أدخلوا ذلك و هم مقتنعون بذلك، كذلك نحن في أمس الحاجة في العصر الحاضر أن ندخل في منهاجنا التعليمي العلوم و الفنون الغربية و اللغات الأوروبية، كي يطلع علماؤنا على مرجعيات العصر و نزعاته، فيبرز ابن رشد جديد و ابن حزم جديد و غزالي جديد و رازي جديد، و تستطيع أن تهزم الأعداء و تحبط مؤامراتهم بنفس الأسلحة التي يهاجمون بها و نفس الطريقة التي يسلكونها.

فقد كان من أهداف ندوة العلماء و مشاريعها التعليمية و الإصلاحية إصلاح النظام التعليمي الإسلامي و تطويره على مبدأ الجمع بين القديم الصالح و الجديد النافع، و تحديد مناهج التعليم تحديدا يتفق و حاجة الإسلام و الدين في العصر الراهن و ظروف التطورات المتجددة و يكون جديرا بتخريج كفاءات و مواهب تحتاج إليها الأمة الإسلامية في العالم المتغير الحالي.

و لم تزل جمعية ندوة العلماء تسعى لتحقيق هذا الهدف النبيل بطريقة و أخرى، و تدعو رجال المدارس الدينية و القائمين عليها إلى تطوير المناهج

الدراسية تطويرا يحقق متطلبات العصر و حاجات المجتمع الهندي ، و تعطي اهتماماتها الشخصية الهامة ، مما كان له الأثر الكبير في إثارة هم المسلمين و إثارة عقولهم و استهواء مختلف الفئات و الطبقات و الشخصيات على اختلاف التوجهات و الاتجاهات و الجمع بين العلماء القدامى و المثقفين العصريين ، و رجال الدعوة و الدين و رجال الصحافة و الإدارة . و لقد نجح كثير من أعضاء جمعية ندوة العلماء غير أن التعديل اللائق في المناهج الدراسية التي كانت تنشدها ندوة العلماء لم يتحقق بعد على المستوى المطلوب ، و أن المناهج التي كانت قد تمكنت من القلوب القوية من قرون و أجيال و تملكت بمجامع عقولهم و جرت فيها مجرى الروح و الدم لم تكن لتقبل التطوير عن طواعية و سهولة و يحل محلها منهج آخر ، و بقي أمر التطوير و التعديل يتأرجح بين التصديق و التأجيل.

تأسيس مدرسة مثالية :

فأخيرا ، بعد تجربة طويلة ، و بعد ما لاقوا عقبات جديدة ، أدرك القائمون على حركة ندوة العلماء أن الغرض من التعديل و التطوير لا يتم إلا إذا أسسوا مدرسة مثالية جامعة ، يجربون فيها منهجهم الدراسي تجربة عملية ، فأسست "دار العلوم التابعة لندوة العلماء" في لكناؤ عاصمة الولاية الشمالية عام ١٣١٦هـ - ١٨٩٨م ، و جعلوا أساسها على حد تعبير سماحة الشيخ الندوي :

"على مبدأ الجمع بين القديم الصالح الذي لا يتغير ، و بين العلم النافع الذي لا يتقيد ، بين صلابة الدين في الثبات على العقيدة ، و بين مرونة التجديد في اقتباس العلوم النافعة ، فبينما العالم الديني في عقيدته و عبادته جبل ثابت ، إذا هو في علمه و دراسته و ثقافته نهر عذب جار ، و بينما هو في نصوص الدين و عزائمه مرابط على الثغر و حارس الأمانة ، إذا هو في توجيهه و دعوته جندي مهاجم و مصلح على أحدث طراز ، و بينما هو في الأول لا يعرف المهاودة ، إذا هو في الثاني لا يعرف الجمود و الخمود"

فلما تم تأسيس هذه المدرسة المثالية الجامعة بدأ فيها المنهج الدراسي الذي وضعته ندوة العلماء . و قد كان العلامة شبلي النعماني قام مسبقا بوضع "مشروع دار العلوم" و تحديد مواصفاتها متمثلا في مشروع محكم الطراز ، بارز الملامح ، واضح الأبعاد و المقاصد ، بحيث إن نظرة واحدة عليه لتدل على أن "مستقبل الهند كأنه قائم في يد كبير بمخططاته". (١)

كما أن الشيخ محمد علي المونكيري قام بتخصيصات مختلفة و محاولات مشكورة لقد كتب في التقرير الرسمي عن الاجتماع الأول المنعقد في كانفور

عام ١٨٩٣م ، و قال فيه :

> "إن القصد من تهيئة إقامة ندوة العلماء تعديل مناهج التعليم و أساليبه تعديلا يمهد الطريق لازدهار العلوم الإسلامية و يصلح الطلبة و يقوم الأخلاق." [٢]

و قال في كلمته للاجتماع الثاني المنعقد في لكناؤ عام ١٨٩٥م:

> "إن أولادنا ملتحقين بالمعاهد الرسمية بمقتضى الظروف الراهنة - و يتعرضون - بطبيعة الحال - إلى انحطاط في الإيمان و الأخلاقية، فهل إن فتاوى العلماء بتحريم تعلم اللغة الإنجليزية تقدر على أن تمنعهم من ذلك ؟ لا و كلا ، نحن لا نستطيع أن ننقذ جيلنا الجديد من شر جهلهم إلا بوضع منهاج جديد للتعليم و التربية." [٣].

و كتب بحثا قيما في عام ١٣١٦هـ عن تاريخ المناهج الدراسية و استعرض فيه التطورات التاريخية التي مرت من خلالها هذه المناهج في كل دور ، كتب فيه:

> "إن هذه التطورات كانت قائمة منذ عهد الإسلام و كان ذلك من مقتضيات العقل فلا مبرر للاستغراب إذا عدلت هذه المناهج تعديلا لائقا تدعو إليه الحاجة." [٤]

و وضع بهذه المناسبة مشروع المقرر الدراسي كان في الواقع خطوة ثورية جريئة و كانت موارده دراسيا ثوريا بالنسبة إلى "الدرس النظامي" المقرر الدراسي آنذاك ، فقد عمم فيه نظام "الدرس الانتقائي" يقسمه في طول البلاد ، و روعي فيه في اختيار الكتب بوجه خاص أن تكون هذه الكتب كفيلة بإعداد متخصصين و موظفين يحتاج إليهم المجتمع في العصر الراهن. [٥]

و هنا يجب ذكره أن العلامة شبلي النعماني أبرز مؤسسي ندوة العلماء، قد رفع صوته عاليا بإصلاح المناهج و توسيعها و تطويرها ، و طالب تطابق "الدرس النظامي" و أبرز أهمية إصلاح المنهج الدراسي و إدخال التعديلات اللائقة فيه، و وضع في ذلك بحوثا و مقالات قيمة في "مجلة الندوة" و عدا به دعوة متوجهة في أحاديثه وخطاباته ومحاضراته. يقول في إحدى المناسبات:

> "إن جملة العلوم اليونانية التي ليست علومنا الدينية و لا يتوقف عليها فهم ديننا و معرفته قد فقدت اليوم قيمتها و لا خطر على الإسلام اليوم منها ، و قد احتلت مكانها علوم حديثة و فلسفة جديدة و دراسات و أبحاث جديدة ، و قد أصبح

من المصريين أن يطلع ملاحظته على الأبحاث الجديدة و العلوم العصرية الحديثة (يقصد) علوم المستشرقين الحديثة، و ليبرهنوا على المسلمات بأدلة علمية مؤسسة على الدراسة و التحقيق." (٦)

و قد واجه في تلك مشكلة عديدة، حيث عارض هذه الفكرة الجديدة على ذلك الوقت ثلة من العلماء الذين رأوا في هذه الفكرة و هذه الدعوة خروجا على الدين، و ثورة على التقاليد المألوفة، و ما وضعت أهدافه من مناهج تعليمية و دراسية. و هذا شأن كل حركة جديدة و دعوة جديدة تريد أن تحلق في الفضاء و تصوب شكلها بصورة منهجية، فقد سبقت المدارس و [illegible] الثقافية شيئا فشيئا، و أجرت تعديلات هامة و إصلاحات جذرية كافة في المدارس المنتشرة من حيدرآباد إلى بهاولبور، و أسهمت في مدارس الولايات المتحدة و ولاية بيهار و أقسام العلوم الدينية و الشرقية في جامعات جمهورية الهند.

و كانت الحكومة سبقت النعماني في أكثر قضية تحسين المناهج الدراسية، و لفت إليها أنظار العلماء و الباحثين لأول مرة قبل أن تقوم ندوة العلماء في "ملتقى رحلة إلى مصر و سوريا" سنة ١٣٠٩هـ - ١٨٩٢م، و التقى بعدد كبير من أدباء العرب عن كثب و قطف النتائج على المناهج الدراسية المتبعة في المعاهد الدينية القسطنطينية و مصر بجانب الهند، و أسهم على المنهاج المتبع في جامع الأزهر. و تمكن بعد هذا التنظيم التعليمي لا يستطيع أن ينجب علماء يواجهون تحديات العصر، و بناء على ذلك أن يجتمع [illegible] و المنهج و يتبنى آثارها الجيدة، فقد ابتدأت تحت تأثير دعوة العلامة شبلي النعماني الحركة الإصلاحية لجامع الأزهر بعد سفر العلامة بعدة أعوام في عام ١٨٩٩م و كتب العلامة السيد رشيد رضا المصري عدة مقالات و بحوثا جامعية نشرت بجريدته الموقرة "المنار" تباعا، و يشير في "المنار" العدد ٣٠ من جمادى الثانية ١٣٢٢هـ لحركته الإصلاحية هذه ثلاث شخصيات هذا بارزة:
الشيخ محمد عبده، الشيخ شنقيطي المغربي، و العلامة شبلي النعماني الهندي. (٧)

و قد كان العلامة شبلي النعماني موقعا قياديا بندوة العلماء و دار العلوم التابعة لها، حيث كان يعد ذلك العامل الوحيد للانطلاقة السليمة في العصر الراهن، و ساهم مساهمة ملموسة في ترقية دار العلوم، و تسنى المواهب في مثل التجديد و التحديث في استقلالية المعنوية التي كانت تقام في مجلس الهيئة العلمية، حتى فوض إليه الإشراف على الشؤون التعليمية لدار العلوم ندوة العلماء. فأدخل اللغة الإنجليزية في المقررات الدراسية، رغم المعارضة الشديدة - و خصص حصة لدراسة اللغتين الهندية و السنسكريتية لكي يطالع طلابنا مصادر الملحدين بالكفاءة في هاتين اللغتين. (٨)

يقول الأستاذ أنور الجندي :

"إن ندوة العلماء التي كان العلامة شبلي النعماني أبرز مؤسسيها و رئيسها لفترة طويلة قد استطاعت ، كما يرى الأستاذ مسعود عالم الندوي ، أن تقضي على الخطر الذي يهدد الثقافة الإسلامية حول منهجين أحدهما تقليدي و الآخر غربي ، و أن تدعو إلى منهج معتدل في التعليم و الثقافة يحفظ الشخصية المسلمة على الأخلاق و الآداب الإسلامية الصحيحة ، و أن تكون جيلا من الشباب متضلعا في علوم الكتاب و السنة و اللغة بجانب العلوم العصرية و اللغة الإنجليزية حتى يكون أهلا لتلبية الواجب الديني و العمل على الحصن بما يرجى من الشباب المسلم في هذا العصر." (٤٢)

كما أن العلامة شبلي النعماني عني في عهد إشرافه بدراسة اللغة العربية الحديثة و دراسة علم الكلام و العلوم الجديدة مثل الفلسفة الحديثة و علم الطبيعة و الرياضيات و أدخل كتاب "الدروس الأولية في العلوم الطبيعية" طبع ببيروت و رسالة فارسية في الهيئة الجديدة طبعت في القسطنطينية لتدرسا في المقررات الدراسية ، و استخدم لذلك بعض من كانوا يتقنون اللغة الإنجليزية أمثال أستاذ حميد الدين الفراهي و البروفيسور ميرزا هادي و غيرهم.

و اهتمت ندوة العلماء بتدريس النصوص القرآنية بصورة خاصة و قررت دراسة القرآن الكريم مباشرة متنا و تفسيرا و إعجازا و تفسيرا ، و الحديث نقدا ترجمة فقها و تزكية ، على العكس مما كان سائدا من التمسك و التركيز في تدريس الحديث على المباحث الفقهية و الإسهاب في بيان المذاهب الفقهية و المسائل الفرعية على حساب ما يتعلق به الحديث من فقه و تزكية و تربية و تهذيب ، كما أنها حذفت الفلسفة اليونانية التي طغت أخيرا على المناهج الدراسية في الهند و إيران ، استنزفت قدرا كبيرا من الذكاء و القوة و العقلية من غير جدوى و بدون طائل و باعث.

و ركزت ندوة العلماء عنايتها بتعليم اللغة العربية قبل تعليم قواعدها و دراستها كلغة حية قريبة من أغنى لغات العالم و أكثرها حيوية يتكلم بها و يكتب فيها ، حتى قامت في ذلك معاهد الهند و مدارسها بالاقتدار أبنائها النجباء على هذه اللغة كتابة و خطابة و تأليفا و تصنيفا حتى شهد لهم أدباء العرب بالإجادة و الإبداع و الابتكار.

الاستقلال الذاتي في المقرر الدراسي :

كانت ندوة العلماء تتجه إلى إعداد منهجها الخاص حسب الحاجات في

الهند و الظروف المتغيرة ، و تطوير المناهج الدراسية في نظام التعليم الحديث فيه ، فكرة للمسلمين في استيراد الكتب الدرسية من الخارج ، و حاجة للاكتفاء الذاتي في الكتب الدرسية حسب متطلبات المنهج الدراسي ، فقام أبناء الندوة بوضع كتب دراسية تسد حاجة العصر ، و تلائم الذوق الأدبي المتطور من المرحلة الابتدائية إلى المرحلة العليا . فتبنت الكتب الدراسية التي أعدها الندويون ، في الجامعات و الكليات العصرية التي تشرف عليها الحكومة ، بجانب مئات من المدارس الدينية التي تبنت التطوير في المنهج التعليمي ، و أن هذه الكتب الدراسية جامعة بين العقيدة و العلم و الأدب ، لأنها تضم مواد قراءة نزيهة تتحدث عن الحركات الإسلامية في الهند ، و سمو الفكر و الحياة النبيلة ، و الذوق الأدبي النزيه المتطور عبر الأجيال . كما أن أبناء الندوة قد نقلوا الفنون العربية الإسلامية التي كانت تدرس حتى الآن باللغة الفارسية ، فقدموا سلسلة من المؤلفات في هذه الفنون ، يراعون في ذلك الذهن المتطور للطالب في الهند ، و قوة حفظه و وعيه ، و المشاكل و الظروف التي تهم في ضوء الحياة المتطورة المتغيرة . فقد كانت كتب المتقدمين تكشف مسائل من نحو و صرف و لم تكن مواجهة إليها حساسية ، فجاء منهج جديد بعد المواجهة و يسهل عملية الاستيعاب و التمرين و الوعي للطلبة ، و من هنا قام أبناء ندوة العلماء وضعوا مؤلفاتهم في الصرف و النحو و الأدب و الإنشاء و التاريخ و الجغرافية و السيرة و الكلام و الحديث و الفقه و غيرها تأليفات قيمة تتوازن بمراعاة المتطلبات الجديدة بجانب ملاحظة لأذواق الطلبة و مستوياتهم ، و لاتزال أغلبها داخلة في المنهاج الدراسي الجاري في دار العلوم ندوة العلماء و غيرها من المدارس الإسلامية في الهند و خارجها ، إما دراسية أو مطالعة.

تقلب الزمان :

ظلت ندوة العلماء مستمرة في سيرها حسب مستقبلها بمجهوداتها و كفاءاتها و مواهبها على تحقيق هدفها المنشود ، و ظل الزمان يشهد حركات و تطورات واسعة و تغيرات و تطورات هائلة إلى أن أصبح للعلماء الذين عارضوا في البداية دعوة ندوة العلماء إلى إصلاح المنهاج و إدخال التعديل في المقرر الدراسي العربي و اعتبروا التحول عن التعليم و نظم التعليم و الانحراف عنها تهدد خطرا جريئا من التحريف و نوعا من البدع ، فصاروا يطعنون في فكرة ندوة العلماء و دعوتها إصلاح المنهاج و تطويره بل و يحاربون ضدها و يخاصمون لها ، فلا ريب مما تم عليه الاتفاق في اجتماع "جمعية العلماء" المنعقد في ٩-٣-١ ربيع الثاني عام ١٣٦١هـ من القرار بتأييد معهد دار العلوم بديوبند -

* يشعر هذا الاجتماع لجمعية العلماء بالحاجة الملحة إلى إدخال الإصلاح و التعديل على المنهاج الدراسي السائد في المدارس

> العربية الإسلامية وفق متطلبات العصر الراهن . و يجب على الهيئات التعليمية و القائمين على المدارس العربية أن يهتموا . بالتطوير و التحديث و تأليف لجنة ما . ووضع مقرر دراسي في العلوم كافية يتحقق التدرج و المرحلة في المتطلبات الراهنة مع الإجادة و الإتقان في العلوم الدينية . و على جمعية العلماء أن تتشاور في ذلك أصحاب العلم و الفضل و تشغل بمشروع وليد ممكن خطوة عملية مؤثرة : [٢٠]

الخطوة . إن الشيء الذي كان موضع النقد و الاعتراض و عرضة التنديد و الاستنكار في حين من الأحيان إنما أمكن له أن يكون مثار الإعجاب و التقدير و موضع الاستحسان و الترحيب بعد مرور هذه المدة الطويلة.

منهج دراسي متطور:

و حيث أن ندوة العلماء تشق طريقها حسب الأوضاع الحديثة و الظروف و الاتجاهات المتغيرة . و تؤمن بالتطور في العلم و الأدب و التحرر في الطريقة و السليقة العلمية و تعين - بتعبير أصحاب هذه الحركة الفكرية - "فكرة الجمع بين القديم الصالح و الجديد النافع" و "بين التصلب في الأصول و الثوابت. و التوسع و المرونة في الفروع و الآليات" فإنها لا تعني أن منهج دراسي منهجا بالبتة غير قابل للتغيير . فيمكن نظام التعليم فيها بالتغيير و التعديل حينا لآخر.

هذا . و يحرص المعنيون بشئون التعليم على تحصيل الكتب العصرية الحديثة و يقومون بمتابعة نهضة التأليف و النشر في العالم العربي الإسلامي لتوفير أحدث المطبوعات لدار العلوم . و تزويد الطلبة بأوسع المصادر العلمية و الثقافة الإسلامية لتوسيع آفاق فكرهم و تطوير مناحي عقليتهم و تنويع مواهبهم العلمية و تنمية ثقافتهم العامة و تسيير ركب العلم مع التمسك بعروة الدين . و بالتالي فقد حققت حركة التقدم التي يعنى به خريجو المدارس الدينية في عامة الأحوال

و من الشاهد أن أبناء ندوة العلماء لا يشعرون . بفضل الدراسة العميقة الواسعة و الثقافة العالية و الخبرات الدقيقة . بالهزيمة و الانسحاق في أي مجتمع رغم ما يتمسكون بالتعاليم الدينية و يحتفظون بثقافتهم الخاصة و هويتهم العلمية و الدينية.

على كل فإن الدور الذي مثلته ندوة العلماء في مجال التعليم و الثقافة و التوجيه الفكري و تجديد المناهج الدراسية و تطويرها و تكييفها مع متطلبات العصر الراهن و مقتضيات الحديثة مع المحافظة و خصوصية الدين و روح الإسلام رغم قلة المادية و أسر التسهيلات و الإمكانات و كثرة العثرات و الأحوال يكفي كدليل ساطع على بعد النظر و نضوج الفكر اللذين كانا يتمتع

مهمة مؤسسي ندوة العلماء و مبتكري فكرتها ، و أن لم يتم الجمع بين القديم و الحديث ، و بين العقل و النقل و استغلالهما على المستوى العالي الذي تطمح ندوة العلماء و القائمون عليها ، فإن الذي قد تم في هذا الإطار الجدير يبرهن على صحة الفكرة و ابتكارها و أصالتها و صدق الهدف و نبله و نزاهته ، و النموذج العملي الذي قدمه أبناء ندوة العلماء يدل الطريق الواضح و يمهد السبيل لمن يريد أن يتابع خطوهم و يقفو منهجهم و يسلك مسلكهم ، فالحسن به من منهج و أتمم

الإنتاج العلمي لأبناء ندوة العلماء

شعر رواد حركة ندوة العلماء و قادتها منهم بأن إعداد منهج تعليمي مهما كان شاملا و محيطا لا يستطيع أن يساهم في سائر مراحل الحياة فلابد من إعداد مواد للقراء تغطي جميع مراحل الحياة و متطلبات الناس.

ثم إن حملة التشكيك التي شنها الغربيون على التاريخ الإسلامي و إثارة الشكوك في سير السلف الصالح و حملة علوم المسلمين و ثقافتهم كانت تهدد الجيل الناشئ بخطر محدق ، كما لوحظ أن المتعلمين في الجامعات الذين يعتمدون على مؤلفات الكتاب الغربيين و تلامذتهم يقعون فريسة مثل هذه الشكوك الركيكة و عدم الثقة بتاريخهم و ضيالة سلفهم من رجال الفكر و الإصلاح و القيادة السياسية و الإدارية. و كثير من يقع فريسة لهذه الحملة المغرضة المتعلمون و المثقفون ، فيصبح لهم ما يكتبه الكتاب و الباحثون الغربيون بمثابة مصادر و مادة علمية لا تقبل جدلا و لا نقاشا.

تطرق بناة الندوة و القائمون عليها لهذا الخطر المحدق و الشر المستطير، فوجهوا عنايتهم ، إلى هذا القطاع بجانب حرصهم التطلع عن حركة إصلاح المناهج الدراسية و النظام التعليمي ، و قاموا ، بجانب حركة إصلاح المنهج التعليمي الذي وضعوا قواعده في قوة و صراحة كلمة سبيل بيانه ، بحركة إعداد مكتبة قيمة تنشئة الفكر الإسلامي و تدعمه و تتصدى للغزو الفكري و حملة المستشرقين و تشكيكهم ، و عمم رأس البحث العلمي للمثقفين و المتعلمين من المسلمين ، و نقل الثروة العلمية الفكرية إلى اللغات الهندية و ترجمة إلى اللغة الأردية.

و بذلك أسس علم الكلام الجديد الذي تحتاج إليه حاجة المجتمع الإسلامي المتزود بالعلم و المثقفين بالغرب و المتأثرين بحضارة الصناعة العصرية ، و مسيرته من الكلام بناة ندوة العلماء و أبناؤها مؤلفات يشعر بظهورها في المكتبة الإسلامية المعاصرة المطبوعة ، فتكونت مكتبة حافلة مستقلة تمثل الفكر الإسلامي السليم ، و تجمع بين آثار السلف و روائع الخلف و تمثل المنهج التعليمي في إصلاح المجتمع و تزكية النفوس و بعث الإيمان و إثارة الفكر و التفكير ، فجاءت هذه المكتبة خير زاد تزود به الجيل الجديد في هذا الزمان .

و من خيرها ويوثق به و يعتمد عليه في فهم الكتاب و السنة ، و التوفيق بينهما ، و في البعد عن التحريف و الزيغ و التأويل ، و فهم النظام الإسلامي و الاطلاع على مزاياه و خطوطه العريضة.

و أول بطل من أبطال الإسلام في هذه الجبهة – كما قال العلامة السيد سليمان الندوي – كان العلامة شبلي النعماني الذي قام بنقض أباطيل المستشرقين المختلفة على طريقتهم و في أسلوب التفهيم و إن الدور التعليمي الذي أدته مؤلفات العلامة شبلي النعماني و مقالاته التي صدرت في ذلك الوقت و كتابات عنها ، لم تكن تقل – في إنجازاتها و مآثرها – عن الجهاد العلمي المنشور ، إنها قضت على تلك الصروح التي بناها الكتاب الغربيون على رسمها في الأذهان البليدة و التي أوشكت تفعل فعلها في العقول الناشئة.

فلما أصدر الأستاذ جرجي زيدان كتابه المشهور "تاريخ التمدن الإسلامي" من مصر في أوائل القرن العشرين كان له دوي في الأوساط العلمية ، و قد كان في الكتاب تجنٍّ على الخلفاء الأمويين و العباسيين و تحريف لبعض الحقائق التاريخية و إسناد أسطورة إحراق مكتبة الإسكندرية للعرب إليها ، فثارت في العلامة النعماني الغيرة الإسلامية و تصدى لهذه الحملة الظالمة بهمة الكتاب ، و ألف كتابه الشهير "الانتقاد على التمدن الإسلامي" في نقد الكتاب و الكشف عن مغالطاته.

و كان لكتبه و مقالاته في "الجزية في الإسلام" و "حقوق الذميين" اللتين تبحثان في حقيقة الجزية الإسلامية و حقوق الذميين و واجباتهم في الإسلام ، و كتابيه الشهيرين "مكتبة الإسكندرية" و "نظرة على أورنك زيب عالمكير" اللذين يدحضان الافتراءات المتداولة لدى الخاصة و العامة ، و يكشفان اللثام عن الحقائق التاريخية الناصعة ، صدى و دوي في الأوساط العلمية ، و في الطبقة المثقفة الجامعية ، و كان لها فضل كبير في إعادة الثقة إلى الطبقة المثقفة بالثقافة الغربية العصرية من أبناء الإسلام بالعقائد و الشريعة الإسلامية ، و بالحضارة و الثقافة الإسلامية ، و بتاريخهم الزاهر ، و بثقتهم بأنفسهم ، و في إحياء الاعتزاز بالنفس و الثقة بالذات ، و مكافحة "مركب النقص" الذي أحدثته الهزيمة في الصراع مع الاستعمار الإنجليزي في ١٨٥٧م ، و أحدثته الثقافة الغربية و الغزو الفكري الأوربي.

و كان من فضل العلامة شبلي النعماني و مآثره الجليلة أنه عرض سير الصالحين بلون علمي جديد لم يكن مألوفا قبله ، فألف كتابا في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه باسم "الفاروق" يعد من أقوى ما كتب كتابيا في هذا الموضوع ، و إنه غرس في قلوب كثير من الشباب المسلم المثقف بالثقافة الغربية حب الإسلام و بذور الإيمان ، و أصبح حاجزا لهم على الصمود أمام الهجمات الغربية الفكرية و الحضارية ، و عرض تعاليمها عرضا والهة في تأليف سير الرجال و العظماء ، و قد يعتبر الكتاب من الآثار الأدبية

الندوة و مجلة الإنشاء البليغ العلوي ، كما ألف كتابا يعرف بالإمام الغزالي و أساليبه و فلسفته و دفاعه عن الإسلام و مكانته العلمية و العقلية . و كتابا يعرف بالشيخ جلال الدين الرومي و فلسفته و دوره الرائع الذي لعبه في تاريخ الفكر الإسلامي و الإصلاح الديني .

و وصله في كتاباته العلمي و لم يكتف بمساهماته بل خطى خطوات جديدة في مجالات جديدة و اكتشف آفاقا حديثة و أوجد طريقة لنشر العلوم الإسلامية و حسب متطلبات العصر . يقول فيه سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي :

"قد تأهل العلامة السيد سليمان الندوي لمكانته الرفيعة في سعة الدراسة و الاطلاع على المصادر العربية القديمة ، و التزامه ما عليه الجمهور من أهل السنة من المذاهب في المسائل الفقهية و الكلامية ، و لكل درجات." [٦٦]

من مآثره العلمية الخالدة أنه أكمل السيرة النبوية الشريفة التي كان بدأ تأليفها أستاذه العلامة شبلي النعماني على خط الذي وضعه أستاذه ، فصار عمله ، و هذه مأثرة علمية كانت جديرة بمثلها الكتب على الموضوع ، عالج فيها مواضيع كانت مثار الشكوك لدى المستشرقين و منابع تضليلهم . و كتابه "الرسالة المحمدية" من أقوى ما كتب في السيرة النبوية و الرسالة المحمدية ، و أكثره تركيزا و إيجازه مما ، و قصده تأثيرا . و كذلك كتاب "سيرة عائشة" من أحسن ما كتب في هذا الموضوع ، و في سيرة الصحابية بنت الصديق أم المؤمنين رضي الله عنها.

و قد وصفه الدكتور محمد إقبال بأنه مفسر عيون العلوم الإسلامية و مصورها من جبال جرداء في أرض صلبة في عصره ، و الذي يستحق أن يلقب "بفرهاد" [٦٦] بالنسبة إلى خدماته العلمية الأصيلة.

و من أبناء الندوة النبلاء الذين مثلوا حركة ندوة العلماء و فكرتها لتأسيس علم الكلام الجديد الأستاذ عبد الباري الندوي أستاذ الفلسفة الحديثة في الجامعة العثمانية بحيدر آباد سابقا ، فقد درس الفلسفة القديمة و الحديثة دراسة عميقة ، و عرضها آخر الإثباتات العلمية ، و إبطال الإلحاد الذي يعتبره معظم العلماء المتغربين نتيجة حتمية للعلم و الفلسفة . و أهم كتبه في هذا الصدد "الدين و العلوم العقلية" و "الدين و العلوم الطبيعية" . و هذان الكتابان حصيلة دراسة طويلة عميقة . لا سيما كتابه الفريد "الدين و العلوم العقلية" فإنه يمتاز بإنتاج الأفكار الجديدة ، و بحثها على المنطقية و الدراسة و حتى بمستوى جيدا . و قد عالج العلوم الطبيعية بشكل الفلسفة ، لا تزال له نضارة و طراوة و أهمية.

و قد اشتهرت حول العلامة السيد سليمان الندوي - رحمه الله على المستقيم

و تطلعها - علاوة على الأساتذة عبد الباري الندوي المذكور آنفا طائفة طيبة من الكتاب الإسلاميين و المؤرخين الباحثين من متخرجي دار العلوم ندوة العلماء . نكتفي هنا في هذه العجالة بذكر الكاتب الشهير المحقق الشيخ عبد السلام الندوي (٢٣) صاحب كتاب "أسوة صحابية" الذي تلقي بالقبول في الأوساط الدينية العلمية ، و الأستاذ الفاضل الحاج معين الدين الندوي ، و الكاتب الشهير الناقد المؤرخ الفاضل الشيخ معين الدين أحمد الندوي و الأستاذ الباحث السيد رياست علي الندوي ، و الأستاذ السيد نجيب أشرف الندوي و الشيخ عبد السلام القدوائي الندوي ، و الأستاذ مجيب الله الندوي . إن هذه الطائفة الندوية المختارة قد عملت في مجال علم الكلام الجديد في قليل أو كثير ، و قد ألفوا العديد في الموضوع بالإضافة على بعض مؤلفاتهم القيمة التي تندرج في علم الكلام الجديد.

و لا يخفى على متتبعي التاريخ أن أبناء الندوة العلماء لم يقاوموا فحسب كل تيار فكري و اتجاه منحرف بل صمدوا كالجبال الراسيات في وجه كل حركة هدامة تقضي على الفكر الإسلامي و حاربوها بما كانوا يملكونه من مواهب و كفاءات القلم و اللسان ، فخلفوا آثارا تبقى على مر الزمان في تاريخ الكفاح الإسلامي ، و زودوا المكتبة الإسلامية بثروة غنية ، و لعبت ندوة العلماء دورا بارزا في مقاومة إجهاض التضامن الإسلامي إثر الحروب العالمية الأخيرة و فتنة القاديانية و المسيحية ، و إنكار الحديث ، و التشاجر و التناحر بين رجال المذاهب الفقهية و الكلامية ، و انتشار البدع و الأوهام ، و أخيرا قضية تعديل قانون الأحوال الشخصية الإسلامية و إلحاق الأحوال الشخصية الموحدة محليا و فرض الحظر على نشر القرآن الكريم ، و غير ذلك من قضايا ذات الحيوية و الخطورة البالغة ، فكانت كل قضية من هذه القضايا شغلت عنايتها الوطيدة و اهتمامها البالغ من علماء ندوة العلماء و أبنائها و مثقفيها.

و أخيرا ، لا آخرا ، فإن ندوة العلماء لعبت دورها الرائع في مكافحة القومية و الاشتراكية و العلمانية بأنواعها التي اكتسحت موجاتها العالم العربي ، و ذلك في وقت استجابت فيه الأنفس و انكسرت الأقلام و اختلطت الحابل بالنابل و الحق بالباطل و حتى على الزمن الاحتفاظ بشخصيته و الاعتزاز بهويته ، و إنها ثبتت على قدميها حين زلت الأقدام ، محافظة على منهجها الحق و الصميم من تقاليد عريقة عبر على قارعة الطريق ، و ظلت رافعة رايتها و فكرتها و متمسكة بها حين كانت الأيدي و خفتت الأصوات إثر سطعت المنهجية موجهة للإسلام و الخلق و الحق و المطلوب و الفكر و الكتب ، لم يمد منها عن نقلها و أوجها بلاغة و دقة و أمانة شهيد لو إنصاف ، و وجدت مكانة الندويين حتى في الأوساط العلمية و الثقافية و نظرتا إليها رغم كل محاولة لإسكات صوتها بفرض الحظر السياسي و تضييق نطاق

المنشورات التي كانت تصدر بحق و تتصدى لمكافحة التيارات و الاتجاهات المتطرفة.

و قد كانت منشورات ندوة العلماء و رسائلها في ذلك الوقت ملائمة للعصر، و غذاء للروح و زادا للإيمان. و كانت من أقوى هذه الرسائل رسالة بعنوان "[illegible]" و "اسمعوها مني صريحة أيها العرب" لسماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي. كما كان لكتب "إلى الإسلام من جديد" و "الصراع بين الفكرة الإسلامية و الفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية" و "ردة و لا أبا بكر لها" فضل كبير في إجلاء الحقيقة و فضح المؤامرة و الدسائس. و أسهمت مجلة "البعث الإسلامي" و جريدة "الرائد" الصادرتان من ندوة العلماء إسهاما كبيرا في بث هذه الأفكار و إيقاظ همة الحركة الصالحة المخلصة، و دعم الحركات الإسلامية الملتزمة.

و إن ما قام به "المجمع الإسلامي العلمي" في ندوة العلماء بلكناؤ في العصر الأخير من خدمات فكرية و اتجاهات علمية و دينية، على النطاق الواسع الكبير، في شتى اللغات من العربية و الإنجليزية و الأردية و الهندية له فضل كبير في تغذية الفكر الإسلامي، و إعادة الثقة إلى الشباب المسلم المثقف بجدارة الإسلام لقيادة الركب البشري، و حل المشكلات العصرية و العقد النفسية، و لاسيما كتاب سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" يأتي هذا الكتاب في طليعة الكتب الأدبية الإسلامية، و يعالج الفكر الإسلامي الأصيل باستعراض التاريخ بوجهة نظر جديدة مبتكرة و يمتاز بنجاح استخدام طريقة العرض الجديد المعاصر مع مراعاة تغذية القلب و العاطفة - و إشعال جذوة الإيمان - الحماسة التي تخلو من مزايا علم الكلام - الذي يمثل لواءه المؤلف الباحث - و الذي يمتاز به فكر ندوة العلماء و منهجها الجامع الكامل.

من هنا نجد تلقى الأدباء الكتاب و العلماء الباحثون بحفاوة بالغة و مكانته و أهميته القائمة، و تكررت طبعاته من كل من القاهرة و بيروت و دمشق و الكويت، و صدرت له عدة طبعات غير رسمية كذلك، و تم نقله إلى اللغات العالمية، و ترجمته بوساطة "الإخوان المسلمون" في برامجها التربوية.

و من بين الكتب الهامة الأخرى التي نشرها هذا المجمع العلمي العظيم و نشرت كذلك في كل من بيروت و دمشق و القاهرة و استانبول و الكويت "القادياني و القاديانية" فقد أحدث هذا الكتاب اضطرابا و قلقا شديدا في أوساط القاديانية و القاديانيين، فإن الكتاب يعالج قضية القاديانية و فتنتها الجارفة التي شغلت الأوساط الإسلامية و الباحثين الإسلاميين كثيرا، يعالجها بدراسة علمية رزينة و بحث أمين نزيه تجرد فيه من العاطفة و الانفعال، و ابتعد عن طريقة المناظرة و الوعظ، فقامت الجريدة القاديانية الشهيرة "الفضل" الصادرة من لاهور بالثناء عليه و تقديمه، و اعترفت بأنه لم يصدر أي

بحث في رد القاديانية مثل هذا البحث الذي يقام له الوزن الكبير (١١) و قد طبعت طبعات هذا الكتاب الإنجليزية في باكستان خصوصا و في إفريقيا و أوروبا مرارا عديدة.

و من الكتب الهامة التي تدخل في نطاق علم الكلام الإسلامي الجديد من تأليفات سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي كتاب "النبي الخاتم" تم تأليفه بعد أن صدر الحكم المنتسب بكون القاديانية أقلية غير مسلمة ، و هو دراسة علمية عميقة حاول فيها المؤلف القضاء على هذه القضية الحساسة فكريا و عقليا كما قضى عليها إلى الأبد بما أصدرت الدولة الباكستانية حكمها سياسيا و رسميا ، و من مزايا الكتاب ، و هي كثيرة ، أن كل قارئ صاحب يتفاعل مع الكتاب في فكرته و مفاهيمه ، فإن الكاتب يعالج عقيدة ختم النبوة مؤكدة بحجج و براهين عقلية و منطقية و كحاجة إنسانية ملحة ، مما زاد القضية بلورة و وضوحا هو مقارنتها مع الأديان الأخرى و الدراسة الأمينة النزيهة.

و لابد من ذكر كتب الأستاذ شهاب الدين الندوي الذي أنشأ مؤسسة إسلامية علمية باسم "الأكاديمية الفرقانية" إن جميع ما سجله قلم المؤلف يعطي الفكرة و الطراوة على موضوعات علم الكلام المعاصر، التي سلكها العلامة الكبير شبلي النعماني و تلميذه النجيب الحاذق العلامة السيد سليمان الندوي بمعانيهما ، فمثلا كتابه "تسخير الشمس كما يراه القرآن" أثبت فيه بدلائل قوية أن تسخير القمر بل الكون كله ليس بمستحيل و لا يثير شيئا من الدهشة و الاستغراب . و للأستاذ كتب أخرى في أمثال هذه المواضيع الحديثة مثل "الإسلام و العلم الحديث" و "أسرار الحياة" و "القرآن و العلوم الطبيعية" و "الشمس و القيامة" و "تخليق آدم" و كتب أخرى تبرهن على أن الإسلام يشجع العلم و التكنولوجيا و يحث على الانتفاع بما يقدمه لنا العلم من اكتشافات حديثة و مخترعات جديدة و استخدامها فيما هو أصلح و أنفع . و ذلك بأن محاولة التوفيق بين الدين و العلوم العقلية شيء لا حاجة إليه ، فإن التوفيق بين الشيئين يحتاج إلى سابق اصطدام و تعارض بينهما ، و ليس شيء من ذلك هنا ، فإن أحدهما يسير في خط لا يمسه الآخر ، فأنى الاصطدام ؟ و من أين التعارض ؟ و ما معنى التوفيق يا ترى ؟ و بذلك تندفع كثير من التهم و الشبهات التي تثار حول جدارة الإسلام و صلاحيته لقيادة الركب البشري في العصر الراهن عصر العلم و التقنية و ينكشف زيف النظريات و الاتجاهات التي ترمي الإسلام بتهمة "الأصولية" و "التزمّت" و الرجعية.

و من الجدير بالذكر أن الإنتاج العلمي القيم الذي حققته ندوة العلماء في مجال علم الكلام الجديد ، قد تم نقله إلى لغات أخرى ، فزاد انتشاره و اتسع نطاقه و مجاله ، و وجد قبولا كبيرا في المجتمع الإسلامي ، و نجح ، إلى حد كبير ،

حاجة الجامعات الإسلامية في العرب.

هذا المستعرض حافظ علم الكلام الجديد ، الذي وضعت ندوة العلماء ثوابته الأولى ، و دافعت عن حوزة الإسلام و المسلمين ، و مثلت دورها الرائع في مجالات الثقافة و التوجيه الفكري و الدور الطليعي في مكافحة موجات التضليل الفكري الموجهة ، و التيارات الهدامة التي اكتسحت موجاتها العارمة العالم الإسلامي و العالم العربي حينا بعد حين ، و الكشف عن زيف التعليمات المنحرفة ، و المؤامرات المنحرفة و الدسائس الخطيرة التي تمثلت في الحركات الهدامة و المنظمات المتطرفة ، و في ضوء هذه الاعتبارات الباهرة و النتائج المدهشة التي حققتها ندوة العلماء في مجال علم الكلام الجديد فحسب . يستطيع المتتبع للأحداث أن يتحقق فراسة شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال و ثقوب نظره و عبقريته و عصاميته ، حيث إنه قال قبل أكثر من خمسين سنة:

> "إنني لا أزال أعتقد منذ مدة أن المسلمين في الهند لا يستطيعون أن يمدوا يد المعونة إلى الدول الإسلامية الأخرى من الناحية السياسية ، يستطيعون أن يقدموا مساعدة كبيرة من الناحية العقلية و الفكرية و ليس من الغريب أن تكون ندوة العلماء أنفع و أجدى من جامعة "عليكرة" الإسلامية في تزويد الأجيال القادمة للهند الإسلامية في هذه الناحية." (٢٤)

أنشطة ندوة العلماء في مختلف مجالات الحياة :

إن دار العلوم لندوة العلماء مدرسة فكرية تربوية تثقيفية امتازت عن غيرها من المدارس العلمية و الإسلامية في هذه البلاد على اختلاف أحجامها و أصنافها ، و خدمتها و إنجازاتها بالحكمة و التسامح ، و التوسط و الاعتدال ، و الشمول و الجامعية فقد جمعت في مجال التفكير و العمل بين القديم الصالح و الجديد النافع ، و بين المحافظة على الأصل و المصادر و المثل و القيم و التجاوب مع المتطلبات الإنسانية الواقعية المعاصرة و تلبية نداء الاختصاصات الوطنية ، فكأنها قامت في تجميع أوجز و الجمع بين الجامعة المصرية و الأزهر الشريف ، أو بين معهد ديوبند الإسلامي الكبير و جامعة عليكرة الإسلامية الوطنية.

و انطلاقا من هذه الفكرة الثورية الجامعة ظلت ندوة العلماء تنظر إلى الأوضاع و الظروف بنظر حكمة و تحليل ، و حرصت على أداء التوصيل بين جيل و جيل ، أمانة نقل التراث من السلف إلى الخلف بوضاءته و نصاعته و شموليته، و حاولت أن تعمل بسياسة التسامح و التضامن في الخلافات الفقهية و المذهبية ، و الاختلافات الجانبية الفرعية و أن تكون همزة وصل بين طبقتين متنافرتين متناحرتين ، طبقة العلماء و الشيوخ ، و طبقة المثقفين

المصريين ، و استقطبت جهودها على تنمية أصالة الوفاء بقانون التكامل الشامل و المسيرة للسياسة ، أصالة الهيئة الفكرية لمواجهة تحدي الغرب بدلا من الهزائم منه و الانزواء عنه ، أو الانصراف عنه و الذوبان فيه.

و هكذا فقد تكللت مساعيها بالظفر و النجاح ، حيث أنجبت عددا كبيرا من العلماء الراسخين الواعين الذين أدركوا خطورة التحديات الهدامة الوافدة من الغرب و تصدوا لدحضها و الرد عليها ردا علميا جادا ، و أنجبت نخبة من نوابغ التاريخ الإسلامي المعاصر عنوا بعرض التاريخ الصحيح ، و محو الشبهات ، و نفي الافتراءات و سد منافذ التشويه و الاعتراضات ، و اعترفت بهم هذه البلاد ، و شهد بإسهاماتهم الفكرية و رسوخهم العلمي و الأدبي علماء الشرق و الغرب و العرب و العجم.

و قد اعترف بذلك فضيلة الشيخ الإمام الأكبر عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر سابقا ، في رسالته التاريخية التي تقدم بها إلى ندوة العلماء ، بمناسبة احتفالها بعيدها الخامس و الثمانين :

> " و لقد وفق الله الندوة ، منذ أن قامت في منهجها ، و وفقها في جهادها و وفقها إلى النتائج التي وصلت إليها ...
>
> لقد كان من ثمار الندوة كثير من الأفذاذ في كل مجال ، لقد أخرجت كبار المحدثين و كبار الفقهاء و كبار المفسرين ، و نشرت في جميع مجالات العلوم الإسلامية ، و كان من ثمارها ، الكثير من المدارس التي تربي أجيالا على شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله." (٢٦)

و يقول داعية الدعوة الإسلامية الأستاذ محمد الحسني ، رحمه الله ، و هو يلقي الضوء على رسالة المهرجان التعليمي الذي عقدته ندوة العلماء بمناسبة احتفالها بعيدها الخامس و الثمانين عام ١٣٩٥هـ

> " إن ندوة العلماء تمثل بداية المهرجان العظيم التاريخ العلمي و الفكري من نوع آخر ، فالذين لم يكونوا يعرفونها معرفة يعرفونها حق الفهم ، و يعرفون بنشاطها الذي انتشر في مجالات التربية و الدعوة و الفكر لغاية الإسلام ...
>
> و الذين كانوا يظنون أن الهند بلد الخرافات أو الأساطير ، أو بلاد الشعوذة و السحر ، أو بلد التصوف العقيم ، أو طبقة من علماء الدين لا يعرفون الدنيا و لا يعرفون الدين ، يجهلون حقيقتهم في مختلف المجالات من العلوم الدينية الشرعية إلى مختلف الآداب و اللغات ، بل إنها في التاريخ أمة في التصنيف الحديث رأوا صورة حية مشرقة ناصعة بالحياة

> و الازدهار و صورة ناصعة زاهية من منهج الفكر الإسلامي السليم الذي سارت عليه ندوة العلماء . و احتفظوا على نظرتها إلى سائر العلوم و التراث الاجتماعية محفوظة في معارضها و تعاليمها و في كتابات أوليائها و أبنائها - متجلية إلى حد كبير في طراز حياتهم و سلوكهم و أخلاقهم" (٢٧)

و يشهد التاريخ أن الندويين قد خاضوا أنواع الساحات و الكتابة و التحقيق و التأليف ، إلى منصة التعليم و التدريس - إلى حلقة التزكية و التربية إلى ميادين الصحافة و الإدارة إلى زوايا الفكر و الرياضة - إلى ساحة السياسة الشريفة النظيفة إلى حقول الاقتصاد الوعرة ، إلى معترك الغزو الفكرية للغزو الحضاري الغربي ، إلى جبهة مكافحة حملات التشكيك و التضليل و التشويه ، إلى حقول الأدب و التاريخ و العلم و الدين ، لم يتركوا أي مجال من هذه المجالات إلا و عملوا فيه و سجلوا فيه رسوخ أقدامهم الراسخة ، و لم يتركوا أي واد من هذه الأودية إلا و دخلوها و ذللوا صعابها و مهدوا عقباتها و شعابها.

كان التاريخ قد أصبح في أواخر القرن التاسع عشر و في أوائل القرن العشرين بعد الاحتلال الأوربي في الأقطار الإسلامية - منطقة كبيرة و مجالا واسعا للشبهات حول الإسلام و حضارته و نظام حكمه و سلاطينه لمن كان تحت حكمهم - و كانت الحاجة تشتد إلى العناية بعرض التاريخ الصحيح و تفنيد الأباطيل و نفي الافتراءات - فهنا تبرزت ندوة العلماء برجالاتها البارزين و نوابغ التاريخ الإسلامي الذين شهد بأصالتهم الفكرية و رسوخهم العلمي علماء الشرق و الغرب ، ففندوا بعض الشبهات و نفي الافتراءات و إماطة اللثام عن وجوه الحقائق و التطورات و عرض التاريخ الصحيح عرضا معتمدا على الوثائق و الدلائل ، مدعما بالتحقيق و الدراسة العلمية و الاتزان الفكري و سداد الرأي و متسما بالأصالة (Originality) و النزاهة و البعد عن التطرف و سوء الفهم ، أمثال العلامة الكبير السيد سليمان الندوي - و الأستاذ العلامة معين الدين أحمد الندوي ، و الأستاذ عبد السلام الندوي ، و الأستاذ مسعود عالم الندوي ، و الأستاذ عبد السلام القدوائي الندوي ، و الأستاذ رياست علي الندوي ، و الأستاذ عبد القيوم الندوي ، و سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي و الأستاذ رئيس أحمد جعفري الندوي و غيرهم.

لقد كانت الهند - بحكم عوامل و أسباب تاريخية لا يعلمها إلا الله - أكبر مسرح للصراع بين الفكرة الإسلامية و الفكرة الغربية الجديدة ، و تليها بعض الأقطار مثل إندونيسيا و تركيا و مصر ، بلاد الشام حيث عانت شعوبها بخطر التحديات ، و قد قيضت منهم لذلك أفراد و كانت للمقاومة ، فكان في الندوة من يحسن القيام بهذه المسؤولية الخطيرة و يمثل دوره في هذا الصراع الفكري

و الأدبي و الاجتماعي و يجيد اختيار السلاح و يتقن طريقة استخدامه . كما أن دار العلوم لندوة العلماء كرست جهودها على إصلاح الدين و جمع شمل المسلمين على اختلاف مذاهبهم و مشاربهم و طبقاتهم و مستوياتهم . فهذا الجيل المثقف الذي كان يتخرج من علماء الدين و يسلم منهم ساعد و يحن إلى إشاراتهم و يسمو كتاباتهم. و إذا العلماء الذين تخرجوا هؤلاء و الذين منهم يقبلون إليهم ، و يحيرون عليهم كلام المتقين و يتطورون معهم إلى نهاية المطاف.

" و رأى الناس أمة مبعثرة تتجمع و عزائم مبلبلة تتلاقى و جروحة فاترة تلتئم ، و فجوات واسعة تضيق ، و مواهب خامدة و قوى مضطربة تجد طريقها و منافذها و مصيرتها لتنمي طاقاتها و مواهبها - و تنمي مداركها و معلوماتها في سبيل الركب الديني العلمي ، و تبعث المحاسن عاليها الإعتبار - و إنقاذ الأبناء من جاهلية غربية جاءت بخيلها و رجلها . و غزت بلادنا و مدارسها و بيوتها و مكرها."

و لما اكتسحت العالم العربي القومية و الاشتراكية و موجات الحضارة الغربية الطاغية ، و نهض الطغاة المعادون للإسلام و المسلمين ، و صمتت أصوات العلماء المخلصين في أرض الحركة الفكرية إثر حملات النفي و الإعدام و الكبت و الاضطهاد ، و تكتلت الأسواق بأنواع البضاعة الغالية بأقلام المرتزقين و الكتاب المغربين ، و احتاج العالم العربي - في مثل هذه الأوضاع العصيبة - إلى سد كثير من سد "أسوار" العالي . يقف في وجه السيول الجارفة و الموجات الطاغية و الفيضانات المدمرة من التيارات الإلحادية و الموجات الفكرية و النزعات الغالية و الحضارة الجاهلية . فكانت هي ندوة العلماء التي شيدت هذا السد العالي المنشود ، يقول في ذلك فقيد الدعوة الإسلامية الأستاذ محمد الحسني رحمه الله.

" إن ندوة العلماء أنشأت هذا "السد العالي" لتقف كالحارس الأمين على أبواب الحضارة الغربية المدمرة الغازية ، فلا تسمح للجيل الجديد إلا بهذه العلوم الحديثة و الوسائل الحديثة التي لا تمس جوهر الدين، و لا تواجهه في أي مرحلة من مراحل الحياة - بل تساعده و تقويه ، و تضيف إلى جماله في حقل الدعوة و أداء الرسالة ، و إقامة الحجة ، و إثارة الوجدان ، و إقناع الفكر . أضافت إليها العاطفة و الإيمان ، و الاعتماد عليه ، و الحب من بين أبنائها طائفة تمثل هذه الطراز و هذا التفكير، و هذا المنهج خير تمثيل، و تحمل عبء الرسالة بإخلاص و أمانة ، و صدق و تواضع ، و جرأة و شجاعة ، و حكمة و براعة " (١٨)

To: www.al-mostafa.com

على كل حال أبناء ندوة العلماء رابطوا على ثغور التوجيهات و حافظوا على أهداف المؤسسين و المربين، و حسب إمكانياتهم و حسب استعداداتهم و قدراتهم تقدمهم و نبوغهم في مختلف المجالات، و لا يزالون يقومون على مختلف الثغور و التوجيهات و يعملون في مختلف المجالات و الميادين و يحتلون مناصب كبيرة في مجالات التدريس و الصحافة و السياسة و الاجتماع، و ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. ويقول سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي:

> " و كان متخرجو الندوة يشعرون أنهم لا يعيشون في عزلة من العالم و في جزيرة منقطعة في بحر الحياة، فكان منهم أدباء و باحثون، و مؤلفون في اللغة العربية، و أخصائيون بالمشاركة في الحياة، و كان منهم من كوّن للفكر الإسلامي الجديد مكتبة كاملة." (١٩)

انطباعات زيارة

و إليكم الآن بعض كلمات الانطباع لزوار ندوة العلماء من ندوة العلماء، سجلها بعض كبار رجال العلوم و الأدب و السياسة في العالم الإسلامي على إثر زيارتهم لدار العلوم ندوة العلماء (٢٠)

كلمة وفد الأزهر الشريف:

زرنا مدرسة دار العلوم ندوة العلماء بلكناؤ وأعجبنا بمحتوياتها، طلبتها و أساتذتها معهم - و تحدثنا معهم و سررنا بلقائهم و اطلعنا على نظام تعليمهم و منهاج تدريسهم فرأينا منهجا محكم الوضع مثالي التصميم، جمع بين علوم الدين و علوم اللغة العربية، التي هي مفتاح الكتاب العزيز و السنة النبوية، و بين علوم الثقافة العصرية التي تيسر الطالب في حياته، و تعينه على أداء مهمته، و تشبع رغبته و ميله في طبقات الأمة و عوامهم و مثقفيهم - و تتخذ التجربة هذه اللغة في الأخذ بأحدث الطرق في التربية و التعليم، و بإمكانيات (حسنا حيث السكنى و التغذية فيه على خير ما كان ينتظر و الأمل) حتى يبرز أمامنا الطلاب مثقفون و متعلمون، و إنا بهذا نقدم تهنئة صادقة و بالمناسبة و نشكرهم جميع الحاضرين، و نأمل أن يكون الطلاب الذين رأيناهم من مختلف الطبقات منابع خير و نور.

إبراهيم الدسوقي، محمد صلاح الدين النجار، عبدالوهاب النجار
محمد أحمد المصري، حبيب أحمد (سكرتير البعثة)

٨ ذو الحجة ١٣٥٥هـ

كلمة الشيخ عبدالعزيز الثعالبي زعيم تونس

زرت بنفسي ندوة العلماء المؤسسة بلكهنؤ ، و وجدت الطلبة منصرفين إلى الثقافة ، و هم على معلوماتهم كأنما على رؤوسهم الطير . يتلقون الأخلاق و الوطنية ، و هذا مظهر من مظاهر التقدم في الشعب الذي استفادوه في هذه المدرسة العظيمة من الآداب و الأخلاق ، و الطلبة المتلقين الأخلاق و التحصيل الذين تعتمد في نفوسهم هذه الشخصية النبيلة لأنه دليل على وجود التعليم و الإرشاد في هذه المدرسة الفاضلة ، و أنا من صميم قلبي أتمنى لها و لمديريها زيادة و مساعدة و ثقة

عبدالعزيز الثعالبي
يوم السبت غرة ذي الحجة سنة ١٣٤٤هـ

كلمة كبير علماء العراق الشيخ أمجد الزهاوي .

لقد رأيت دار العلوم ندوة العلماء فوجدتها وافية و متمسكة بالغرض العلمي الذي أسست من أجله ، و ذلك بتخريج علماء يرفعون راية الإسلام ، و ينشرون تعاليمه و أحكامه في القطر الهندي ، و يعرفون أبناء الأمم الأخرى بالمنظر اللائق به ، فيمكنهم أن ينشروا منها جمهور منطقة الشيوعية ينشرون تعاليمه و إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وفقنا الله و إياهم لخدمة الإسلام.

كتبه أمجد الزهاوي
٢٦ ذي القعدة ١٣٧٣هـ

كلمة سمو الأمير عبدالله بن عبدالرحمن آل سعود المعظم

لقد سرني أن أتيحت لي هذه الفرصة لزيارة مقر ندوة العلماء بلكهنؤ ، و كنت أسمع عن هذا المعهد العلمي الكثير من مجهوداته العظيمة في نشر العلم الديني و التثقيف الصالح ، كما لمست أثر ذلك أيضا في كثير من الشخصيات العلمية التي أتيح لي التعرف عليها بالهند ، و إني لأرجو لرجال هذه الندوة كل التوفيق و السداد.

عبدالله بن عبدالرحمن آل سعود
١٣٧٥-٤-٢٧هـ

من كلمة طويلة للأستاذ الفاضل الشيخ علي الطنطاوي :

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

علي الطنطاوي
ذو القعدة ١٣٧٢هـ

من كلمة سماحة المفتي أمين الحسيني :

[illegible]

كلمة الشيخ عبدالمنعم النمر والشيخ عبدالعال العقباوي :

كنا نسمع عن دارالعلوم ندوة العلماء ، و نعرف عنها معلومات جعلتنا نحبها ، و شوقتنا إليها ، حتى أتاح الله لنا أن نحضر إلى الهند ، و أن نزور هذه الدار التي أحببناها من قبل ، و نلتقي مع الأساتذة و الإخوان الذين عرفناهم شخصيا أو بالمراسلة ، و لقد سرنا و ثلج صدورنا أن وجدنا حقيقتها تفوق كثيرا ما سمعنا عنها ، و أن نجد طلابها على قسط كبير من معرفة اللغة العربية حتى تعد دارالعلوم ندوة العلماء في لكنؤ واحة العربية في البلاد الهندية.

عبدالمنعم النمر ، عبدالعال العقباوي

٢٢/ محرم ١٣٩٦هـ

كلمة المفتي ضياء الدين بابا خانوف
رئيس المعهد الديني الإسلامي السوفيتي (تركستان)
و الحاج أحمد جان مصطفى إمام و خطيب :

نحن الوفد الذي يمثله مواطنو جمهوريات سوفيتية مختلفة ، قد تشرفنا بزيارة ندوة العلماء لكنؤ . و شهدنا الطابع الإسلامي هو الغالب على القائمين عليها ، و سرنا بأن طلاب هذه الندوة متفقهون في دراساتهم و متعمقون في الفقه الإسلامي ، و شهدنا في أساتذتها التوسع العلمي و الفكري ، و قد وجه سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي الدعوة لنا إلى هذه الدار ، إنه ألقى كلمة تعريف بالعلماء الذين نشأوا على أرض ما وراء النهر ، و خص بالذكر منهم إمام المحدثين في العالم و المحدث الإمام أبو عبدالله البخاري ، و الإمام مرغيناني صاحب الهداية . نحن جميع أعضاء الوفد نشكر القائمين على هذه الدار العلمية و المشرفين على إدارة شئونها ، كما نوجه شكرنا و تقديرنا إلى الذين يطلبون العلم ، و العمل بالعلم بالاتباع ، و يتمسكون به ، و نحن مسرورون جدا بزيارة ندوة العلماء.

ضياء الدين ، أحمد جان مصطفى

كلمة شيخ الإسلام مولانا السيد حسين أحمد المدني:

تشرفت اليوم في ١٩/محرم الحرام عام ١٣٦٦هـ بالحضور في دار العلوم ندوة العلماء ، و اتفق لي كذلك إلقاء كلمة في اجتماع الطلبة "الإصلاح" ، و الحمد لله على أن نظام الاجتماع [illegible] ، يرجى منه و الجمعية من [illegible] الذين سيطلعون في أفق الأمة الإسلامية كنجوم زاهرة ، أدعو الله أن يصلح هذه الجمعية بتوسيع [illegible] ، و أن يحتل هؤلاء الشباب مكانة بارزة في السياسة [illegible] و العلماء و [illegible].

(مترجمة)

حسين أحمد

١٩/محرم الحرام ١٣٦٦هـ

كلمة سماحة مولانا حبيب الرحمن خان الشرواني
وزير الأمور الدينية في دولة حيدر أباد سابقاً:

أستغل هذا الخطاب الذي منحته الهيئة و جمعية دار العلوم هذه الفرصة لزيارتها ، فشاهدت مختلف الشعب فيها و استمعت إلى دروس كل من الحديث الشريف و الفقه و الأدب العربي ، فتأثرت بحسن الإلقاء ، و الذي شاهدته و استمعت إليه [illegible] و [illegible] - و ملأني فرحاً و سروراً.

و إني أشكر الله كثيراً على أن دار العلوم لا تزال مستمرة على [illegible] و [illegible] و أهدافها متمسكة بأساليبها المتخذة في التدريس و البحث ، و رأيت أن الروح الإسلامية لا تزال [illegible] و [illegible] بها ، بارك الله فيها و في أساتذتها و خدامها (مترجمة)

حبيب الرحمن

١٢/فبراير ١٩٤٨م

الهوامش:

1- مجلة الجيل ص ٢٦
2- تقرير الاجتماع الأول ص ٩
3- تقرير الاجتماع الثاني ص ٦
4- مشروع التقرير [illegible] ص ٢
5- مسيرة الجماعة [illegible] ص ١٤٩
6- مجلة الجيل ص ٢٠
7- تفسير القرطبي ص ٩٩
8- مجلة الجيل ص ٤٢٦
9- مجلة المجتمع الإسلامي عدد [illegible] ص ٤٦
10- مجلة الجيل ص ٤٩
11- [illegible] بين المستشرقين و [illegible] المسلمين [illegible] على الحسني الندوي ص ٣٣
12- [illegible]
13- [illegible]
14- [illegible] ص ١٦٠
15- [illegible] ص ٢٦٨
16- مجلة المجتمع الإسلامي عدد [illegible] سنة ١٩٩٩ ص ٤٥
17- [illegible] ص ١٩٩٦-١٩٩٨
18- [illegible] و مجلة المجتمع الإسلامي.
19- مجلة المجتمع الإسلامي عدد [illegible] ص ١٠٤

دور تكنولوجيا المواصلات
في دمقرطة التعليم في الهند

بقلم : الدكتور شاهنواز أحمد الصديقي
أستاذ قسم المواصلات
جامعة هاريسون بنسلفانيا

التعريف :

هذه الورقة تهدف إلى تقديم العوامل الرئيسية المؤثرة في استخدام تكنولوجيا المواصلات في دمقرطة التعليم في الهند. أولاً إنها تقوم بتعريف الأهداف العامة، و تحدد مفهوم دمقرطة التعليم من منظورات متعددة. و ثانياً تتوجه الورقة إلى القوى الرئيسية التي تعترض و تحول - في سبيل تحقيق الديمقراطية هذا. و ثالثاً و أخيراً فإنها تتعرض التوصيات من شأنها المساعدة في تجاوز تلك العقبات.

إن تكنولوجيا المواصلات - في صورة عامة - موجهة إلى الاستخدام كأداة. أو هي عبارة عن عمل يضيف إلى الكفاءات الاتصالية الفعلية و الفيزيقية. و يسمح بذلك الطريق أن يتمكن أبناء البشرية من التغلب على القيود المكانية و الزمنية أثناء التفاعل مع البيئات الطبيعية و الإنسانية. الأدوات كلها من قطعة خشب أو حجر، إلى الطرق الإلكترونية المتطورة و الأقمار الصناعية، و أشكال متنوعة لتكنولوجيا المواصلات.

الهند - في رحلتها للتواصل على طريق التنمية الوطنية - تعتمد على تنمية التكنولوجيا المتطورة للأقمار الصناعية و ربطها من الفضاء مع محطات التلفزيون، و تستخدمها منذ أكثر من عشر سنوات لبث البرامج التعليمية إلى قرى نائية. و لقد عززت الأقمار الصناعية (انسات ١ ايه، و انسات ٢ بي) المساعي التي تبذل لتعليم الملايين من المواطنين الهنود

الاقتصاد و السياسة و الثقافة بكليتها المتصدعة. بالإضافة إلى ذلك فإن الإذاعة و الصحافة باتت تستخدم لنفس الأغراض منذ عدة عقود، و خاصة في العقود التي أعقبت استقلال الهند.

لا بأس بالتركيز على أهمية العلاقة بين وضعية دور الموارد البشرية لشعب ما، و تقدمه الاجتماعي - الاقتصادي. و الهند لم تكن تفتقر منذ أول وهلة إلى مساعدة خبير أو اختصاصي أجنبي ليكشف لها الستار عن هذا السر. و منذ بداية انطلاقة حركة التحرير من بريطانيا ظل القادة من أمثال البروفيسور جوكليه و المهاتما غاندي يركزون على ضرورة تثقيف الجماهير الهندية، و تمكينها بذلك الطريق أولا من تحقيق حقها في الحرية و الاستقلال، و ثانيا من المساهمة في حقل التنمية و اقتسام ثمارها في المراحل اللاحقة. تلبية لنداء غاندي لاتخاذ التعليم وسيلة لتهيئة الريف قام السيد محمود (من مهاراشترا) و راجاجي (من مدراس) و أمراء الإقليم أو بعد بحركات بين الفلاحين لتثقيف الكبار متواصلة يومية، يتعلمون برامج تعليمية لذلك الغرض (نهرو ١٩٤٩م)

لذا اعتبرت نوعا من التعليم و تعميمه بين الجماهير بمثابة ضرورة للتنمية الوطنية. المتحدة ينبغي أن تشمل تلك التنمية خدمة لجميع أفراد الأمة بغض النظر عن العرق و القومية و الثراء و العقيدة و الجنس و العمر. و دستور جمهورية الهند العلمانية الديمقراطية الشعبية هو الآخر يدعو إلى اتخاذ و دعم خطط حكم من ذلك النوع. و هذا أريد للهند أن تصبح الدولة - و تواصل مسيرتها على درب التقدم و الازدهار. فيتوجب على قادتها العمل على تأمين روح الديمقراطية و التعليم بروابط التكامل. و التكنولوجيا الحديثة للمواصلات يمكن أن تكون عونا كبيرا على تحقيق ذلك الهدف المنشود.

قبل تناول الدور الذي تلعبه تكنولوجيا المواصلات لغاية الآن، أو الدور الذي ستلعبه في المستقبل لديمقراطية التعليم في الهند، من الضروري أن نقوم بتحديد معنى ديمقراطية التعليم، و تعرف أهدافها و منهاجها. بل الحقيقة أن الديمقراطية نفسها تتطلب شرحا و إيضاحا قبل الديمقراطية. ذلك لأن الديمقراطية تفسر أحيانا، عن طريق الخطأ، بكونها هدفا وطنيا أو نظرية سياسية، و هي بنظرة هذه التفسيرات يتناسى الشعب أنها عمل و منهاج لصنع القرارات، و لا غير.

و لو فسر الديمقراطية على مرتبة من الدول، فإن تعدد هذا التفسير، و تنعكس في صنع القرارات، المتخذة أيضا لا تجيء قيمتها الاجتماعية بين مختلف الطبقات. و إن حل هذه المشاكل يكون ذا أهمية حرجة، و بدون حل مقنع لها، يمكن أن تلتبس على الأمة حتى معالم الجهة العامة فضلا عن مستلزمات أهداف التنمية الاقتصادية و السياسية و الاجتماعية.

و لذا كانت الأوضاع بهذه الدرجة من الغموض فستخدم تكنولوجيا المواصلات سوف لا تأتي سوى عن المزيد من الاضطراب و التضليل، و الولايات

المتحدة الأمريكية على نحو ما تبرز مثال لذلك ، يقول فريدريك وليمس (FREDERICK WILLIAMS) (١٩٨٢) : " التغير في المواصلات ، ما هي عليه الآن ، و من مسائل فهمها أعمق و متصلة بالتكنولوجيات الخاصة بالمواصلات فإنها تقع في إطار السلوك الإنساني ، أي الأهم من التقنية الفهمية نهائيا ، هو كيف نغير المواصلات و نديرها ، و لا ما تستخدمه المواصلات علينا.

حسبنا أن نركز هنا على القيمة الناضجة التعليمية للمواصلات وهذا القدر ، و قبل أن نعود إليها بشيء من التفصيل يجدر من الضروري أن نناقش ديمقراطية التعليم بمعانيها المختلفة هناك الكثيرون يتناولون عدة تفسيرات و شروح ، و أبرزها أن يكون التعليم في متناول سائر أفراد الشعب. لكن تحليل التركيب اللفظي يمكن أن يدل على ضرورة تكييف محتوى التعليم مع متطلبات الديمقراطية ، أي التعليم لأجل الديمقراطية ، و يمكن أيضا أن يراد بديمقراطية التعليم إتاحة مختلف جماعات الأمة قدرا من الحرية في تسيير المؤسسات المدرسية. و هناك معنى آخر لها يتلخص في أن يكون إجراء صنع القرار مفتوحا و متاحا لجميع من هم على صلة بالأنشطة التعليمية من الطلاب و الأساتذة و الإداريين و المفتشين و الآباء. و هكذا يجوز أن تفسر ديمقراطية التعليم بكونها عملا موجها إلى تسهيل التعلم للجميع عن طريق إزالة العوائق المتمثلة في المال و العمر و الوقت و الجنس و المعلومات ، و أي نوع آخر من العراقيل التي تعترض طريق التعلم ، و كثيرا ما يراد بديمقراطية التعليم التساهل الذي يلقاه الطالب في المدرسة الرئيسية ، أو خصوصية العلاقات القائمة بين الأساتذة و الإدارة ، بين الطلاب و الإدارة ، بين الأساتذة و الآباء ، أو بين الطلاب أنفسهم.

و لقد عرّف إم . أدلير (M.J. ADLER) (١٩٨٢) العمل الديمقراطي هذا بأنه الانفتاح المشترك على (أ) المساهمة السياسية للجميع و (ب) تعميم التعليم من مستوى معالى ، و بموته تتحول الديمقراطية إلى الفوضوية. و يقول أدلير : " العمل في ثنائية التربية الديمقراطية ، خلل في تحقيق الوعد الديمقراطي - و التوصل إلى هدف مجتمع غير طبقي بمعنى الطبقي ، يكون مرهونا بتحقيق مجتمع غير طبقي تعليميا. التعليم بوابة للعدالة الاجتماعية. و المساواة الاجتماعية بمعناها الأعمق هي : أن يتيح لجميع السكان تطور مستوى الحياة الذي يتطلب أن يتمتع الجميع بتسهيلات تعليمية من نوعية متماثلة. على هذا ، كما يقول أدلير ، فإنه بالسرعة التي يتحرك المجتمع الديمقراطي لمعالجة ظاهرة عدم المساواة على مستوى البيوت و البيئة العامة، يتطلب الدرجة من السرعة يتمكن من إنجاز تعويضه : توفير فرص تعليم متكافئة للجميع.

هنا نرى أن المفهوم خطيرة ، و أعمق يجب فرصة تعليم متكافئة بمعنى أنها مفتوحة للجميع و بين أنها متكافئة لأن الجميع مقدرون على الاستفادة منها. يتوقف الأطفال جميعهم مؤهلين للثقافة بطريقة عدم تجاربهم بصفة و ظروف الظروف البيئية في حيطه. و جملة ما في الأمر أن توفر ثقافة مدرسية و متكافئة

لطريقة التدريس و كوادرها، و هذا يمنح لوسائل المواصلات أن تلعب دورا في العملية التعليمية.

مقاربة للتعليم و مجموعة منتخبة من ملامحها:

في الفقرات السابقة قدمنا مجموعة من تعاريف مختلفة لمصطلح "مقاربة التعليم"، و مجموعة التعاريف هذه تتضمن عددا من الملامح الرئيسية لذلك المجال، و هي تؤدي بطبيعتها إلى النقاط الآتية للتذكر:

أ) تعليم الكبار متاح بالطاقة و يستجيب للمعايير المحلية الدقيقة.
ب) اتصال الطاقة بالناس من المواطنين من مختلف مجموعات منتمية إلى برامج تربوية رسمية و غير رسمية، أو المستفيدة من برامج تعليمية أخرى متنوعة.
ج) تكون مراكز التعليم ـ المدارس / الكليات ـ سهلة المنال بالنسبة للجميع و بغض النظر عن الجنس و عن مستويات الناس دينية و عرقية و اجتماعية و اقتصادية.
د) تخطي نسب التسرب لدرجة لا يعبأ بها.
هـ) مشاركة الجميع في صنع القرارات حول شؤون متصلة، مثلا ـ بمواقع المركز و تنظيمه، و بالمواد الدراسية و المنهاج التعليمي و التقويم.
و) استخدام "المسؤولية و السلطة" بطرق توجيهية منهجية يتم اتخاذها برعاية الاختيارات المنهجية نفسها.
ز) ربط كل هذه الأنشطة مع الحاجات التنموية و مع المساعي الموجهة إلى التغلب على الطائفية و العرقية و الإرهاب و غيرها من العلل الاجتماعية.

الإنجازات الهامة في مجال التعليم:

لم تكن النسبة المئوية لتعليم الكبار تتعدى ١٢٪ لدى الاستقلال عن الحكم البريطاني عام ١٩٤٧م. و منذ ذلك خطت الهند خطوات كبيرة، و أصبحت أكبر دولة ثالثة في العالم من ناحية توافر الخبرة و الفنيين، و مكانتها بين شعوب العالم الثالث ـ بدون شك ـ مكانة دولة قائدة في جميع الميادين. مع أن الازدهار الاقتصادي مع عملية وتيرتها في طريق التقدم في الهند، إلا أن تلك الطاقات البشرية الهائلة تشكل أهم و أعظم مورد، لأن الكمية ـ في التحليل النهائي ـ وحدها تنتج النوعية و القوة ـ و يبدو أن التنافسية الشديدة في مختلف مجالات الحياة الهندية، جعلت وجود الكفاءات العالية في شتى المجالات أمرا مضمونا و نمو شعور الطموح و منافسة الأقوياء على جميع المستويات، و رغم كون هذه الظواهر تسببت في خلق شعور باليأس في أكثر من جانب.

و لو نظرنا إلى الوضعية في إطار الأرقام المجردة ، لوجدنا أن نسبة التعلم بين الكبار (أو هي ٥٠٪) ليست منخفضة . منذ عام ١٩٤٧م ارتفع عدد الطلاب ثلاثة أضعاف ، و في الأهمية بمكان أن عدد المتعلمين في الهند قد وصل الآن ٣.٢ مليون، فيما لم يكن يتعدى عدد الطلاب المسجلين بالمعاهد العلمية عام ١٩٤٧م سبعة آلاف ، و عن عدد الكليات الهندسية و الصناعية ، فإنه أيضا يبلغ ١٠٠ بالمقارنة مع ٢٩ قبل أربعين سنة من الآن . فالحاصل أن التعليم في الهند أصبح ، بدون الشك ، أكبر صناعة ترشد الطريق إلى ثورة علمية في المعلومات.

المشاكل الحالية :

بيد أن هذا الاتساع الهائل في الأنشطة التعليمية لم يأت مقرونا بتطورات إيجابية نوعية ، و في الواقع ثمة أسباب تبعث مشكلة القلق الاقتصادي في تلك الظاهرة منذ الستينات مستفحلة لغاية الآن ، كما تستمر الفجوات المزمنة بين انتاج نظام التعليم العالي و حاجات السوق خاصة لعمالتها في الماضي.

لقد لفت جيه . بي نايك (١٩٧٩) الانتباه إلى تعاظم نسبة التسرب في المراحل الابتدائية (٦٠٪) ، و إلى أن هذه الظاهرة قد تسفر عن تضخم عدد الأميين بين الكبار لدرجة قد يستحيل استيعابه في الأنشطة المتوفرة لتعليم الكبار. هذا إضافة إلى نسبة التسرب في المراحل الابتدائية بين الأطفال من الفئات المدرجة في قائمة الطوائف المتخلفة، تصل ٨٠٪ و أن ٤٠٪ من المدارس ليست لها أية مباني ، و أكثر بكثير منها لا تتمتع حتى بتسهيلات السبورة و الماء و المراحيض. و أن في ٣٠٪ من هذه المدارس يوجد معلم لتدريس أربعة صفوف دراسية ، و ٥٠٪ من مجموع سكان الهند، حتى الآن يعيشون حياة يسودها الفقر و الأمية و البؤس.

و على أساس ما ذكره نايك (١٩٧٩) في عرضه العام تم تحديد ستة مواضيع تتصل بالهيكل التنظيمي ، و هي :-

أ) نوعية النظام التعليمي : نظام للنخبة و آخر للفقير.

ب) ابتعاد الفقير عن حجم النخبة في تعليمه.

ج) ثمة أربعة أنظمة تعليمية فرعية تعمل في ظلها على ما يعرف بمناهج تعليمية خاصة و رسمية.

د) الطبقة المتوسطة المؤلفة من الموظفين، تسود حسية ذلك النظام.

هـ) المجموعة المستفيدة من البرامج التعليمية المهنية – الطلب – لا يحول نسبة الريف .

و) يوجد نحو ١٠ مليون متخلفة عقليون .

فالملاحظات الآنفة الذكر تدل على أن الخطة التعليمية الجديدة لا تتجه إلى المشاكل الحقيقية المتمثلة في الفقر و الميول التخريبية ، و إلى مواطن النقص في النظام التعليمي خاصة معالجة الأقارب و انعدام البحث في إجراءات القبول في معاهد التعليم العالي ، و المطلوب أن تعي أن المشاكل في التعليم و الصناعة معروفة لذا لا يمكن للحكومة أن تتغلب عليها بالاعتماد على أنظمتها المرنة.

الاستعمالات المعاصرة لوسائل المواصلات :

لقد سبق أن أشرنا إلى أن الهند استخدمت وسائل المواصلات حتى و قبل استقلالها من الحكم البريطاني ، و هذا التقليد مازال مستمرا ، بصفة مركزة على البرامج الزراعية و ما تتطلبه من أعمال ميدانية مكثفة مع برامج ثقافية ، إلا أن النموذج التنموي الغربي ، منذ المرحلة الأولى ، للتنمية الصناعية و الزراعة العلمية المزعومة ، أسفر عن استمرار معاناة المواطن الفقير في المدينة و القرية و بقاء الفقر في مجال التعليم هذا ما ينطبق على تعليم الكبار أكثر من أي شيء آخر ، فإن أمره بات منسيا لغاية عام ١٩٧٧م.

و بالرغم من هذا و ذاك ، ما انفكت وسائل المواصلات في أشكال السمعية البصرية و الإذاعة الإرشادية و البرامج التلفزيونية تستخدم في الأنشطة التعليمية المرتبطة بالجانب العملي منذ بزوغ فجر الاستقلال ، و لكن هذه البرامج تجريبية و متقطعة ، كان تجربة " سايت " (SITE) ـ تجربة الإرشاد عن طريق التلفزيون SATELLITE INSTRUCTION TELEVISION EXPERIMENT ـ الأولى من طرازها ، و التي أجريت في أوائل و منتصف السبعينات . و يمكن أن نلخص النتائج التي توصل إليها التقرير (من إعداد بوشبالي ١٩٨١م) عن هذه التجربة في النقاط الآتية الذكر :ـ

أ) وصلت هذه البرامج إلى ٢.٥ مليون نسمة من مواطني ستة مناطق التجمع البشري ، و اقتسم جهاز تلفزيون حوالي مائة مواطن.

ب) المشاهدون طالبوا بمد المزيد من برامج إرشادية.

ج) بعد مشاهدة البرامج المجتمع القروي في كثير من الأحيان ناقشتها فيما بينهم.

د) غالبية المشاهدين كانت من الذكور ، و شاهدت عامة من الفلاحين و العمال الزراعيين ، فيما شكل الأطفال الأغلبية من جمهور المشاهدين

هـ) أكثر القرويين استفادوا من هذه البرامج خاصة في مجالي الصحة و الزراعة ، كان تقدمهم مماثلا للتجربة.

و) الإقبال على مشاهدة هذه البرامج ، كان مقصورا على مدى الفهم الناشئ بمضمون اللغة المرسلة.

د) تخللت هذه البرامج فترات الانتقال لاهتمامها بمحتويات البرامج المنظورة .

ح) هذه التجربة ساهمت ايضا في اختلاط المشاهدين من فئويات مختلفة.

ط) نتيجة لتجربة "سايت" تقلصت الهوات بين المتعلمين و المتقدمين من سكان القرى .

ي) و هذه التجربة أتاحت فرصا جديدة للمزيد من الأبحاث في ميادين العلوم الاجتماعية و وسائل المواصلات العامة.

لقد أثار المؤرخون و الباحثون سؤالين رئيسيين بهذا الصدد، الرئيسية كان على حملة بقدر المهندسين و علماء الاجتماع و خبراء الاعلام الهنود ، و ثانيهما عن مدى نجاح تجربة "سايت" في انجاز الأهداف ، و الإجابة عليهما أتت على النحو التالي : ـ

أ) العلماء و الفنيون الهنود أثبتوا كفاءتهم في جميع مراحل التخطيط و التصميم و التشغيل لكافة الأنواع من الأنظمة المعقدة ، و رغم بعض المشاكل و العقبات فإن الانجاز كان هائلا.

ب) و وسائل الإعلام لعبت دورا متواضعا في ايقاظ الوعي العام ، و مساهمتها في احداث تغيير في الاتجاهات السائدة منذ أزمنة طويلة كانت تدريجية فقط .

و على هذا يمكن القول بأن تجربة "سايت" اخفقت في تحقيق هدفها الاجتماعي، و هي مرجعه بعد ذلك الفشل إلى تدني مستوى اللغة المتطورة من قلميتي التصميم و المنفذون ، و إلى ضعف الإدارة و إلى عدم وجود تنسيق مطلوب بين الوكالات المتعددة.

بعد انطلاقة قمرين صناعيين ، إنسات ون . إيه و إنسات ون . بي ـ في عامي ١٩٨٢ و ١٩٨٣م ، أصبحت الآمال كبيرة في أوساط المناطق النائية في الاستفادة من البرامج الموجهة إلى التضامن الوطني و خلق الوعي العام حول التنمية الاجتماعية ـ الاقتصادية و السياسية ، مع التركيز على أن المساهمة العامة في العمل التنموي ضرورية لا مناص منها.

بيد أنه بالرغم من التوسع و من الالتزامات الحكومية ازاء برامج التنمية ، فإنه لم يتيسر بعد البحث في قيمة الابتكارات التي ترجمتها السلطة المعنية على تلك المجموعات و عن محتوياتها العلمية و الفنية كالأفلام السينمائية. و هكذا فإنه لا توجد ثمة سياسة اعلامية واضحة تساهم في حل الصراعات التي تكون سمة التوتر و العنف و مشاكل الإعلام العامة و استعمالاتها في الوقت الحاضر، و الهند أيضا تسلك عن مجالات الميزانيات العامة لتطوير منظومات القطاع الإعلامي . في الخطة الوطنية السابعة تم توجيه .. ١٨٨ مليون

برمجة محلية للاطلاع على المواصلات ، إلا أن مجموع ما خصص (من المبالغ المذكورة أنفا) للإنفاق على أنشطة موجهة إلى إيقاظ الوعي العام على مستوى عموم البلاد، لم يتجاوز ما يعادل ١٦٩٠ مليون روبية.

و أود أن أحاول أن يسلط الأضواء على المشكلة الكبرى التي تواجهها شبكات المواصلات في الهند، فله أن يصفها بهذه الكلمات . مع اعتراف بتقدم هائل في تقنيات المعدات التقنية ، إلا أن هنالك نقصا خطيرا في الخبرة القادرين على تصميم الرسائل مؤثر و في صلة بحقل الديمقراطية و التنمية (إلى أبعد الحدود) بعبارة أخرى وجود الوسيط في مكانه لا يأتي مقترنا بوجود الرسالة.

الديمقراطية من خلال الحملات لتعليم الكبار :

لا شك في أن الهند تسبق على غيرها من شعوب العالم الثالث فيما يتعلق الأمر بالسعي في السعي لإعداد ماسة لجمهور الديمقراطية. و بالرغم منه فإن تعليم الكبار نال اهتمامه قليلا كقانية عام ١٩٣٣م. و لأول مرة حظي هذا القطاع بالأولوية في الخطة التنموية و التعليمية التي رسمت أثناء فترة حكم حزب جنتا بقيادة مورارجي ديساي في أواخر العقد الماضي. في هذه الفترة خططت الحكومة برنامجا لتعليم الكبار مستندا إلى (كلمة تكور ١٩٧٧ـ ١٩٨٧) الافتراضات الآتية :

أ) الأمية تشكل عقبة خطيرة في طريق التنمية على مستوى الفرد و الشعب بوجه سواء.
ب) التعليم عمل مستمر من المهد إلى اللحد
ج) التعلم و العمل و الحياة مرتبط بعضها مع البعض .
د) وسائل التنمية لا تقل أهمية عن أهداف التنمية
هـ) يمكن رفع مكانة الأمي و الفقير من خلال التثقيف و الوعي و العمل

بعد عودة حزب الكونجرس إلى الحكم تسلط بعض المخططين "البرنامج الوطني لتعليم الكبار" من الاعتبار على البداية بأن ذلك البرنامج لم يكن سوى حدث عابر و الضجيج الأمد، أريد من خلاله تحقيق مكاسب سياسية عاجلة و بعيدة عن معنى الأصالة ، و لم يقترنه أي التزامات على مستوى الأمد البعيد.

كان البرنامج الوطني لتعليم الكبار موجها إلى تغطية مئة مليون رجلا و إمرأة في ٢٢ ولاية و تسع مناطق اتحادية (Union Territory) من عام ١٩٧٨م إلى ١٩٨٤م، و الثلث من هذا العدد كان من الشيوخ. لقد وضع هذا البرنامج ليكون فيما بعد برنامجا تعليميا مرنا و شاملا حتى الحياة كلها، و ليحول المجتمع كله إلى مجتمع متعلم في نهاية المطاف ، و الأهداف التعليمية تضمنت معرفة القراءة و الكتابة و الوظيفة و الإلمام بالتنمية، و رسمت المناهج بطويل

ماليزيا و كانت مرنة و مفتوحة ، و متناغمة بدقة . لقد أصبح البرنامج الوطني لتعليم الكبار، برنامجا للجماهير. و من ناحية التخطيط و التنفيذ أصبح بمنسابتين في برنامج مختلف، و المراحل و الأنشطة المرتبطين جميعه، ارتبطت – على وجه مؤثر – مع التنمية الريفية للمجتمع، و مع التنمية الحضرية المرسومة على التخطيط الموجه إلى خلق فرص العمل داخل المنطقة.

إلا أن هذا البرنامج أيضا أصيب بمواطن ضعف، تمثل أكبرها في عدم وضوح أهداف العمل. و بما أن المخططين أنفسهم لم يعرفوا الأهداف معرفة جلية، فإن عدم الوضوح ذاته انعكس في المناهج الموضوعة أيضا. و الأمر كان أسوأ منه بالنسبة لمن تولوا العمل في الميدان – فإنهم كانوا أقل عددا و إعدادا و غير مؤهلين لترجمة تلك الأفكار في صورة " عملية تكاملية " (Strategic Action) و الجوانب الأخرى من المشكلة تتمثل في المكافآت القليلة (... و ربما غيرها) المدفوعة للمشرفين و في كونهم غير مدربين تدريبا وافيا و كافيا.

و بالرغم من مواطن الضعف الآنفة الذكر فإن وسائل الإرشاد كانت مشروعة . و استخدمت الإلكترونيات و المواد المطبوعة وغيرها من الوسائل التعليمية الخارجة بجانب المواد التعليمية التي تتماشى مع حاجات الدولة الماليزية. و هكذا فإن نظام التقويم كان متكاملا و لو أن تطبيقه لم يكن كذلك على وجه من الوجوه .

وسائل الإعلام الحاسمة الأخرى المستعملة في التنمية الوطنية :

تستعمل الأفلام و المسرح و الإذاعة و الفيديو و الكمبيوترات استعمالا واسعا في الزمن الحاضر. لقد أصبحت تلك الأجهزة في شيوع استعمال الراديو و الأفلام كوسائل رئيسية للاستعلام و التسلية . و المتوقع أن تصبح الكمبيوترات و الفيديو لفترة زمنية من احتياجات الأغنياء ، و تكون بالتالي عالية في طريق محاربة الأمية، و بعرض خلق الوعي إزاء حاجات المجتمع أيضا تستخدم المسرحيات التي تقدمها الفرق على الطوائف في مختلف أنحاء البلاد استخداما جيدا و مؤثرا.

تحليل المشكلة :

يمكن أن تصنف المشاكل التي نواجهها في استخدام وسائل الاتصالات لأغراض محاربة التعليم في فئتين :-

أ) البسيطة من تلك المشاكل التي تتصل بالتكنولوجيا.

ب) و المعقدة منها و التي هي في طبيعتها غير تقنية.

المشاكل المتصلة بالتكنولوجيا تتضمن المشاكل القابلة للانقسام إلى البسيطة و المعقدة و هي :

– عدم توافر الوسائل التكنولوجية بمعايير مناسبة.

- عدم التعامل مع الحاجات.
- إبراز المهارات لتخطيط و تصميم الوسيلة
- نقص الأموال المخصصة للإنفاق على الأنشطة على وجه العموم.
- تدني مستوى التدريب على التنظيم و تحديد المشكلات و العمل الجماعي.
- إبراز المهارات المطلوبة للإدارة المتوسطة.
- المشاكل المالية المتمثلة في السلطات و قلة الأموال المتوفرة للوسائط و كون البنية الأساسية غير مواتية.

و من المشاكل غير التقنية التي تعترض الطريق المؤدي إلى هدف ممارسة التعليم بالمعنى الحقيقي، نجد:

أ) المشاكل الإيديولوجية و الروحية.

- الحياة مباشرة في الجماعات غير موضحة المعالم
- التنافس القيم.
- نظرة سلبية للجسد تجاه الحياة الثقافية
- الإيمان بالنفس و القضاء.
- كون المسؤولية عند الخالق غير واردة في المعتقدات.
- فصل العقيدة و الاتجاه و السلوك بعضها عن الآخر

ب) المشاكل الاجتماعية:

- العلاقات بين الأشخاص يتحكم في ظل الجماعات المستمرية.
- الصراع القائم على الطوائف القومية.
- التعصبات اللغوية و الإقليمية.
- الحسد و محاباة الأقارب.
- وقوع القيم القديمة موقع رقابي أعمى لا لسبب سوى كونها غير منسجمة مع ثقافتها.
- الافتقار للاستعداد للتغيير و إبراز التدريب حسب العمل الجماعي و الديناميكية الجماعية.
- شيوع الأمراض و الظروف الغير صحية.
- محورية الموارد الإنسانية على المستوى الحكومي، و من دون جدوى.

ج) المشاكل السياسية:

- التنافس السياسي: الوصول إلى الحكم مهما تكن الوسيلة.
- عدم الحفاظ لمبدأ / المواطنية أساسا للتوجيه الانتخابي.
- المشروعات و الأموال التي تتفق على الحركة الانتخابية.
- الاتكال على الكلية المتصلة أكثر منه على التنمية المستهدفة لأفراد المجتمع.

د) المشاكل الاقتصادية :

- انخفاض الإنتاجية الزراعية (بسبب الفيضانات و القحط و الظروف الجوية).
- التوفير حسب المستوى المطلوب.
- انعدام إدارة الأعمال صغيرها و متوسطها بوجه خاص
- الآفات السماوية.
- استخدام التقنيات المهجورة في الصناعة و في إنتاج القطاع الصغير الأهلي .
- الاعتماد المتزايد على الآلات خاصة في قطاع الصناعة الثقيلة.

هـ) الغزو الثقافي : خطة وكالات الإعلانات الدولية لنشر إعلانات مماثلة من دون رعاية القيم الثقافية، و استخدامها لتنمية الاستهلاك المادي .

- الفوضى السياسية و زيادتها الناجمة عن (الحكومات الرأسمالية المستبدة) من عدم استقرار الظروف السياسية و الاقتصادية و عن انتكاس القيم الثقافية في العالم الثالث).

الاستنتاجات و الحلول المقترحة :

بالنظر في التقارير التي تتناول موضوع استخدام وسائل الاتصال لأغراض التنمية مثيرة للاهتمام في العالم الثالث على وجه العموم ، و في الهند على وجه الخصوص، يتبين أن هناك مبررا للاعتراف بأن الأخطاء في الحسابات في مجملها تعود لأسباب غير تقنية أكثر منها لأسباب تقنية . و بعبارة أخرى فإن المشاكل التي تواجه الهند في هذا المجال ، ناجمة عن أسباب ايديولوجية أكثر من أسباب فنية.

في واقع لا يوجد ثمة مشاكل تقنية ، و لها حلول تقنية ، لا توجد ثمة مشاكل غير تقنية محضة و بحلول غير تقنية محضة. ففي مصر زمن حكم جمال عبد الناصر تم توجيه الرسالة الاشتراكية العلمية و الثقافية المعاصرة، و إذاعة القاهرة تولت نشر تلك الرسالة مع الأغاني الشعبية في صوت أم كلثوم. إلا أن المجتمع المصري الذي استمع إلى الأغاني بشغف ، لم يكن يتقبل في قلب الجهاز بصبره أن بدأ في بث رسالة الحكومة، و بعكس الناصر فإن غاندي و نهرو و تيتو و سوكارنو استخدموا ، بنجاح ، القنوات التقليدية مثل الاجتماعات العامة و الأسواق و المساجد لتوصيل رسالتهم الثقافية الشعبية إلى عامة الجمهور، و الخميني دمج تكنولوجيا الاتصالات مع المسجد في ايران لأغراض التعليم و نشر رسالته الثقافية و الاجتماعية و السياسية معا. (مولانا ١٩٨٦م).

العالم كله يشهد ثورة في مجالي الثقافة و وسائل المواصلات، مما يؤدي بكل من الرأسمالية و الشيوعية لمستجدات طاقتهما، و القضايا الرئيسية التي تواجهها الشعوب ليست فقط سياسية أو اقتصادية أو ثقافية، و إنما هي جميعها متشابكة بطريق لا يمكن فصل بعضها عن الآخر. يعلق كوتشر جيرالد على هذا الوضع و يقول: يجب أن تكون لديهم [أي لدى الرأسماليين و الشيوعيين في العالم الثالث] جرأة لنفض المفاهيم و النظريات حجرية الصلابة، و التفكير مجددا بـ كلية – مع الموضوعات المطروحة في بعض الأحيان، و الانطلاق من جديد من واقع الضرورات و المشكلات و دراستها موضوعيا. هذه التوجهات مشابهة في الاتجاه من كل من الماركسية و النماذج المجربة للاشتراكيات الثورة العربية.

و يقول مناتويه [الكاتب] انه ينبغي العمل على البحث عن سواء طريق و منهج في إطار الاشتراكية المؤسسة على حرية الفرد و على النماذج الحديثة للتكيف الاجتماعي. كما يجب أن يكون هذا النظام الجديد قائما على مبدأ المسؤولية التي تجعل من الديمقراطية شرطا لاستعمال الفائض خدمة للمجتمع لكي يتسنى بذلك الطريق تكريس ثمرات التقدم الفني و توزيعها بين الأفراد توزيعا عادلا.

من هذا المنطلق الثقافي نطرح بعض الاقتراحات أن تكون عونا على حل بعض المشاكل التقنية و غير التقنية و هي:

1 - تدريب المعلمين و الفنيين بتخصيص مجال الإرشاد و علماء الاجتماع و الخبراء في المواصلات و في المواد المطروحة، على العمل جماعيا.
2 - إلمام هؤلاء الخبراء و العلماء و تدريبهم في المناقشات التي تتناول المواضيع الاقتصادية.
3 - توجيه مخططي الاقتصاد و المستثمرين و إشراكهم في الحلول و القضايا المرتبطة بخدمة المجتمع.
4 - تدريب و تحسين البرامج و غيرهم من العاملين [في المواصلات] على التفكير الإبداعي و على خلق تصاميم للوسائل الإبداعية و إعطاء الإنتاج صورة و هيئة و تصميم البيئات التعليمية المفتوحة.
5 - تطوير الصلة بين المعاهد المختلطة [دون المعرفة بالمسائل] و القرصنة و المعلومات بل لقيمتها في التكامل و الأعمال و المؤسسات و المنظمات.
6 - رؤية واضحة للهدف الوطني و لهدف حركة الإنسان، و رؤية للكون.
7 - إقامة أنظمة للقوانين و الموازين، و تطبيقها على القائمين بالعمل السياسي جميعهم. [ليس هناك أحد فوق القانون و الموازين الأخلاقية].
8 - احترام ملكية المجتمع.
9 - استغلال الموارد العامة خدمة للفقراء و المحتاجين، و ليس للأغنياء على حساب الفقراء.

تعريب : د. الصعدي

التنعّم في الشقاوة و الانحلال

بقلم : البروفيسور مختار احمد الفاروقي
رئيس قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة دهلي

قبل أن نستعرض أوضاع مجتمع يجب علينا أن نعلم أن تقدم الشعوب و انحطاطها شيء طبيعي ، و أن الانحطاط يعقب التقدم كما أن الانحطاط يعقبه التقدم و الازدهار ، و أن أي شعب من الشعوب لا ينفذ طريقه إلى الانحطاط و الزوال دون عوامل و أسباب. و من أكبر عوامل الانحطاط هو التغاضي عن محاسبة الذات و نقدها. إن شعبا أو مجتمعا يعمى عن سيئاته يتعثر بمساوئه، لأنه إذا لم توجد فيه محاسبة الذات فلا توجد فيها المطالبة أيضا. إن كل شعب له عدة جوانب ، و كل من يريد أن يحتفظ بوجهة نظر علمية عليه أن يقلب الأمر على جوانبها. و الإنسان يعتبر أكرم و يشتهيه بعقله ، فمن اللازم أن يقوم بإصلاح نفسه قبل إصلاح أعماله. و الإنسان حينما يطرح العقل جانبا فتتحكم عليه العواطف و الأهواء حسب العواطف، فيفقد لب التفكير على خطوط سليمة صحيحة. و من البديهة البديهة أن نعلم أن العاطفة تسير كما نريدها أن تسير. و العقل يحدث الاتزان في حياة الإنسان ، أما العواطف المطلقة فتخل بميزان الحياة.

و العواطف لها مسببات عرقية و مذهبية و لغوية و إقليمية و العصبية تعمي القلوب، و تسلط على الظلم و الإجحاف و الخيانات و الخبائث تحرم الناس من حقوقهم ، و بالتالي يحدث القلق و اليأس في أفراد المجتمع ، و الظلم يشجع على مواجهة التحديات . إن الإنسان حيوان اجتماعي ، يتطلب بالعزلة و الوحدة، و يجب أن يعيش بين أبناء جنسه، و قد خلق الله سبحانه و تعالى المجتمع البشري بحيث أنه جعل الإنسان عزاء الأخ الإنساني. و جعل أمور الناس متشابكة و مرتبطة إحداها بالأخرى، فإذا أخذ طبقة من المجتمع يشعر أنه حرم من حقوق يتمتع بها الآخرون فتشعر فيها قوة مطالبة الظلم و الخيانة ، و يؤدي ذلك في نهاية المطاف إلى تهديد استقرار المجتمع و ثروته. إن الطبقة التي تحكم على البلاد تسيطر على مصادر الإنتاج فيها،

و تزويد الانتاج بمواردها الاقتصادية أكثر فأكثر دون غيرها. فلا يصير إلى أيدي عامة الناس إلا قدر ما يجب لبقاء مصانع الطبقة الحاكمة، و هكذا يجري تقسيم الأموال بصورة غير عادلة، و يتولد التذمر و القلق في الطبقات المختلفة. و لكن إذا قسمت الأموال بصورة عادلة مشروعة فسوف لا يوجد الاستغلال، و تشعر كل طبقة على أنها على قدم سواء مع الطبقات الأخرى، و يسود الرفاه و الرخاء في المجتمع. و ينبغي أن لا ننسى أن التطور الاشتراكي مطلوب(?) بشدة يؤدي إلى إجحاف حقوق الآخرين.

و الطبقة التي تستغل مصادر الانتاج، و تتمتع بها دون سائر الناس، تسعى إلى أن تشغل الجماهير في قضايا تافهة غير مهمة، إذا أمعنت فيها النظر أو استعرضتها استعراضا عابرا فلا تجد تلك القضية(?) قضايا وطنية أبدا. و هكذا يسقط الجهلاء(?) المخدوعون(?) ضحيتها [illegible]، و يتهالكون فيما بينهم، و تستمر(?) الطبقات المستغلة فرص لتكديس الأموال و جمعها. هناك طرق عديدة لإبعاد الناس عن المشاكل الحاصلة من الحماقة(?) و الحكومة، و إلهائهم عن الحقائق. و أنجع هذه الطرق و أكثرها تأثيرا هو استغلال الدين، و من ميزة الدين أنه إذا لم يطلع الإنسان على روحه و فلسفته و نظريته عن الحياة و الكون، فإنه يوصله إلى عالم خيالي لا يمت إلى حقائق الحياة الحية بصلة ما، و يجلس الفرد، مغمض العينين، في أي مكان شاء، و يسافر في الخيال، و يظن أنه يستفيد من هذا المكان نفسه.

إن نفع الدين الأصيل هو أنه ينقي باطن الإنسان، و يطهر المجتمع من الفساد و المساوئ الخلقية، و يخلق الانسجام و الحب و الصداقة و الوحدة بين الناس، و لكن معرفة ناقصة من الدين تولد التوهم، و يظن الإنسان بأن الأشجار و الأحجار و الحيوانات و الكواكب كلها تعلم مكسبه و حاجته و مستقبله، و هو وحده لا يعلم شيئا بين سائر موجودات الكون، مع أننا نرى أن الإنسان هو أعظم المخلوقات بأسرها قدرة و قوة و أكثرها علما و معرفة، و هو بالرغم من ذلك يعتبر نفسه عاجزا غير قادر على شيء. و قد يذهب به التوهم إلى أنه يقيم [illegible] علاقة [illegible] الأمراض [illegible]، و لا يهمه تحليل الحقائق مكتفيا بتوجيه الخرافات. إن التوهم و العقيدة الواهنة و الأوهام بعالم خيالي يصدر من الكسل و طلب الطمأنينة بصورة لازمة، و بالتالي يطلب الإنسان الطاقة على مؤهلاته و فكره و عزيمته. و قد قال علي رضي الله عنه: "عرفت ربي بفسخ العزائم" و ذلك يعني أن عزيمة الإنسان مهما كانت قوية لا يستطيع أن يفسخها إلا شيء فائق الطبيعة. كذلك يعلمنا التاريخ على أنه متى ما يصبح الجمهور خاضعا للدين، فإنه يتدخل في العلوم. كما نرى في القرون المظلمة في أوروبا، حيث كانت الكنائس تنزل عقوباتها صارمة على الذين كانوا يتحدثون عن الاكتشافات العلمية. إن كبت البحث العلمي و الأفكار الحرة في مجتمع إلى مدة طويلة يؤدي إلى الانحطاط، و المجتمع [illegible]

لا يكبت الأفكار الجديدة . و إن كانت صريحتها على التفكير التقليدي حرية الفلسفة . و ينبغي أن يكون الدين مجموعة للقوة الروحية ، لا باعثا على الفوضى و الكراهية و العداوة و الفساد في المجتمع . إن هذا الاستغلال الرهيب للدين يرمي إلى إطالة التعاليم الأساسية للديانات و مؤسسيها و كتبها المقدسة . في كتاب مقدس لدين من الأديان يقول إن السرقة عمل حسن . أو أن الكذب يكتب على الجبهة . أو يحل قتل الأبرياء . أو أن [illegible] و المجتمع الذي يحيط فيه أتباع ديانات مختلفة يجب على أبنائها أن يطلعوا على المعتقدات الأخرى و يتعرفوا على نقاط مشتركة فيما بينها . و يسعوا لتشريع نظرية عالمية للدين . و من لا يعلم إلا دينه كأنه لا يعلم دينه نفسه

و انتقال الحضارات ومنهجة للتنمية الحضارية أيضا سبب من أسباب الانحطاط . إن العمران الحضاري لا يوجد مجتمعا صالحا بل بالعكس من ذلك إن مجتمعا متحضرا تتوفر فرص النمو و الازدهار لحضارات متنوعة مختلفة لاختيار أحسنها منها . و الطبقة الغنية قد تمنع الشعب بإبقائهم في جب التخلف . إن الحضارة لا توجد بقرار بشأنه مؤتمر أو باجتماعات تحت إشراف لجنة علمية - و لكنها شيء كالهواء و جارية كالشلال . و تولدت الطبيعة هي التي تمدها إلى الوجود . و لذلك أنشأت مجموعات تكوين حضارة مستقلة في كل عصر . إن الحضارة إنما تتولد من الروابط الاجتماعية الممتدة عبر القرون . و الصلوات الصغيرة لمجتمع مشرف على الزوال تجوف تركة جسم تلك الحضارة . و بعد فترة تختفي روحها أيضا . حتى تصبح أخيرا جزءا من التاريخ تعتبر بها الأجيال القادمة . و بقيت الرسوم الخطية مثل الزلزلة . و قد تولدت حتى الآن ثمان و عشرون حضارة على هذه المعمورة . و كانت لكل منها دورة و صولة في الزمن الذي وجدت فيه . و لكن ثماني عشرة حضارة منها دفنتها تلك المؤرخ الفلسفي توين بي - قد اندثرت المذكورة تماما . و تسع حضارات آخذة في الاندثار . و لم تبق حتى الآن إلا الحضارة الصناعية . و لكن هذه الأخيرة أيضا تصنع أسلحة فتاكة يمكن أن تقضي على حياتها . و قد آن لنا أو يلقى الإنسان لحرب كونية رابعة على هذه المعمورة فإنه يحارب بالحجر و العصي . إن التوتر و الاستغلال الاجتماعي اللذين يتراءى لنا في العصر الراهن هو نوع من أنواع قانون الغابة . حيث تفترس السباع القوية حيوانات صغيرة لا قبل لها بها . و إذا لم يستطع الإنسان التخلص من هذا القانون بعد فكيف يحق له أن يدعي الازدهار الحضاري .

ثم ما هي مفاهيم العزة و الإجلال و التكريم في مجتمع متحضر ؟ و قد كان الإنسان حيوانا كاسبا للحسب . فلكن مظهر التفوق بينه و بين حيوانات الغاب . إننا ما نعلمه حتى الآن كيف ينبغي أن تكون العلوم و الفنون كما لا يوجد لدينا تصور واضح عن القيم العلمية . و كذلك ما عرفنا تعريفات صحيحة للخير و الشر و المعروف و المنكر و الصلاح و الفساد . فكيف

التقدم في الحضارة و الانحطاط

بمكانة أن نحسب المعلومات التي نلتقطها من هذا النسيج الاجتماعي الخاطئ بصفة العلم إن الفنان تحرق كل ما تسعيه . و لكن الفن الذي لا يحرق فليس بوسع أحد منا أن يحوله نارا .

إن غاية العلم هي أنه يعرفنا بالحقيقة فإذا لنا عاطفين عنها، لمن يملكنا علمه كأنه أكثر العلم نفسه. إن التعليم تستطيع التخلص بسبب الفوضى في تكويننا . و يعوّدنا على تحليل و تفسير الحقائق تفسيرا خاطئا . و يدفعنا إلى انتهاك العلوم العالمية، و يحول بين تنشئة وعي سليم صالح عن المجتمع و التاريخ . و ذلك لأننا لم نستفد التربية من التعليم . و ليست الأخلاق جزءا من مناهجنا الدراسية. و لو كانت الأخلاق جزءا من مناهجنا لنشأ فينا شعور للعلاقة الإنسانية إلى حد ما. إن الإنسان هو الأول و الأخير اعتبارا في هذا المجتمع . و بخاصة في ذلك المجتمع الذي يختلف عن المجتمعات الأخرى في سياق الحضارة الصناعية

و لكن المشكلة الكبرى هي أن المجتمع الذي هبط في هوة التخلف و الفوضى و أصبح فريسة للاستغلال بسبب أسباب الانحطاط . فهكذا إذا لم يستطع مجتمع من المجتمعات أن يتقدم فكريا لأنه كان يعيد سيرته، و كان يصيبهم أكثر من الأشياء . فلا تستطيع أن تجرؤ على إبداء رأيك فيه . و إنه الحاصل أن يشعر بإهانة الأسلاف و التقليل من شأن الآباء . إن الانحطاط يرتبط بأسباب الانحطاط . لأنه لا يعتمد على شخصية ذاته . و يحسب ذلك الناقصين له هذا القدر . و يستقل الإنسانية . كما أن التعاطي للظروف يضع جزءا من الأكبرين في ذهنه، و ينحني و يظن أنه يصيب الصواب الحقيقي . فكيف يمكن أن يتخلص مجتمعنا من هذه الكارثة ؟

حمى الدق
في ضوء الطب الإسلامي (اليوناني)

بقلم : الدكتور شبيه الحسنين أحمد القدوائي

إن مرض حمى الدق الذي يوجد في سائر العالم و في الدول المتقدمة بصفة خاصة ليس من منتائج الطب الحديث ، بل الطب الإسلامي و الأطباء الكبار القدامى من أمثال الطبري و بوعلي سينا و أبو سهل المسيحي وغيرهم ذكروه بشرح و بيان في كتبهم و مؤلفاتهم ، و بحثوا عنه من خطورته و ما هي الأسباب التي تؤدي إليه و ما هو الطريق الأمثل لعلاجه.

ينشأ هذا المرض من "عصية السل" (MYCOBACTERIUM TUBERCULI) و من خصائص هذا المرض أنه يؤثر على القلب ويفسد من الأعضاء الرئيسية و يبدأ بتحليل الرطوبات. يقال لهذا المرض "حمى الدق" ، و معنى الدق لغة "النحافة و الهزال" ، و سمي الدق لأنه يهزل بدن الإنسان. و يقال له باللغة الإنجليزية (Hectic Fever) ، و أصل ذلك الكلمة اليونانية (HEKTIKOS) و هي تعني "المعتاد و المألوف" لأن الحمى تعود على الإنسان مرة بعد أخرى.

عرف هذا المرض في الطب الإسلامي منذ قديم ، ففي مؤلفات الأطباء القدامى و الأطباء المسلمين من أمثال بقراط و جالينوس و روفس و الطبري و الرازي و بوعلي سينا و أبو سهل المسيحي و علي بن عباس المجوسي ، يوجد معلومات مفصلة عن هذا المرض و لكن الجرثومة الخاصة التي هي سبب هذا المرض كشفها للمرة الأولى الطبيب الشهير الألماني روبرت كوخ (ROBERT KOCH) عام ١٨٨٢م . أما بعض الأطباء القدامى من أمثال الطبري و بوعلي سينا و أبو سهل المسيحي فجعلوا سبب هذا المرض "عفونة الخلط" (التي تتولد بسبب تحول بعض الجراثيم في البدن). و أما خطورة حمى هذا المرض فهي من الاكتشافات لعلماء العرب، و يدل ذلك أن مهرة علم التشريح "مارجوني" و "واستلو" كانوا يمتنعون عن تشريح الأجسام الميتة حتى القرن السابع المسيحي بسبب فقط ألا يصيبهم المرض عينه ، و من ثم كانوا يعرفون

طرائق المصابين بالسل و شبابهم و علاجهم لها بعد موتهم

إن الجسم البشري يتألف من ثلاثة أشياء : "الجامد" كالأعضاء الجسدية، و "المادة السائلة" كالرطوبات، و "المواد الهوائية" كالروح. كما قال جالينوس :

"إن البدن الإنساني هو مركب من الأشياء الجامدة و السائلة و الأرواح".

و قال أبو سهل المسيحي أيضا مثل ذلك

"جملة البدن تشتمل على ثلاثة أصناف من الأجسام :

أحدها : الأجسام التي لها في أنفسها ثبات و صلابة، و تحتاج إلى الانحصار في الأوعية يحويها تمنعها من السيلان، و هذه هي الأعضاء".

و ثانيها : أجسام رطبة سيالة محصورة في أوعية تمنعها من السيلان، و هي الأخلاط.

و ثالثها : أجسام رطبة بخارية محصورة في أوعية عظيمة تمنعها من التحلل سريعا، و هذه هي الأرواح".

و الطب الحديث أيضا يوافق على هذه النظرية أنه توجد في البدن ثلاثة أشياء : الجامد (SOLIDS) و السوائل (LIQUIDS) و الروح (GASES).

ثم قسمت الأجسام الرطبة إلى ثلاثة أقسام كما ذكر ذلك أبو سهل المسيحي في كتابه.

"و رطوبات البدن ثلاثة :

أحدها : الرطوبة الاصطلاحية التي بها تتصل أجزاء الأعضاء بعضها ببعض، و هي التي متى فنيت تلاشت الأعضاء.

و الثاني : الرطوبة التي في العروق.

و الثالث : الرطوبة التي في التجاويف الخالية بين الأعضاء".

و الطب الحديث أيضا يؤيد هذه النظرية فيقول إنه يوجد في البدن ثلاثة أنواع من الرطوبات (Intracellular, Extra cellular, Inter cellular).

و إنما تصيب الحمى إذا تولدت الحرارة الغريبة في البدن التي تؤثر في أحد الأجسام الثلاثة (الأعضاء و الأخلاط و الأرواح) ثم إن أثرت هذه الحرارة الغريبة في الأرواح فتصيب "الحمى اليومية" و إن أثرت في الأخلاط فتصيب "الحمى الخلطية"، و إذا أثرت في الأعضاء فتصيب "حمى الدق". كما كتب أبو سهل :

"الحمى حرارة خارجة عن الطبيع، فهي تكون في موضوع لا محالة و ليس في البدن جسم هو جزء من الأجزاء غير الأعضاء و الأخلاط و الأرواح.

فمتى كانت في الأرواح كانت حمى يوم، و متى كانت في الأخلاط كانت حمى الخلطية، و متى كانت في الأعضاء سميت حمى الدق"

و كذلك قسم ابن سينا و الطبري الحمى إلى هذه الأقسام الأساسية.

و ذكر الأطباء المسلمون سببين لهذا المرض:

الأسباب المهيئة للمرض (Pre - disposing Causes)

و الأسباب الخارجية (External Causes):

إن الأسباب الموهنة هي التي بوجودها يتم الاستعداد لقبول مرض السل كالفقر و الجوع و الوراثة و المهنة و المسكن و سوء التغذية المستمرة. هذا، و من الممكن أن تكون بعض الأمراض الأخرى أيضاً سبباً لهذا المرض من مرض الالتهاب الشعبي الرئوي (BRONCHO PNEUMONIA) و الحصبة أو السعال الديكي (WHOOPING COUGH) و النزلة الوافدة (INFLUENZA) و مرض البول السكري (DIABETES) و ما إلى ذلك.

و الأسباب الخارجية هي التي تؤثر من الخارج كالحزن و الهم و الغضب و التعب و الأرق المفرط و الجماع المفرط و الغذاء غير المتوازن و البيئة القذرة و البيوت الضيقة و تعاطي الخمر و التدخين و ما إلى ذلك.

إن هذه الأسباب الموهنة و الخارجية تضعف قوة مناعة الإنسان فتحدث الاستعداد لقبول الأسباب الباعثة (EXCITING CAUSES) أي الجراثيم في البدن. و هذا النوع من الجراثيم عند الاكتشاف يسمى بعصيات السل، إنساناً كان أو حيواناً، ينقل هذا المرض بكل سهولة. و عامة تكون عملية التعدي هذه بواسطة التنفس أو بالأكل و الشرب حيث تدخل الجراثيم في البدن. و في الرئة على وجه التخصيص تكون الدرني، ثم تتولد مادة السل. و هذه المادة بعد دخولها في الدم تصل إلى القلب، و يأخذ القلب يضخ و يولد الجراثيم الغريبة، و تسري هذه الجراثيم إلى سائر أعضاء البدن بواسطة جريان الدم، و شيئاً تؤثر في الرطوبات البدنية.

و قسم الأطباء المسلمون هذا المرض إلى ثلاث مراحل و الطب الحديث أيضاً يؤيد هذا التقسيم.

مراحل المرض:

في البداية يعتري المريض كآبة و يبقى حزيناً، و يحس بالوجع بعد الأكل في الصدر و تحت عظم الترقوة و تحته، كما يشعر الألم في جنبيه إلى الظهر، و يشتد الوجع عندما يسعل، و أحياناً يخرج بعد السعال البلغم. كما يشكو سوء الهضم، و يكره المريض الأغذية الدسمة و تسرع حركة قلبه و نبضه سريعة، و كذلك حركة التنفس أيضاً تكون سريعة إلى حد ما، و يجد صعوبة في التنفس عند العمل الشاق، و المريض يهزل و يضعف يوماً فيوماً، و في المساء تزداد الحرارة عامة.

و في الدرجة الثانية من المرض يقل جميع المريض، و يتحسس الصدر و الكتف، و يشتد السعال و يخرج البلغم الذي يكون ممزوجاً بالقيح، و يجد صعوبة في التنفس، و الهزال الضعف و الهزال يتعاظمان على مر الأيام، و كذلك حركة القلب أيضاً تستمر في إزديادها، و ترتفع الحمى ليلاً و نهاراً.

و في الدرجة الثالثة من المرض تكون هذه الأعراض شديدة و تكون الدرجة

أوجاع في المفاصل، و يشتد السعال صباحا، و يخرج البلغم أكثر بزيادة من النوم، و كذلك يسيل البول كثيرا في الصباح، و يكثر الهزال، و تسقط الأشعار، و تبيض الأظفار و تصير معوجة، و تبدو آثار في الجسم و الظهر، و قلما يحس المريض بالجوع، و لا يزال المريض يعاني من القيء و الإسهال، و يطول حتى لا يستفيد، و تتورم اليدان و الرجلان حتى تكون مقدمة للموت.

الإجراءات الوقائية :

إن الجسم البشري لا يتأثر بالجراثيم أو الأسباب الوراثية (Resisting Power) إلا إذا ضعفت فيه قوة الدفاع، فمن الواجب الاحتياط في كل ما يؤدي إلى ضعف البدن الإنساني، و منها فيه الاستعداد لقبول المرض كالأمكنة القذرة و السكنى في البيوت التي لا تصل إليها الهواء و الشمس و استعمال الغذاء الناقص و تعاطي الخمر و استعمال المسكرات و الإفراط في الجماع و التورط في العادات القبيحة و استعمال الشيء المتعفن الطبيخ و تناول الطعام دون غسل الأيدي، و لذلك نجد في الإسلام تعليمات تهدف إلى حفظ البدن الإنساني من مخاطر الأمراض الخبيثة، فقال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: "لا يغمس أحدكم يده في إناء حتى يغسل يده ثلاثا" و قال في حديث آخر: "كل مسكر حرام" و ما إلى ذلك.

طريقة العلاج :

لابد من مراعاة البرودة و الرطوبة في الطعام و الغذاء و الأدوية. فالواجب أن يعطى هذا النوع من المرضى الأغذية المطلية كماء الشعير و خبز الحنطة الموضوعة في الماء البارد و لحم الغنم و فراخ الدجاجة و العصافير المطلية، و تعد هذه الأغذية من أحسن الأغذية للمصابين بمرض السل، و كذلك يحسن أن يأكل المريض البيض و الحلوى، و لكن من الواجب أن لا يأكل أكثر من شهيته. و من الأحسن أن يكون غرفة المريض المعطر و الرائحة الطيبة. و كذلك يجب أن يتنظف المكان باهتمام، كما يجب إزالة الهموم و الأحزان من قلب المريض و بعد العلاج يجب إزالة أسباب المرض قبل كل شيء، و فيما يلي الأدوية التي تستعمل في علاج حمى الدق بصفة خاصة.

الاسم العام	الاسم العربي / الاسم النباتي
طباشير	طباشير (من القصب الهندي) Bambusa Arundinacea
گل ارمني	الطين الأرمني، طين أرمني Armenian Bole

[illegible]

ريشه بركد	التين البنغالي، تين المعابد الهندي Ficus bengalensis Linn
بادام	اللوز Prunus amygdalus Batsch
كدو	اليقطين، القرع Lagenaria siceraria Standl
كاهو	الخس Lactuca sativa Linn
بارتنگ	لسان الحمل Plantago major Linn
خشخاش	خشخاش Papaver somniferum Linn
كافور	كافور (مادة عطرية) Cinnamomum camphora Nees
زهر مهرة	سليكات المغنيسيوم Silicate of magnesia & iron
حب الآس	ملموطي ــ آس Myrtus communis Linn
مرواريد	لؤلؤ Pearl
ياقوت احمر	ياقوت احمر Ruby
تخم السي	بذر الكتان Linum usitatissimum Linn
اسبغول	بذر قطونا Plantago ovata Forsk
گل سرخ	الزهرة الحمراء، الوردة Rosa damascena Mill
خرفه	الرجلة، بقلة الحمقاء Portulaca oleracea Linn
زعفران	زعفران Crocus sativus Linn
گلنار	زهرة الرمانة، جلنار Punica granatum Linn

[illegible]	كبار شوكي - الأبثرس الكبابي Capparis spinosa Linn
كثيرا	كثيراء Astragalus gummifera Linn
انجبار	انجبار Polygonum viviparum Linn
صندل سفيد	صندل أبيض Santalum album Linn
ملیٹھی	أصل السوس Glycyrrhiza glabra Linn
بہیدانہ	السفرجل Cydonia oblonga Mill
گل نیلوفر	النيلوفر Nymphaea alba Linn

المراجع:

١ - أبو علي ابن سينا: القانون في الطب (ترجمة أردية) الجزء الأول - [illegible] ، [illegible] عام [illegible]م .

٢ - علي ابن العباس المجوسي: كامل الصناعة (ترجمة أردية) الجزء الثاني ، [illegible] - [illegible] . عام [illegible] م .

٣ - أبو سهل المسيحي (كتاب المائة) - [illegible] - [illegible] عام ١٩٦٠م .

٤ - [illegible] ، عام ١٩٦٢م .

٥ - غلام جيلاني - مخزن المفردات ، الجزء الأول ، [illegible] ، عام [illegible]م

٦ - منير البعلبكي: المورد ، دار العلم للملايين ، بيروت ، عام ١٩٧٧م

شاه عبد اللطيف

و

الثقافة المركبة من عناصر مختلفة في الهند

بقلم : هـ. ت. سورلي

كان من عام ١٧٥٢، الشهر الذي تذهب فيه الكراكي و العشاق يغادرون، شهر مايو، شهر العاصفة الهوجاء و الهواء المسموم في السند. مرتديا عباءة ملونة سوداء و عمامة بيضاء، كان درويش مع عصا في يده يمشي عبر الصحراء. فلاقاه [illegible] (WANG WELA SUR) قرب كرتهار .

"أين تذهب في هذه الصحراء، أيها الشاه الكبير؟ إن مريدك المتواضع يسألك." "إلى كربلاء" أجابه الشيخ. "فالذي يحن إلى كربلاء يا بني." "لكن يا أبي الموقر، كانت طويلة ولكنها [illegible] سوف تتقن في سيهون (SEHWAN) في السند. [illegible] و لقد [illegible] في [illegible]" [illegible] و [illegible].

متأثرا تأثرا عميقا بكلمات الشاب، رجع الشيخ إلى بهت و مات بعد بضعة أيام.

كان هذا الشاه عبد اللطيف، مبدع " الرسالة " [illegible] الشاعر الذي بلغ إلى مكانة عالية و الرومي و السعدي في الفارسية و فريد و وارث شاه بالبنجابية. إنه يحتل نفس ما يحتله تشوسر (CHAUCER) في الإنجليزية و الشيخ فريد بالبنجابية. ليحتل الشعر السندي و السندية شعرا.

تكشف دراسة نقدية شمولية مليئة لتاريخ الهند الماضية و عبر العصور الممتدة إلى أكثر من ألفين سنة أن بعد كل فترة مثلا حقبة إمبراطورية انهضت حركة أزالت كل حواجز الطائفية، و اللون و العقيدة و تحولت تدريجيا إلى حركة دينية، و في نهاية المطاف [illegible] من نتائج سياسية [illegible].

عندما قامت الهندوسية على رماد البوذية في القرن السادس ق. م. ظن الناس أن البوذية إندثرت للأبد، و لكن لم يمض عليها عهد حتى ظهرت البوذية بعد ثلاث مئة سنة ثانية في عهد أشوكا على الشعب المغلوبين. و خلال القرن الأول الميلادي حدث إنقسام في صفوف البوذيين في شكل "هينايانا" (HINYANA) و "مهايانا" (MAHAYANA) و ظهرت ثورة دينية في عهد "هرشا" (HARSHA) لا في الهند فحسب و إنما في العالم كله. و قد برز الإسلام كقوة دينية جديدة لها تأثير كبير عند بني البلاد. فمنذ ما دخل الهند، نشأت حركات جديدة مثل التصوف و الطرق الأخرى على يد نظام الدين أولياء و أمير خسرو، و بعد ثلاث مئة سنة بالضبط تم بروز حركة بهكتي (BHAKTI) و تبعتها بعد ذلك بثلاث مئة سنة حركات دينية جديدة في القرن التاسع عشر مثل برهمو سماج و آريا سماج و جمعية ثيوصوفية و غيرها. إن دراسة حركة بهكتي على طول الزمن ليست طريفة فقط و إنما هامة تاريخيا و مفيدة إجتماعيا و ممتازة إقتصاديا أيضا. كانت بعض الحركات منها بسيطة و الأخرى معقدة، و لكن الجوهر الذي تملكه هو هو. و لم تهدد حركة وحدة الهند. بل أعتمد كل حركة بطريقتها الخاصة الثقافة المركبة من العناصر المختلفة في شبه القارة الهندية. و من جهة منظور تاريخي أوسع، كان لها دور كبير جعلها جزءا لهذه الحركة و أنماطها بصورة ملموسة جدا كما استفاد منها.

تسببت حركة بهكتي تأثيرات إجتماعية و سيكولوجية هائلة، و خلقت شعورا من الوحدة و التضامن بين أهل الهند الذين اعتبروا كل فاتح أجنبي عدوا مشتركا لهم. و من الطريف لنعلم بكيفية إندماج الغزاة واحدا بعد الآخر في الثقافة المزيجة الهندية. فكان هذا شبه تاريخي. يمكن مقارنته بقطار كبير مزدحم متحرك إلى الأمام فقد حاول فيه مسافرون جدد الدخول فيه في كل مرحلة، و المسافرون القدامى الجالسون فيه لم يبدوا أي المقاومة المشروعة عليهم. إنتهى الأمر دائما هذا القطار الكبير ثقافيا عندما متحركا على الرغم رغم المقاومة. و كما يحدث دائما قد انقلب غزاة المرحلة السابقة إلى المقاومين في كل مرحلة تالية، و حاول المسافرون الغزاة الجدد فيه بكل ما لديهم من الوسائل منعها بوسائل العنف أو بأية وسيلة أخرى. و الراكبون القدماء في القطار و منهم المسافرون الغزاة الراكبون في المرحلة السابقة، إعتبروا ليقاوموا الغازي الجديد بكل قواهم. مما ترتب على ذلك أن حدثت كل مرحلة قد تم إدخال بعض الغزاة في القطار الثقافي الهندي الواسع و هو يتحرك إلى الأمام. هذه العملية جارية منذ أيام الآريين، إن قائمة الغزاة في الهند طويلة جدا. فمنهم اليونان، و الإغريق، و الكشانيون، و الساسانيون، و الهون، واليوتشي، و الساكيون، و العرب، و الأفغان، و الأتراك، و تتجلى هذه الروح من التركيب و الإندماج أيضا في المظاهر الأدبية في الهند ... على سبيل

المثال في شعر سورداس و ميرابائي، و سامي و دادو و سوهاتي و سبولي و ميرة، و سامانتا و كبير و رانتيا. و يتحدث راوت هذه التي ألف قصة هير (HEER) في القرن الثامن عشر، عن الأعياد المشتركة و التقاليد الهندوسية و المسلمين. كان رانجها (RANJHA) المسلم يلبس ملابس زخرفية الملون الخاصة بالدراويش الهنود و يحلق حلاقات كبيرة في أذنه و يلون جسده بالرماد و يعزف المزمار - و هي آلة موسيقية محبوبة لدى الإله كريشنا. كما يذكر رانجها زواج هير مع بابيتي، و يتحدث عن براهمة و لوناسيين و راسانتديين و العديد من الطوائف الهندوسية. كما اشترك أيضا في مهرجان العيد قرب جوغي و كانت له مهارة تامة في أكثر من ٣٦ من الأفعال الكلاسيكية الهندوسية و عندما لدغ هير ثعبان، شافت الشفاء باستخدام أدوية أيورفيدية. إنها كانت تطيع الزنجار في شعرها، و كانت معرفة مهرة هندوسية تقريبا مما يحوطي في بيت العبادة و التي رانجها مولعا بالتدر الذي يستعمل في الرياضيات الهندوسية فقط، و مع ذلك يتحدث عن الصوفية المسلمين و يجري راوت هذا أنه لا فرق بين الدراويش الهندوسي و الصوفي المسلم حيث أن كلا منهما يعتقدان بأن الله موجود في داخل الإنسان، و بأن العبادة ليست إلا سبيلا للعروج إلى مكان خلاص. توجد تقاليد الدراويش المسلمين في كشمير حتى الآن كما يوجد مسلمون (يحترمون شيئا في تلك الوادي) و قد أبقى المسلمون في باكستان تقاليدهم الهندوسية، فكانوا يستعملون الزنجار في شعورهن، و هناك أسماء هندوسية للشيوخ و هناك أسماء إسلامية للكهنة الهندوس. كان يعرف عمه عبداللطيف الذي جسر بين الهندوس و المسلمين إنه كان ضد الطقوس الدينية و زيف الكهنة و نفاق المتعصبين و أشار إلى نهر الحب كنهر الهند، النهر الذي يجتذب إليه الأديون بعيون المنظورة الأولى إليه، النهر الذي تتطهر الروح بالاستحمام فيه، انظر إلى حيث تقف عن الصورة والمعاني حيث يأوي الله الحق، ثم يقول:

' اتركتم فرصة صحبتهم
كل مهجور زاد تجربتك
إنهم الرحبة ينطلقون إلى سفر طويل
تاركين هذا العالم البهيج كالمجنى المقدس

يتحدث الشاعر عن ' سادهنا ' (SADHANA) و يتحدث عن ' ستنام ' (SAT-NAM) فيقول :

تأمل في هذا العالم إنه يشفيك من كل بؤس،
إحتفظ ' بالسر ' في قلبك وضع ' الألف ' قبل ذلك.

قال الصوفي رغم شهرته كشاعر الفارسية بعد ذلك يمكن هنا . كان

ولد الشاه عبد اللطيف في ١٦٨٩ بقرية بهانبور بمقاطعة هالا، في جنوب أنهار (السند) في عهد أورنجزيب. إن وادي السند تكون تربتها خصبة و مناظرها خلابة تنتشر القصص حيث يوجد هرابا (HARAPPA) و موهنجودارو (MOHENJODARO). كان العرب أول من فتحوا السند و حكموه بعد أن واجهوا حضارة أصلية. و لكن مر في السند حين من الزمن تحمل أهلها فيه الفتنات. و في أيام طفولة الشاه كانت السند تمر بظروف صعبة جدا. و بعد ذلك بعشر سنوات، مر سياح إنجليزي بحيدر السند فكتب أخيرا لما رأى الإنجليز في أسطولهم الصغير، يا للعجب إنهم سيحتلون السند. فلم يمض إلا بعد مئة و أربعين سنة فقط حتى اتسع نطاق تأثير السند إلى أراضي الكتور تاجرتي. و قد تجلى تصوره هذا في سيرته الذاتية التي كتب فيها فصلا تحت عنوان "بخاري" (ورثناه إيضا) و بعد ذلك بقليل انتقل أبوه شاه حبيب إلى مكان آخر اسمه كوتري في نفس المقاطعة و على مسافة أربعة أميال من هذا المكان تقع بهيت. البحيرة الصغيرة التي أحبها الشاعر سنوات الكثيرة بين الرهبان و الدراويش. المكان الذي لا يوجد فيه شيء تذكاري للشاعر ما عدا مسجد صغير و لكنه مشهور عالميا. و مثل ضريح ولية فريد. هذا المكان أيضا محج للناس. كان جد الشاه حبيب اللطيف الشاه عبد الكريم (١٥٣٦ - ١٦٢٣) شاعرا كبيرا. هاجر إلى هذا المكان من هرات مع الأمير تيمور في ١٣٩٨.

كان دراويش قد تنبؤوا بأن الطفل الجديد في أسرة الشاه حبيب سوف يرتفع بالمكانة من أهل السند، و يعرض لبيانه عظمة و يحتبر شهرة الشعراء في صحراء السند. يقال إن الطفل قد أرسل إلى نور محمد بهتي للتعليم و هو ابن خمس سنين، وعلى أن يتعلم شيئا بعد الحرف الأول من الأبجدية و هو "الألف" و أيضا هو الحرف الأول من كلمة "الله" و قد رأى المعلم نورا في عيون الطفل فصاح قائلا: سيكون هذا الطفل متعلما بنفسه فمنذ ذلك الوقت لم يذهب ثانيا إلى مدرسة و في سن الشباب تجول بين دراويش الصحراء حتى قبل شاه عنايت الصوفي الأكبر في السند آنذاك. إن الزهرتين اللتين منحهما الصوفي الكبير للشاه عبد اللطيف كانتا رمزا للزوجة الجديدة التي تركها في عيون الكلب البرالة. هناك حكاية تروي أن الشاه عبد اللطيف دخل في حب بسبب عراقيل وضعها والد البنت مبررا تطول به في طريقهما. فهام في صحراء السند وفي هذا الهيام وصل إلى ملتان ثم اتجه إلى مكران في بلوشستان كما زار جيسلمير و كوتش و صحراء الكتيولوار. و زار الأماكن المقدسة للهندوس في هينجلاج حيث رقص أمام تماثيل الإله كريشنا، و قدم إبحاره البلوشية مع جماعة في هيتهولاج في الصحراء و الطلبة بحرية مع أتباع جوراكناث و تحدث مع دراويش تلك بالتفصيل و التقى بالوصيائين الهندوس وقضى معهم وقتا طويلا.

و أحبهم بالإضافة منهم إعجابا شديدا و عمه الثاني و [illegible]. إن الا أمان [illegible]
و رغم كل من [illegible] تعبير رباني واقع في عالم الموسيقى [illegible]
[illegible] على رؤية الشاب نحو التصوف و الموسيقى. و [illegible]
و هو يستمع إلى الموسيقى ، إن [illegible] الأخرى مثل " [illegible] "
و " [illegible] " تشير إلى رحلاته البحرية.

و يمكن لهذا الأستاذ [illegible] في [illegible] لرسالة الشاب [illegible]
[illegible] عند ما [illegible] في الحب [illegible] : لا أدري [illegible] في الوصول
إلى حبيبته، و [illegible] على [illegible] في حزن و كتابة [illegible]
[illegible] به حتى [illegible] إلى [illegible] و لكنه هنا أيضا لم يكن
طويلا و [illegible] مع [illegible] لمدة ثلاث سنين و قد
تحولت هذه [illegible] إلى التعليم العملي الحقيقي بالنسبة له. في الواقع [illegible]
[illegible] في [illegible] و [illegible] و [illegible] إلى دار
أبيه، وجد [illegible] و [illegible].

تزوج الشاب من [illegible] في [illegible]، و قد أعطى له هذا الزواج
[illegible] في إحداث ثورة اجتماعية [illegible] و كان تصرف الشاب [illegible]
[illegible] في [illegible] ب "[illegible]" - [illegible] في جانب [illegible]
[illegible] و في جانب آخر [illegible] بصورة واسعة على التعليمات
[illegible]. كان الشاب عبد اللطيف [illegible] جزءا من حركة [illegible] في [illegible]
[illegible] و [illegible] الثقافة [illegible] [illegible] [illegible]
[illegible] ، و [illegible] و [illegible] التي [illegible]
[illegible] على [illegible] و من [illegible] إنه لا [illegible] في [illegible]
[illegible] على [illegible] و [illegible]. و إنما المطلوب هو العمل [illegible]. كان
الشاب [illegible] و لكنه كان [illegible] جدا لدى [illegible] و كان [illegible] بل كان
[illegible] لدى [illegible] [illegible] لأنه كان [illegible]
[illegible] في الواقع كان الشاب [illegible]، لأنه لم يكن [illegible] في [illegible] الهند
[illegible] و إنما في العالم الإسلامي بأسره.

[illegible] [illegible] [illegible] [illegible]. كان الشاب
[illegible] من [illegible] الشيخ [illegible] إن [illegible] [illegible]
[illegible] الشاه عبد اللطيف [illegible] زار [illegible] بعد [illegible] من [illegible].
[illegible] الشعر [illegible] من [illegible] العربية و الفارسية و [illegible]
[illegible] (SOHA) [illegible] من [illegible] ، إن الشاه عبد اللطيف الذي [illegible]
[illegible] بالأفكار [illegible] و [illegible] و حب [illegible] و [illegible] ، [illegible]
على [illegible] في [illegible] و [illegible] [illegible]
[illegible] و [illegible] [illegible] من [illegible] و [illegible] في
[illegible] . [illegible] [illegible] من [illegible]:

مثل الذرات المتعلقة بعنكبوت الأحزان بقلبي
مثل العطريات تحت الأقدام إلى صدري
و حلّت فيه كما يحل الملح في الماء
هكذا يحترق قلبي بالحب
مثل شجرة النخيل يحتل الأثر في قلبي.

كان الشاه عبد اللطيف أبرز شاعر للحب مثل التصوف الحب الذي لا يعرف حدودا جغرافية أو تاريخية و لا ثقافية لغوية. إنه زاد هيمنتها و كمؤمن قوي بالكلاسيكية الهندوسية الموكبة اعتبر البلاد كلها بلدا متحدا بعوالمها و كيانا ثقافيا موحدا. إنه كان صوفيا مسلما يعتقد بوحدة جميع الأديان. و المعابد الهندوسية و الإسلام مظاهر لحقيقة واحدة و كافح من أجل ذلك بعزم و ثبات بغض النظر عن سخط جهة أو من أي جانب.

يقول الدكتور ن. إم. جوربخشاني: إن الشاه كان مديد القامة، عريض الكتفين، معتدل الجسم، متمتعا بصحة جيدة طول الحياة. في الكبر كان شعره أسود و سميكا، و له لحية أنيقة و جلد قمحي اللون مائل إلى البياض، عريض الجبين و وسيم الطلعة، له عيون جذابة سوداء، تلمع دائما مثل جمرة المشعل، و في الكبر، عكست خلاصة الروحانية و الكمال. كان يحمل كلمة محتوها على شكل مركب في يده للمحافظة على طريقة الكهنة البوذيين و الصوفية في التصور الوسطى، و في جلسته لازم بانتا مربعة. لا ينام إلا قليلا و لا يأكل إلا ما يغنيه عن جوع. إن مثل هذا الحكيم فقط يستطيع أن يبدع شعرا عظيما في الحب و الشفقة و الرحمة. و مثل هذا الشخص فقط يستطيع أن يفهم المفاهيم (SAKA) و الجمال ([illegible]) و تاماتشي (TAMACHI).

تميز القرن الثامن عشر بطغيان الأساليب العربية و الفارسية و رغم انحطاط الإمبراطورية المغولية بقيت العربية و الفارسية سائدة و مسيطرة، و كان الرجوع إلى الكتابة في لغة محلية محفوفة بالمخاطر. يعتبر الشاه عبد اللطيف في السندية مثل مير تقي مير في الأردوية و ... الناس يغنون أبياته و أناشيده حتى الآن وبمناسبة كان الشاه ملما بالقرآن و ... صاحب. و حمل مشعل الثقافة ... متقدا شعلة بابا فريد في القرن الثاني عشر و تلاه ... في القرن الثالث عشر. و فيما يلي أنشودة من السندية إنها أغنية مقتبسة من الشعر: من SHAH JO RISALO الكلام الكلاسيكي و الرسالة عن الحب.

إنني صمت مثل جابهر ([illegible])
في هبة ريح حار.
لو كان في مقدوري أن أنسى حبيبي للأبد.

يتجلى فكر "جيتا" في شعره و هو يريد من أتباعه أن يستمروا في العمل بدون رغبة في الجزاء، لأن الله دائما في عون من يكافح و يعمل. و الرجال لا تجزيهم بالآمال المستحيلة و الخيالات.

انتقد الشاه الرجل المتواكل و المتقوقع بأبيات سلسة و رقيقة و مثالية بطريقة مسلسلة جدا. و قال : الاتكال على أمر إلهي ما هو إلا تواكل على الله و إنه لم يوافق على التوكل على الله أيضا إذا كان مع الكسل. بل أراد التوكل على الله مع العمل. و قال : من أجل السباحة عبر النيل، لا بد أن تعرف السباحة جيدا، و عندئذ فقط يكون الله في عونك. إن الديناميكية و الحركة هما ميزتان بارزتان لفلسفة الشاه التي إستطاعت زهرة حقيرة أن تلقن دروس الإنسانية للقلوب دون ذرف الدموع. فإن قوة منبثقة في التيار كانت درسا للشاه.

تنظر إلى وريقات الأعشاب هذه
إنها إنها تنقذ الرجل على وشك الغرق
لو تشخص معه في التيار.

كواحد من الرجالات الأفذاذ في القرن الثامن عشر في الهند، جعل الشاه عبد اللطيف، مثل بولهي شاه (BULLEH SHAH) و وارث شاه (WARIS SHAH) في البنجاب، معقل الثقافة الراقية في الهند و التي توارثها من الدراويش و الصوفيين في العصور الوسطى. و مثل القديس فرانسيس (ST. FRANCIS) من أسيسي لوى و الهاتما غاندي فيما بعد، قد نشر رسالة الحب و عدم العنف و تطلع إلى مجتمع يكون فيه القوي عادلا و الضعيف مستحقا لعدم العنف و عدم الإستغلال و العدالة الإجتماعية و الإقتصادية. كان هو نفسه أميا و لكنه ناضل من أجل التعليم الصحيح، و رفع صوته ضد الجور و عدم المساواة في عصره. و حتى في لغته المجازية عن الطيور كان يعطف على الطيور الضعيفة و الهزيلة و الجريحة و التي يسيل منها الدم و حذر الصياد من أن يصيد الطيور الضعيفة لأن هناك ملتقاها الأكبر. و هو الموت الذي سوف يصيبه كل واحد و قال : لا تقتل الطير لأنك لن تنال إلا جسمها فقط لا تطير.

مات الشاه عبد اللطيف في ١٧٥٢م و دفن في بهت في حيدرآباد السند ولكنه خالد الذكر لم يقتلع الموت ذلك القلب هناك، فإنه يعيش في مجده.

ويقول سوين برن (SWINBURNE) : إن لدي شعور لا بد أن يتمشى مع الموسيقى. فتطورا لهذه الميزات التي للشاه عبد اللطيف عاصرا عظيما. و يقول الأستاذ إن. أيه بلوچ (N. A. BALOCH) في بحثه الرائع بعنوان " شاه عبد اللطيف - مؤسس موسيقى جديدة " طبعته إدارة الإعلام في باكستان في ١٩٦٦م: ابتكر شاه عبد اللطيف آلة موسيقية جديدة و أسلوبا

جديدة للثقافة و أسس تقاليد جديدة في الموسيقى مبنية على تآليف فن أدبي و فن شعبي. و الآلة الجديدة التي ابتكرها هي "الطنبورة" مع سلك إضافي. فالطنبورة السابقة لها أربعة أسلاك، وأنه زاد واحداً بعنوان " زيادة " أي " شاه جو رسالو " (SHAH-JO-RISALO) عمل فني موسيقي رائع إلى جانب كونه عملاً أدبياً كلاسيكياً.

و في رأي الدكتور موتي لال جوتواني تنتمي شاه عبد اللطيف متأخرة إلى حركة بهكتي في الهند. و لكنه تميز بها بأفكاره النيرة و عمق إحساساته. و قال الدكتور ا. م. سين، في كتابه بعنوان " الهندوسية " إن مثل تصوف المناطق الأخرى في العصور الوسطى تأثر البهكتي بالأفكار الصوفية. و في الهند لم يبق طريق صوفي بدون أن يتأثر بأفكار بهكتي. و قد لعب الصوفيون السنديون مثل شاه عبد الكريم و شاه عنايت و شاه عبد اللطيف و هذه الحركة مستمرة حتى الآن.

منح شاه عبد اللطيف أتباعه أملاً و فرصة جديدة للحياة و تبلغ تعاليمه روح الاحترام الإنساني و حب الله. و خلص أهل بلاده من عصبيتها و جهالة التدين و أحب كل جنس و دين فقد صار مشهوراً في شمال الهند. إن كلماته و أبياته مليئة بالأخوة الإنسانية و الثقافة المركبة في الهند. و لا تزال معبداً مقدساً في ثانا (Thana) التي تضمن تحمل الضريح بجهة إلاهية و مشهور المقدسين.

لمحات تاريخية :

١٦٨٩ - ولد بقرية هالا حويلي بمقاطعة هالا، بحيدر آباد (السند) باكستان الآن.

١٦٩٥ - أرسل للتعليم إلى أخوند نور محمد بهتي بقرية هالا. رفض أن ينطق أي شيء أكثر من الحرف الأول من الأبجدية العربية و هو الألف.

١٧٠٦ - اشتغل في الحب بسبب ابنة ميرزا.

١٧١٢ - ١٧١٥ - تجول في الصحراء و زار كيرت و جيسلمير و بيكانير و جوناكره و جونجلي و بهكتبور و ... و ... و ... و ... و ... و ... و ... و ... و تهتا.

١٧١٣ - تزوج من سعيدة بيجوم بنت الميرزا مغول بيك.

١٧٣٠ - قتل شاه عنايت شهيداً.

١٧٣٩ - زار ... نادر شاه ... و بعد أن طلب في هذا ... بمقاطعة الباهند ... و طلب العفو منه.

١٧٤٢ - مات أبوه شاه حبيب.

١٧٥٢ - مات في بهيت في ١٧٥٢. أقام حاكم السند غلام شاه كلهورو ضريحاً فوق قبره من ... و بنى الضريح ... في تلك المواقع.

مراجع البحث المختارة

(الإنجليزية)

١ - الوادي التعيس : ريتشارد بورتون، لندن (١٨٥١)

٢ - الرسالة - ارنست ترومب، ليبزيج (١٨٦٦)

٣ - حياة شاه عبد اللطيف بهتائي : ميرزا قليج بيك (١٨٨٧)

٤ - حياة شاه عبد اللطيف و تعاليمه وشعره : ليلارام وطن مل لالواني (١٨٩٠)

٥ - السند جازيتير : إي - إتش. ايتكين، بومباي (١٩٠٧)

٦ - [illegible] السند : [illegible] (١٩٣٢)

٧ - شاه عبد اللطيف : إتش. ايم. جيدواني، إنديا سوسايتي لندن (١٩٢٢)

٨ - السند و صوفياؤها : جيتهمال برسرام، حيدر آباد (١٩٢٤)

٩ - شاه عبد اللطيف من بهت : اتش. تي. سورلي، اكسفورد (١٩٤٠)

١٠ - [illegible] في [illegible] (١٩٤٦)

١١ - روح [illegible] : [illegible] (١٩٤٣)

١٢ - الشاعر [illegible] في السند : كريم بخش خالد، حيدر آباد (١٩٦١)

١٣ - [illegible] : [illegible]، حيدر آباد (١٩٦١)

١٤ - الصوفية و [illegible] في الهند : [illegible] بومباي (١٩٤٢)

١٥ - [illegible] : [illegible]، كراتشي (١٩٥٣)

١٦ - [illegible] : [illegible] لندن (١٩٦٩)

١٧ - شاه عبد اللطيف : حياته و أعماله : موتيلال جوتواني، جامعة دلهي (١٩٧٥)

١٨ - شاه عبد الكريم الشاعر الصوفي من السند : موتيلال جوتواني، نيو دلهي (١٩٧٠)

١٩ - شاه عبد اللطيف : كليان أدواني : ساهتيا اكاديمي، نيو دلهي.

٢٠ - الشعراء بالفارسية في السند : [illegible].

٢١ - التصوف في السند : [illegible] جامعة [illegible] في العصر الوسيط.

٢٢ - [illegible] : [illegible] نيو دلهي (١٩٨١)

٢٣ - التصوف الإسلامي : [illegible] (١٩٥٤)

الأردية

١ - [illegible] لطيف : [illegible]، حيدر آباد (١٩٥٦)

٢ - [illegible] : [illegible] : كراتشي (١٩٥٣)

٣ - [illegible] لطيف : كراتشي (١٩٦٤)

٤ - روح لطيف : [illegible] حيدر آباد (١٩٥٩)

٥ - [illegible] لطيف : كراتشي (١٩٦٠)

٦ - [illegible] : [illegible] حيدر آباد (١٩٦٣)

الهندية

١ - شاه لطيف [illegible] : موتيلال جوتواني، نيو دلهي (١٩٦٩)

٢ - شاه لطيف : كليان أدواني، نيو دلهي (١٩٧٦)

تعريب : [illegible]

قصة قصيرة :

مقـــابر الغابــــة

بقلم : أمريتا بريتم

كانت أنجوري زوجة جديدة للخادم في بيت جار لي بجوار جيراني. جديدة لأنها كانت زوجة ثانية لزوجها. على هذا كان زوجها ذو زواجين. فإنه دخل عالم الزواج الثاني و أنجوري جديدة لأنها كانت حتى الآن في عالم الزواج الأول و جديدة أيضا لأنها لم تمض على زفافها سنة كاملة.

مضت خمسة أعوام منذ أن ذهب بربهاتي إلى قريته في إجازة للاشتراك في جنازة زوجته الأولى و المراسيم الأخيرة لها. يقولون إن والد أنجوري قد حضر حفل بربهاتي يوم المراسيم الأخيرة في القرية. فحين لم يتبلل منديله بدموعه بموت زوجته، فبادر في اليوم الرابع أو يوم المراسيم الأخيرة جمع جمعها. و عندما يتعفن والده بعد في ذلك اليوم ليعصر تلك المنديل فكأنه يقول " إنني أعطيك إبنتي مكان تلك الزوجة الميتة. فلا داعي الآن للبكاء. إنني جففت منديلك المبتلة.

هكذا تم زواج بربهاتي الثاني بأنجوري. و لكن لكونها صغيرة و إصابة أمها بمرض وجع المفاصل تأخر زفافها لمدة خمس سنين. على أي حال مضت تلك السنون الواحدة تلو الأخرى. و كان قد أخبر بربهاتي مستخدميه عند ذهابه إلى قريته للزفاف بزوجته هذه المرة بأنه إما أن يأتي بزوجته ليسكن معه في المدينة أو أنه لن يرجع من قريته. فشرح مستخدموه أولا لأنهم لم يريدوا أن يتحملوا نفقة أكل شخصين مكان شخص واحد. و لكنهم وافقوا بعد ما سمعوا منه بقوله إنه سوف يبني الكوخ الخلفي عبر البلاط لترقد سكينة لزوجته بعد زفافه. هكذا جاءت أنجوري إلى المدينة. إنها لم ترفع قناعها لمدة أيام أمام رجال الحي حتى أمام النساء. و لكن بعد ذلك خف تدريجيا. كانت أنجوري تذهب إلى رونق الحي عندما كانت تمشي لابسة خلاخلها الرنانة. و كذلك تزيد البهاء هنالك بخواتمها الفضية الثقيلة. و مع أنها كانت تنقل معظم أوقاتها في غرفتها، إلا أن رونقا عجيبا خلخالها لا كانت تخرج من بيتها.

" أية حلية هذه في قدميك يا أنجوري..؟ "

"إنها خلاخل قدمية"

- و ما هذا في أصابعك ..؟
- إنه خاتم
- و في ذراعيك ..؟
- إنهما خلخال
- و على جبهتك ..؟
- [illegible] لها علي بعد
- اليوم لم تلبسي شيئاً في شعرك ..؟
- إنها ثقيلة جدا ألبسها غدا . اليوم كنا ما نحب التطويل أيضا. فقد انكسر لجامه. نذهب غدا إلى المدينة لاستخدامها. كما نشتري سوارا للأنف. كانت عندي حلية أنيقة للأنف أضعتها في أم زوجي

هكذا كانت أنجوري تلبس حليها الفضية وتدلل و تزينها بتجمل.

و بعد قليل لم تلبس الحلي و صارت أنجوري تختلف في غرفتها ، كانت تجلس أمام بيتي ، عند أشجار النيم.

و كانت بئر قديمة على مكان مرتفع بالقرب من تلك الأشجار و كانت البئر مهجورة فلم يكن أحد يجلب الماء منها إلا أن عمارها كان يعبد بالقرب منها على نفقة الحكومة. و العمال كانوا يستخدمون ماء البئر ، لذلك كان يوجد هناك وحل في معظم الأوقات.

- ماذا تقرأين يا سيدتي ..؟
- بغتة جاءتني أنجوري ، كنت أقرأ كتابا تحت أشجار النيم
- هل تعرفين القراءة يا أنجوري ..؟
- لا أعرف
- فتتعلمي ..؟
- لا
- لماذا ..؟
- إن تعلم القراءة إثم بالنسبة للمرأة
- هل القراءة إثم للمرأة فقط و ليست إثما للرجل ..؟
- لا .. ليست إثما للرجل
- من قال لك هذا ..؟
- أنا أعرف ذلك
- لكنني أقرأ .. هل أنا آثمة ..؟
- النساء في المدن لا يرتكبن الإثم و لكن نساء القرى يرتكبنه

اضطررت أنا ضاحكا و ضحكت أنجوري و لكن كل ما كانت أنجوري قد سمعت و اعتقدت ، كانت حقيقة. لذلك لم أقل لها شيئا. فلو كانت باستطاعتها أن تقضي أوقاتها فرحة مسرورة داخل حدود حياتها ، فكان ذلك شيئا حسنا. كانت حياتها أصيل في وجه أنجوري إنها كانت حالكة الجسم سمراء اللون. يقولون إن المرأة مثل عجينة الدقيق و البعض منهن يكن أكثر من العجينة حتى لا يمكن جعلها خبزة سمراء و لكن جسم البعض فقط يكون مثل خمير

الطريق و يحسب [illegible] بسلام، و إن لم يعطي [illegible] يكون [illegible] بسيط [illegible] أي شكل من التميز منه.

[illegible] إلى وجه [illegible] و إلى [illegible] و إلى [illegible]. إنها كانت [illegible] الجسم [illegible] الأعضاء. و كانت قد رأيت زوجها [illegible] لها [illegible] كان [illegible] القامة ، [illegible] الوجه.

[illegible] رأيت شكل [illegible] ، خطرت لي في ذهني مقارنة [illegible] بين [illegible] لا يستحق أكثر هذه [illegible]. و إذ من يضع هذه [illegible] [illegible] ، [illegible] القلب [illegible] على هذه المقارنة.

و [illegible] ما [illegible] أن [illegible] بهذه المقارنة.

[illegible] إلى أمور بسيطة متعلقة بطريقتها و [illegible] و [illegible] و [illegible] و [illegible] و [illegible] :

" ما هي طريقة الزواج في [illegible] ..؟ "

" [illegible] تكون البنت صغيرة في عمر [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ."

" كيف [illegible] الكلام ..؟ "

" [illegible] والد البنت [illegible] [illegible] بالزهور و [illegible] [illegible] [illegible] أمام الولد."

" إنها عادة الأب و ليست عادة البنت ..؟ "

" لكن الولد [illegible] [illegible] عن البيت "

" و هل تنتظر البنت زوجها المستقبلي ..؟ "

" لا .. البنات لا ينتظرنه "

" هل البنات لا ينتظرن أزواجهن ..؟ "

" كلا .. "

" أ لا [illegible] أن [illegible] أبداً ..؟ "

" لا أبداً "

قالت [illegible] أولا " لا " ثم [illegible] [illegible] [illegible] :

" البنات [illegible] ، [illegible] "

" [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ..؟ "

" [illegible] "

" هل البنت التي [illegible] [illegible] لا تكون [illegible] ..؟ " [illegible] [illegible] ، أنا [illegible] كلام [illegible] بأن المرأة تكون [illegible] أو [illegible] [illegible]. [illegible] أن الحب [illegible] على هذا يكون [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] :

" إنه [illegible] [illegible] [illegible] "

" إذا كان الحب [illegible] [illegible] عن [illegible] [illegible] ..؟ "

" في [illegible] .. [illegible] [illegible] البنت [illegible] ، [illegible] في قلبها الحب له "

" [illegible] [illegible] ..؟ "

" [illegible] من [illegible] [illegible] ، [illegible] في [illegible] أو في [illegible] [illegible] البنت

تحبه و تخفيه على كل رجل في العالم"

" صحيح ..؟ "

" نعم أنا أعلم، فقد رأيت حبيبي "

" رأيت من ..؟ "

" كانت لي زميلة ، تكبرني قليلا في السن"

" إذن ، ماذا حصل ..؟ "

" إنها ، سافرت مخطوفة. و هربت معه إلى المدينة "

" لكن كيف عرفت أنه أطعم زميلتك حلاوة ..؟ "

" هل أطعمها في حلاوة ..؟ أ تظنين أنها هجرت أبويها و ذهبت معه إلى المدينة ..؟ "

" إنه كان يعطيها أشياء كثيرة ! يعطيها الفساتين و أسورة زجاجية و حليا من الذهب."

" هذه أشياء ! و لكن كيف عسى أنه أطعمها حلاوة ..؟ "

" إذن كيف أحبته صديقتي إذا لم يطعمها شيئا ..؟ "

" الحب قد يحدث له بدون ذلك أيضا "

" كلا .. كيف يمكن لأحد أن يحب شخصا يكره أبويه ..؟ "

" هل رأيت ذلك الحطاب ..! "

" لا .. ما رأيته ، هم يحكونه من بعيد جدا و يخطونه خفية في الصلاة أو في البستان. لذلك تسمحت لي أمي بألا آكل شيئا من يد أحد."

" نسيتني جدا بذلك لم تأكلي شيئا من يد أحد ، و لكن كيف كانت زميلتك ..؟ سوف تجد ما حدثته ..؟ "

" نعم .. أحد ما حدثته " قالت الجوري ذلك و كأنها أحست بعد ذلك بشفقة على زميلتها، فقالت في حزن :

" أصبحت المسكينة مخطوفة. فلم تكن تسقط غمرها. كانت تنهض مرات في الليل و تغني."

" ماذا تغني ..؟ "

" لا يعلم أحد ماذا كانت تغني. إن الناس كالكل علماء تغني كثيرا. و تبكي أيضا كثيرا."

انتقل صوتي من الغناء إلى البكاء. فلم أسأل بعد ذلك من الجوري شيئا آخر.

لم تمض إلا أيام قليلة. قد جاءت الجوري يوما و وضعت أمامي رسالة. قبل ذلك كلما أتت كانت علبتها ترن " هم بلم " حسنها و هي على بعد مترين منها. و لكن اليوم لا يعرف أحد أين اختفت رنة علبتها. فرفعت رأسي من الكتاب و سألتها : " ماذا حدث يا جوري ..؟ فأخذت الجوري تنظر إلي برهة ثم قالت بصوت خفيف :

" علميني القراءة يا سيدتي ..؟ علميني كتابة الاسم ..؟ "

" هل تكتبين رسالة إلى أحد ..؟ "

" لم تجب الجوري حينئذ، و ظلت تنظر إلى وجهي لمدة "

" ألا تذكرين اسمه بسبب القراءة ..؟ "

" لم تجب الجوري بعد ذلك أيضاً و بدأت تتفحص في السماء "

كان ذلك عند الظهر. لما ذهبت إلى داخل البيت تاركة إياها تحت شجرة التين، و لما خرجت صباحاً مرة أخرى رأيت أنها ما زالت جالسة تحت شجرة التين. كانت منكمشة جداً. لعل الهواء البارد في المساء أثر في جسمها لما كانت وراء شجر التين، و كنت على خشبي الجوري المتيبسة. كأنها تبكي و تقول: " لا أدري كيف أقضي عمري الباقي و خاصة شبابي "

و لما لمست الجوري بيدي حتى سقطت من غفلتها و أدارت وجهها إلى وجهي تريني أغصانها تحت شمسها بطيئة.

" أنت تغنين جيداً، يا الجوري "

و ظهر لي أن الجوري قد جمعت فروعها المرتجفة و رسمت مكانها ابتسامة مرتجفة.

" لكني لا أعرف الغناء "

" أنت تعرفين "

" إنها ... "

" هل سمعت هذه الأغنية من زميلتك ..؟ "

" علمني أبي مرة "

" إنها ليست إلا عبادة. في البستان يكون موسم المطر مدة أربعة شهور، و الصيف لمدة أربعة شهور و الهواء البارد مدة أربعة شهور."

" لا مشكلة. هل تسمعني بالغناء ..؟ "

لم تغن الجوري، و لكنها نسجت الكلمات الأولى فقط على شفتيها. كأنها تعلم كل التصاق بها.

" يكون الموسم ماطراً لأربعة شهور يا حبيبي فيرتعش منه القلب، و يكون الموسم حاراً لأربعة شهور يا حبيبي فيرتعش منه الهواء. و يكون الموسم مطيراً لأربعة شهور يا حبيبي فيرتعش منه السحاب."

و جعلت الجوري تنظر إلى وجهي، أردت أن أضع يدي على كتفها السائلة. " هل أكملت مطالب الفلية يا محبوبة ..؟ " و قد وضعت فعلاً يدي على كتفيها و أكملت سائلتها بدلاً من ذلك:

" هل أكملت الطعام ..؟ "

" الطعام " رفعت الجوري وجهها و رأتني و لما ضربت بيدي الموضوعة على كتفيها جسم الجوري كأنها ترتعش مثل الأغنية التي غنتها الآن من البستان المرتعش في موسم المطر، و الهواء الحار المرتعش في موسم الصيف، و القلب المرتعش في موسم البرد، قد أثرت كثيراً و أيضاً في جسمها.

كنت أعرف أن الجوري تستطيع مواجهة ينابيعها. و زوجة جوهاني كان يطهو الطعام لمستخدميه، و كان يأكل عشاءه وانتقل ما كانت تنتظره الجوري للأكل، فسألتها مرة أخرى.

- " هل طبخت الطعام اليوم أم لا ..؟ "
- " ما طبخته حتى الآن "
- " هل طبخت صباحا و هل شربت الشاي ..؟ "
- " الشاي ..؟ اليوم لم يكن الحليب موجوداً "
- " فلماذا لم تطلبي الحليب اليوم ..؟ "
- " أنا لا أجد الحليب.. بل ...... "
- " أ لا تصنعين الشاي كل يوم ..؟ "
- " بقية الحليب "
- " إذن ماذا حدث اليوم ..؟ "
- " الحليب .. في الأصل رام ثارا ...... "

رام ثارا حضر لي حينئذ، و هو حارس مشترك لكل واحد، يحرس البيوت طول الليل، و يأتي بالحليب الصبيح صباحا. فتذكرت أنه لما لم تكن التجوري قد جاءت، لكن بالطبع رام ثارا أحضرها من الشاي من بيوتنا صباحا. من بيت بيتا و بيتا آخر من بيت و يحضره ثم يقدم على سريره عند الظهر. و منذ أن جاءت التجوري، كان يأتي بلبن من صاحب جاموس، ثم يجمع على موقد التجوري قدر الشاي و كان يرتشف، و رام ثارا و التجوري كلهم يشربون الشاي جالسين حول الموقد. و علمت أنكم أن رام ثارا كان قد ذهب في إجازة و سافر إلى قريته منذ ثلاثة أيام.

شعرت بضحكة مؤلمة ثم قلت لها:

- " و أنت يا تجوري؟ ! لم تشربي الشاي منذ ثلاثة أيام "
- " لم تقل التجوري شيئا بل هزت رأسها بالنفي فقط "
- " ! لم تأكلي الطعام أيضا ..؟ "

لم تجب التجوري الكلام و بدا لي أنها إما لم تأكل الطعام مطلقا أو إن أكلت فقدراً يسيراً منه.

و قد تمثل أمام عيني شكل رام ثارا كاملا، وجهه الطاهر، جسمه المتين، و صاحب عينين جذابة مجعدتان، و ذا أسلوب خاص للتكلم.

- " التجوري ..؟ "
- " نعم يا سيدتي "
- " هل أكلت عشاء البارحة ..؟ "

ساقت دموع على وجه التجوري طبقت شعرها و شفتيها، و كالنسمة الملكية المستمرة من فمها أجابت مبهلة " أطلب الكلب يلحقني لم آكل أبدا مطلقا من بعده، و لم آخذ الكيلو أيضا، صاحبة الشاي، يمكن أنه قد ..." ثم ابرهت لعبرات التجوري كلها في صورتها.

تعريب : سراج الحسن

استعراض الكتب

إسم الكتاب : فلسفة الحب في "طوق الحمامة" دراسة تحليلية

تأليف : عبد الله كريمي . جمو - كي.

الناشر : مكتبة الهدى ، فيروز ر نكانور ، كيرالا الهند

عرض : د/ شميم الحسن أعظمة الله ،
جامعة جواهر لال نهرو ، نيودلهي .

يتناول هذا الكتاب بدراسة تحليلية أهم المنجزات الفكرية عند المفكر والعالم المفكر الأندلسي الإسلامي الكبير وهو كتاب طوق الحمامة الذي ألفه ابن حزم الفقيه والطبيب والشاعر والفيلسوف والمؤرخ (994 - 1064م) في علامات الحب ونشره المستشرق بتروف في ليدن في 1914م. ومما تتبين أهمية هذا الكتاب أنه ترجم إلى لغات عالمية عديدة مثل الإنجليزية والروسية والألمانية والإيطالية والفرنسية والأسبانية كما حقق وطبع في البلاد العربية مرات.

قسم الباحث هذا الكتاب إلى أربعة فصول. درس في الفصل الأول تاريخ الأندلس ثم حياة ابن حزم وشخصيته والبيئة التي عاش فيها. وفي الفصل الثاني تناول تحليل طوق الحمامة من كل النواحي تحليلا علميا دقيقا. وبهذا البيان ذكر نظرية الفلاسفة والمفكرين في الحب منذ أفلاطون إلى الوقت الحاضر. وذلك مثل قول أفلاطون: "بأن محبة الله هي الحب المثالي" وقول ابن حزم "إن محبة الله هي الدرجة العليا في الحب".

ثم تحدث الباحث في الفصل الثالث عن الحب وأقسامه مثل الحب الجنسي وغير الجنسي ثم الرومانتيكي والعذري وما إلى ذلك.

وفي الفصل الرابع يبحث في الاتصال الجسدي والاتصال الروحي والاتصال بالكلام والاتصال بالإشارة والاتصال في القرآن وغيرها.

وهكذا حلل الباحث كتاب طوق الحمامة تحليلا جيدا واستنتج من ذلك بأن ابن حزم مع كونه فقيها، فقد كان من أوائل الكتاب الذين كتبوا عن الحب وأقسامه في ضوء العلوم الحديثة وعلم النفس بصورة خاصة. وإن التحليلات والآراء التي ذكرها في هذا الكتاب تتوافق تماما مع ما توصل إليها علماء النفس في موضوع الحب في العصر الحديث.